سبط ابن الجوزي

المؤرخ الواعظ في مرآة الزمان

(٥٨١هـ/١١٨٥م - ٦٥٤هـ/١٢٥٧م)

إبراهيم الزيبق

دار البشائر الإسلامية

سبط ابن الجوزي

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٠٠٩٦١١/٧٠٢٨٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
email: info@dar-albashaer.com
website: www. dar-albashaer.com

دار
البشائر الإسلامية

ISBN 978-614-437-336-1



سبط ابن الجوزي

المؤرخ الواعظ في مرآة الزمان

(٥٨١هـ/ ١١٨٥م - ٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م)

إبراهيم الزيبق

دار البشائر الإسلامية

الإهداء

إلى مرتع طفولتي ..

وعشق روحي ..

ونبض ذاكرتي ..

إلى دمشق ..

إبراهيم الزيبق

«هل وُضعتِ التَّواريخ إلا لتميِّز بين الصَّحيح والسَّقيم، والسَّالم والسَّليم؟ فللَّه دَرُّ التَّاريخ».

سِبْط ابن الجوزي



مقدِّمة

حين عشتُ، فيما غَبَرَ من سنين، مع مؤلَّفات أبي شامة التَّاريخية، تحقيقًا وتعليقًا، ثم أفردتُ دراسة عن حياته وآثاره، لم يكن يخطر في بالي آنئذٍ أنني سأعيش مع معاصره سِبْط ابن الجوزي، إلى أن عُرضتْ عليَّ مخطوطاتُ كتابه «مرآة الزمان»، لأرى فيها رأيي. وقد اكتشفتُ يومئذٍ، بلذَّةٍ ممزوجة بألم، وأنا أستعرضُ نُسَخَها وأقابلها، أنَّ ما بين أيدينا من هذا السِّفْر العظيم هو مختصراتٌ له، أتمُّها مختصرُ قطبِ الدِّين اليونيني؛ بل إنه لم يقتصر على اختصاره، فأضاف إليه إضافاتٍ يسيرةً في بعض المواضع، وقد خَفِيَ ذلك على من وقف على الكتاب قبلي من باحثين ومحقِّقين. ومن ثَمَّ تطلَّعتُ إلى تحمُّلِ عِبءِ تحقيقه، ولأمرٍ ما حِيلَ بيني وبين ما أمَّلتُ، فاخترتُ تحقيقَ الأجزاء الثَّلاثة الأخيرة منه؛ لأنَّها في أحداثها وتراجمها تتوافق مع العصر نفسه الذي كنتُ وما زلت دائمَ الانشغال به، وأعني به عصر الزَّنكيين، ومن بعدهم الأيُّوبيِّين في مِصْر والشَّام.

وكعادتي كنتُ أدوِّن ما يعنُّ لي من ملاحظاتٍ في أثناء التحقيق، للاستفادة منها في التقديم له، وعقد ترجمة لمصنِّفه؛ وما كان يخطر في بالي وقتئذٍ أنَّني سأُصْرَفُ حتى عن تحقيق رغبتي هذه أيضًا لأمرٍ لا أعلمه، فطويتُ آسفًا ما كتبتُ، وأودعتُه درج أوراقي.

وتعاقبتِ السُّنون، ونُشِرَ الكتاب، وقرأتُ أخيرًا مقدِّمة تحقيقه، وترجمة مؤلِّفه، ولم يك أتيح ليَ الاطِّلاعُ عليها من قبل؛ فإذا هي مقدِّمة لا تصفُ الكتاب حقَّ وصفه، ولا تُنْصف مؤلفه بترجمةٍ وافية له، بَلْهَ ما وقع فيها من أخطاء وعثرات.

وانتابني يومذاك إحساسٌ مؤلم واخِزٌ حقًّا، فالمقدِّمة هي أَوَّلُ ما يطالعه القارئ من الكتاب، وهي صاحبة الانطباع الأوَّل عنه، إنْ حُسْنًا وإن شَيْنًا. وتلك المقدِّمة جاءت باضطرابها وأوهامها تسعى بين يدي القارئ، وتلقفُ تلك الجهود الكبيرة التي بُذلت في تحقيقه. ووجدتُني أفكِّر من جديد بالملاحظات التي أودعتها درج أوراقي وكدتُ أنساها؛ فمن حقِّ القارئ عليَّ أن أنشرها بين يديه، ولا سيَّما أنني أحدُ المشاركين بتحقيق الكتاب.

ثم إنَّ لسِبْط ابن الجوزي عليَّ حقًّا لا بُدَّ أن أؤدِّيه، ولئن حالتْ حوائلُ دون كتابتي عنه فيما سلف، إنَّ أمورًا عديدة تدفعني إليها الآن؛ فقد صَحِبْتُه سنين مع كلماته، باح لي فيها ببعضِ خفايا حياته، كان قد طواها بين سُطور كتابه، فرأيتُني كالمُرْغم على البَوْح بها للقارئ، وهل التَّاريخ إلا بوحُ الإنسان للإنسان على اختلافِ الأزمنة والأعصار؟

ومن ثَمَّ، فإنَّ جُلَّ اعتمادي ـ فيما أسوق من أخباره ـ على ما أَورده منثورًا في تضاعيف كتابه، كلما عنَّت له مناسبة تدعوه إلى ذكرها. وأخشى ما أخشاه أن يكون قطبُ الدِّين اليونيني قد زَهِدَ في بعضها، فأسقطها في اختصاره.

وما أغراني بالكتابة عنه كذلك: أنَّ من سبقني بالترجمة له ـ وذلك في مقدِّمات تحقيقهم لبعض كُتُبه، ومنهم علماءُ أجلَّاء ـ قد وقعوا في أوهام وأغاليط؛ فاختزلوا بعض وقائعها، ووضعوها في غير مواضعها، ولم يقفوا على بعضها الآخر، منساقين من ثَمَّ إلى تحليلاتٍ تفتقرُ إلى الدِّقَّة العلمية والاستنباط السَّليم. وربما وقعوا فيما وقعوا فيه لافتقارهم إلى كتابه «المرآة» تامًّا بين أيديهم، فغابتْ بذلك معالمُ أساسية من سيرته. ولم ألتزم بالتنبيه على أوهامهم، وهي غيرُ قليلة، تاركًا أمر التَّهَدِّي إليها لمن أراد من الباحثين والقُرَّاءِ الرَّاغبين.

ثَمَّ إنَّ سِبْط ابن الجوزي عاش هو والمؤرِّخ أبو شامة في عصرٍ واحد، وفي مدينة واحدة؛ هي مدينتي الحبيبة دمشق.

ومع أنَّ حُبَّ التَّاريخ والاشتغال به جَمَعَ بينهما، فقد فرَّقت بينهما المشارب، فلم يتعارفا. وبينما اكتفى أبو شامة في عُزْلته ـ وهو العالمُ بالقراءات والفِقْه ـ بالانكباب على التَّاريخ جَمْعًا وتدوينًا ومشاهدة، ألقى سِبْط ابن الجوزي نفسه في عُبابه، مشاركًا بأحداثه، مصاحبًا لملوك عصره.

فهما حقًّا شخصيَّتان متباينتان، تمثِّلان منهجَيْنِ مختلفين في رؤية التَّاريخ وتدوينه:

أبو شامة ذلك المؤرِّخ العالم المُجتنب للسُّلْطان، والفاضح لفساد عصره ومُفْسديه، فهو يدوِّن التاريخ من موقف المُصْلح، ويسعى جاهدًا أن يتثبَّت ممَّا يكتب، مؤمِّلًا أن يُساعد في التغيير نحو الأفضل.

وسِبْط ابن الجوزي ذلك المؤرِّخ الواعظ، المخالط للسَّلاطين، والمغتبط بصحبتهم على إنكاره لبعض أفعالهم، فهو أخباريٌّ يدوِّن التاريخ للتَّاريخ فحسب، وككثيرٍ من الوُعَّاظ تعوزُه الدِّقَّة أحيانًا فيما يوردُه، مع وَلَعِهِ بالمبالغة والغرائب.

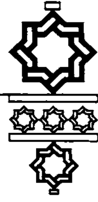
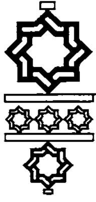
فمن دواعي الإنصاف للبحث العلمي أنْ نُجْلي صورةَ سِبْط ابن الجوزي، وننظر إلى عصره بعينيه، كما جَلَوْنا صورة أبي شامة من قبل، حتى تكتملَ النظرتان، وهو أمرٌ يستحقُّ منا عناء البحث والاستقصاء، وأملي أن يستحقَّ القراءة أيضًا.

وختامًا:

اللهَ تعالى أسألُ أن يعصم قلمي من الخطأ والخَطَل، وفهمي من الزَّيْغ والزَّلل، إنه أكرمُ مسؤول، وأعظمُ مأمول ﷻ.

دمشق في
٢٠ المحرم الحرام ١٤٣٨هـ
٢١ تشرين الأول ٢٠١٦م

إبراهيم الزيبق

في طفولته وصباه

- ١ -

هو: يوسُف بن حُسام الدِّين قِزْأُغْلي بن عبد الله، شمسُ الدِّين، أبو المُظَفَّر، التُّرْكي، العَوْني، الهُبَيْري، البغدادي ثم الدِّمشقي، والحَنْبلي ثم الحَنَفي، سِبْط الإمام العالم المحدِّث الواعظ جمال الدِّين أبي الفرج عبد الرَّحمٰن بن علي بن محمد ابن الجَوْزي(١).

---

(١) أجمعت المصادر على إيراد نسبه بهذا السياق على كثرتها، وورد في بعضها اسم أبيه: «قِزأُوغلي»، و«قِزغُلي». ويقال كذلك: «زُغْلي»؛ بحذف الألف والقاف تخفيفًا.
و«قِزْأُغْلي» و«قِزغُلي» لفظ تركي، ترجمته الحرفية «ابن البنت»، وهو يتوافق معنًى مع لفظ «السِّبْط» بالعربية، فهل هو لقب للسبط أم اسم للأب، توافقا معنًى، واختلفا لغة؟
صنيع القدماء على أنه اسم للأب، وبعضهم كان معاصرًا له كابن خَلِّكان، وتلميذًا له كالدِّمياطي.
وذهب الأستاذ عباس العزاوي ـ وهو باحثٌ معاصر ـ إلى أن قزأغلي هو نعت للسبط بالتركية، وليس اسمًا للأب، وصوابه هو يوسف قزأغلي بن عبد الله، جاعلًا بذلك جدَّه عبد الله هو اسم أبيه. وهو اجتهاد منه، لا يؤيده نص. ومشى على خطاه غير واحد من الباحثين. ينظر: «التعريف بالمؤرخين» (٧١).
وأغرب الأستاذ حسام الدِّين القدسي بقوله: «قزغلي. . قزأغلي، كلاهما وما يتصحف عنهما خطأ، ويسعى بعضهم لتعليله تعليلًا أعجميًّا فاسدًا، والصواب: فرغلي، كما في نسخة قديمة من «الوافي بالوفيات»، وابن خلكان، وغيرهما من كتب الثقات»!
قلت: وما ذكره هو تصحيف للاسم ـ وكذلك تصحف في مطبوع «الفوائد البهية» ـ =

ولا نعرفُ إلا القليل عن والدَيْه.

فأبوه: حُسام الدِّين قِزْأُغْلي من مماليك الوزير عون الدِّين يحيى بن محمد ابن هُبَيْرة[1]، وكان عنده بمنزلة الولد، فأعتقه[2]. وبعد وفاته تدرَّجتِ الأحوالُ به حتى صار من أعوان صاحبِ المخزن ظهير الدِّين أبي بكر ابن العَطَّار[3].

وأما والدتُه، فهي: رابعة بنت الشَّيخ عبد الرحمٰن ابن الجوزي[4]، ولا نعرفُ شيئًا عن أمها وأسرتها إلا خالها خاصْبَك، وكان من ملازمي مجلس الشيخ عبد القادر الجِيْلي، ويوحي اسمه أنَّه من أصولٍ تركية[5].

وكانت رابعة على شيءٍ من العلم كسائر أخواتها[6]، فقد سمعتِ الحديث من أبيها ومن مُعْظم مشايخه. وأوَّلُ أزواجها أبو الفتح بن رشيد الطَّبَري، زُفَّت إليه في المحرم سنة **٥٧٢هـ**/تموز **١١٧٦م**، ولم يطل عمره معها، فلمَّا تأيَّمت بوفاته خطبها حسامُ الدِّين من أبيها، فزوَّجها له[7] ـ ربما وفاء لمودَّة كانت له للوزير[8] ـ وأوْلَدها يوسُف في رجب سنة **٥٨١هـ**/

= فلا يلتفت لما ذهب إليه. ينظر: «شذرات الذهب» (٥/ ٢٦٦، حاشية رقم ٥)، و«الفوائد البهية» (٢٣٠). واغترَّ بقول القدسي ناشرو كتب «تذكرة الخواص»، و«إيثار الإنصاف»، و«الانتصار والترجيح»، فتابعوه على وهمه وتصحيفه!
وينظر في ضبط قزأغلي: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٤/ ٧٦٨)، و«تاريخ علماء بغداد» (١٩١)، و«الأعلام» للزركلي (٨/ ٢٤٦).

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٢٣٩)، وتاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧).
(٢) ذيل مرآة الزمان (١/ ٣٩).
(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٢٥٥).
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٢٣٥، ٢٢/ ١١٨)، والمذيل على الروضتين (١/ ١١٢).
(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٧٨).
(٦) وهن: شرف النساء، وزينب، وجوهرة، وست العلماء الكبرى، وست العلماء الصغرى. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ١١٨).
(٧) مرآة الزمان (٢١/ ٢٣٥، ٢٢/ ١١٨)، والمذيل على الروضتين (١/ ١١١ ـ ١١٢).
(٨) كان الوزير يحيى بن محمد ابن هبيرة من العلماء الوزراء، وزر للمقتفي لأمر الله العباسي، ومن بعده لابنه المستنجد بالله، ومات مسمومًا سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م، =

تشرين الأول ١١٨٥م[1].

ولعلَّه ابنهما الوحيد، فإنَّه لم يحدِّثنا من بعدُ عن إخوةٍ له أو أخوات.

* * *

= وكان بينه وبين الشيخ عبد الرحمٰن ابن الجوزي صحبة ومودة. تنظر ترجمته في: «مرآة الزمان» (٢١/ ٥٨ ـ ٦٨)، و«كتاب الروضتين» (١/ ٤٤٠ ـ ٤٤١)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٢٦ ـ ٤٣٢).

وما ذكره قطب الدين اليونيني ـ وتابعه بعض الباحثين ـ من أن الوزير ابن هبيرة هو من خطبها له، ولم يمكن الشيخ ابن الجوزي إلا إجابة الوزير إلى ذلك، فزوَّجها له؛ لا يصح، لما علمت من أن وفاة الوزير ابن هبيرة كانت سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م؛ أي: قبل أن يتزوجها أبو الفتح بنحو عشر سنين. ينظر: «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٠).

وما جاء في «وفيات الأعيان» (٦/ ٢٣٩): وكان أبوه قزغلي مملوك عون الدين ابن هبيرة، وزوَّجه بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج؛ لا يصح كذلك؛ لأن قوله: وزوَّجه، هي محرفة عن قوله: وزوجتُه بنتُ الشيخ. .، كما جاء في إحدى نسخه على الصواب.

(١) هذا ما حدثه به خاله محيي الدين يوسف، وكان من لداته، ولعله في ذكره شهر مولده قد حفظ ما لم يحفظه غيره، ولذلك رجحته. ينظر: «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٢)، واعتمده ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٣/ ١٤٢)، وتلميذه شرف الدين الدمياطي في «معجم شيوخه»، (ورقة ٢١١)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٧٦٧). ولم يجزم به الحسيني في «صلة التكملة» (١/ ٣٤١) فقال: ومولده نحو سنة ٥٨١هـ.

وذكر سبط ابن الجوزي خاله يوسف في مواضع متفرقة من كتابه «مرآة الزمان»، وساق ترجمة مختصرة له (في الجزء ٢٢/ ١١٧).

وكانت والدة سبط ابن الجوزي تخبره أن مولده سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م. ينظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ١٤٢)، و«ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٢).

أما الصفدي، وتابعه ابن شاكر الكتبي، فذكر أنه ولد سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. ينظر: «الوافي بالوفيات» (٢٩/ ١٢١)، و«فوات الوفيات» (٤/ ٣٥٦).

واختلف فيه قول ابن تغري بردي، فذكر في «النجوم الزاهرة» (٧/ ٣٩) أنه ولد سنة ٥٨٢هـ، وفي «المنهل الصافي» (١٢/ ٢٣٢) أنه ولد سنة ٥٨٣هـ، وأغرب في «الدليل الشافي» (٢/ ٨٠٥)، فقال: ولد سنة ٦٠٣هـ!

ولمَّا ترعرع يوسُف اجتذبه جدُّه إليه، فأقرأه وتفقَّه عليه، وأسمعه الكثير من مروياته، ومن غيره من العُلماء[١].

وكان يوسُف يقيم وقتذاك في الحَرْبية[٢]؛ محلَّة الحنابلة غربي بغداد[٣]، في دار مجاورةٍ لقبر زاهدِها الوَرِع عليٍّ بن عمر المعروف بابن القَزْويني (المتوفى سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥١م)، فكان يقفُ على قبره، ويرى بركة زيارته[٤].

ويختلفُ إلى حلقات شيوخها[٥]:

فقرأ القرآن على شيخ القُرَّاء[٦] رَيْحان بن تِيْكان بن موسك ـ وكان قد ختَّم ألوفًا من الطَّلبة ـ، **وسمع منه الحديث**[٧].

وسمع كذلك من: عبد الله بن أبي بكر بن أحمد بن طُلَيب ـ ويعرف بابن السِّنْدان، وكان شيخًا صالحًا ثقة[٨] ـ، والواعظ عمر بن علي الحَرْبي[٩]، والزَّاهد العابد أبي العبَّاس أحمد بن سَلْمان الحربي ـ وكان جارَه، ويصلِّي خلفه في المسجد[١٠] ـ، والشَّيخ عبد الرحمٰن بن أبي حامد ابن عَصِيَّة الحربي[١١]، والشيخ يوسف بن يعقوب الحربي[١٢]،

---

(١) ذيل مرآة الزمان (١/ ٤٠)، وينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ١٤٥).

(٢) مرآة الزمان (١٨/ ٤٧٨). (٣) مرآة الزمان (١٦/ ٤٢٥).

(٤) مرآة الزمان (١٨/ ٤٧٨)، وينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٦٠٩ ـ ٦١٣).

(٥) سبط ابن الجوزي كثير التدليس في أسماء شيوخه، ولهذا آثرت إيرادها كاملة كيلا تلتبس، ولم أنبه على ما تصحَّف منها أو تحرَّف فيما طبع من مؤلفاته لكثرتها.

(٦) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٩٥). (٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤١).

(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٢)، والجليس الصالح (٧٩، ١١٧، ١٤٩، ١٥٦، ١٦٣).

(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٨). (١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤٤).

(١١) مرآة الزمان (١/ ٤٤٨، ٦/ ٤٤٤)، وينظر: «التكملة لوفيات النقلة» (٢/ ٦٦ ـ ٦٧)، و«توضيح المشتبه» (٦/ ٢٨٩).

(١٢) وروى عنه حكاية طريفة جرت في بغداد زمن الخليفة المستنجد بالله. ينظر: «مرآة الزمان» (٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

وعبد الملك بن مظفر أبي غالب الحربي[1]، وعبد العزيز بن محمود البزَّاز ـ المعروف بابن الأخضر[2] ـ، وعبد الوهَّاب بن علي بن علي الصُّوفي ـ المعروف بابن سُكينة[3] ـ، وخاله أبي القاسم علي بن أبي الفرج[4]، وزوج خالته أبي الفتح عبد الوهَّاب بن بُزْغُش المقرئ[5]، وعبد العزيز بن دُلَف[6]، وأبي الحسن علي بن يحيى بن بركة القَطَّان ـ وكان متكبِّرًا جدًّا، كما وصفه[7] ـ، والنَّجيب عبد المُجيب بن أبي القاسم عبد الله بن

---

(١) تذكرة الخواص (١١٢، ٣٦٧)، والجليس الصالح (٥١، ٧١، ٩٣)، وتنظر ترجمته في: «تاريخ الإسلام» (١٢/ ١٢١٨).

(٢) ومن جملة ما سمع منه كتاب «فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» لأحمد ابن حنبل. ينظر: «مرآة الزمان» (٢/ ١٨٦، ٤/ ٣٨٤، ٦/ ٤٤٤، ٢٠/ ٤٦٠، ٢١/ ٢٦١، ٢٦٤)، وترجم له (في الجزء ٢٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، ووفاته سنة ٦١١هـ/ ١٢١٥م، و«تذكرة الخواص» (١٩)، و«الجليس الصالح» (٢٨)، و«المذيل على الروضتين» (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣١ ـ ٣٢).

(٣) مرآة الزمان (٢/ ٢٢٠، ٦/ ٤٤٤، ٧/ ١٠١، ٢٢/ ١٧٤).

وروى عن مشايخه: عبد الوهاب بن علي الصوفي، وعبد الرحمٰن بن أبي حامد ابن عصية الحربي، وعبد العزيز بن محمود البزاز حكاية عجيبة جرت للواعظ أبي منصور المظفر بن أردشير العَبَّادي، المتوفى سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م. ينظر: «مرآة الزمان» (٦/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥)، ونقلها عنه الذهبي في كتابيه «تاريخ الإسلام» (١١/ ٩١٩)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٢٣٢). ثم أعاد ذكرها (في الجزء ٢٠/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، ونسبها إلى رجل علوي!

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢١).

(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٢٥١، ٢٢/ ٢٠٤)، والجليس الصالح (٥٣، ٧٥، ٩٥)، وينظر: «معرفة القراء الكبار» (٣/ ١١٦٦ ـ ١١٦٧)، و«تاريخ الإسلام» (١٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

(٦) مرآة الزمان (٢١/ ٢٦١)، وينظر: «معرفة القراء الكبار» (٣/ ١٢٤١ ـ ١٢٤٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٤٤ ـ ٤٦).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ١٩٤).

وذكر سبط ابن الجوزي أنَّ أبا الحسن هذا هو ابن أخت جدته فاطمة، وذكر أن وفاته سنة ٦٠٩هـ. =

زهير[1]، وأبي طاهر إبراهيم بن أحمد بن محمد بن حَمَدِيَّة العُكْبَري[2]، والمسند المعمَّر أبي القاسم ذاكر بن كامل الخفَّاف[3].

وحصَّل إجازة من: محمد بن محمد بن حامد ـ المعروف بالعماد الكاتب الأصفهاني[4] ـ، وعلي بن هبة الله بن مسعود البغدادي البزَّاز[5]، وعبد الله بن منصور بن عمران الباقلاوي المقرئ[6]، وخطيب دمشق عبد الملك بن زيد الدَّوْلعي[7].

ويتردَّدُ إلى مجالس جدِّه أبي الفَرَج، وهناك كان يلتقي بعض زائريه، منهم: الحسينُ بن أحمد الخِياري، وكان حُفَظَةً للحكايات والأشعار والمُلَح، فكان يوسف يستمع إلى حكاياته التي يحكيها لجدِّه، وبقي عالقًا في ذاكرته بعضها، فأثبتها من بعدُ في «تاريخه»[8].

= **قلت:** وفاطمة هذه هي أخت أبي الفرج لأمِّه، وهي فاطمة بنت عبد الله بن أحمد البغدادي البزاز، المعروف بابن الطُّوَيْرَة، توفيت سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٩م. وسماها سبط ابن الجوزي جدَّته، وهي عمة أمِّه رابعة، لمنزلتها الكبيرة عنده، وأم شيخه أبي الحسن هذا كذلك هي أخت جدِّه أبي الفرج. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ١٦٦ ـ وفيه تحرَّف الطويرة إلى الطريزة ـ)، و«ذيل تاريخ مدينة السلام» (٤/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦ ـ وفيه وفاته سنة ٦٠٠هـ، وهو وهم ـ)، و«التكملة» للمنذري (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١، ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٦٣)، والجليس الصالح (١٠٥).
وتصريحه بالسماع منه سقط سهوًا من طبعتنا للمرآة، فيستدرك من هنا، وهو في (٨/ ٣٥٠) من نسخة خطية مصورة في شيكاغو، سنة ١٩٠٧م، و(٨/ ٥٣٨) من طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

(٢) الانتصار والترجيح (٦)، وسقط من المطبوع «إبراهيم» وهو اسمه، وله ترجمة في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٤٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤)، و«توضيح المشتبه» (٣/ ٣٢٠).

(٣) الانتصار والترجيح (٦، ١٠)، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٤) مرآة الزمان (١/ ٦٧، ٢٢/ ١٢٠).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٣٦).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٥٥).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ١٢٦).

(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٨).

وفي **الصَّيفِ** يستروحُ من شدَّة حرٍّ بغداد في مقابر الإمام أحمد ابن حنبل، وكان يأوي إليها في ذلك الوقت رجلٌ قادم من بَلْخ اسمه محمد، يكُنُّ من الحرِّ في القِباب، ويصومُ الدَّهر، ويتقوَّت بالخُبَّازَى، ولا يكلِّم أحدًا من خلق الله، فأحبَّه الصَّبي يوسُف وأَنِسَ به، وكان يعتقده من الأبدال، وبقي هذا الشَّيخ مقيمًا في المقابر حتى سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م، ثم غاب عن عينيه بعد ذلك[١].

ويبدو أنَّ وعيه تفتَّح أوَّل ما تفتَّح على أخبار شخصيَّتين عظيمتين لم يدركهما، **أولاهما**: الشيخُ الإمام العالم عبد القادر الجِيْلي (المتوفى سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م)[٢]، فقد أدرك جماعةً من مشايخه يحكون جُمْلة من كراماته الظَّاهرة، منهم خاصْبَك؛ خاله لأمِّه، ورجلٌ صالح من أهل الحربية يقال له مُظفَّر[٣]. **وثانيتهما**: الوزير عون الدِّين يحيى بن محمد بن هُبيرة (المتوفى سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، فقد سمع من مشايخه عنه حكاياتٍ عجيبة، أثبتَ بعضها فيما بعدُ في «تاريخه»[٤].

وكان يتشوَّفُ على حداثة سِنِّه إلى رؤية كبار عصره، فقد رأى القاضي عبد الرحمٰن بن الحسين بن عبد الله؛ الملقب لذكائه وفطنته بالقاضي شُريح. وبقيت صورتُه عالقةً في ذاكرته، فهو من ألطف العالم وأذكاهم. وكان هذا القاضي قد أمضى سنيَّ حياته الأخيرة منسيًّا في سجنه حتى وفاته سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، فكتب عنه فيما بعد يقول: «كان فاضلًا، مترسِّلًا، بليغًا جَوَادًا، سَمْحًا، حَسَنَ الصُّورة، فصيحَ اللِّسان، متواضعًا، يصلح للوزارة.. ورسائله مدوَّنة في مجلَّدين»[٥].

ولم يكن يفوته ما يقع في بغداد من أحداث؛ فحين قُتل طُغْريل شاه؛ آخرُ سلاطين السَّلاجقة، ودخلوا برأسه مرفوعًا على خشبة إلى بغداد في

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٥١).
(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٧٨).
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٦١ ـ ٦٣).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧).

جمادى الأولى سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، كان الصبي يوسف يتطاولُ بين الجموع التي احتشدتْ لرؤيته، ويُحِدُّ النظر إليه بعينين شعَّ فيهما بريق الفضول، فيكتشف أنَّ الموت لم يغيِّر من محاسن وجهه، فيصفه لنا من بعدُ بقوله: «كان من أحسن النَّاس صورةً، ووجهه كأنَّه القمر، وأثر النُّشَّابة في عينه، وعلى خدِّه ضربة»[١].

وبعيدًا عن تلك الصُّورة المحزنة شَهِدَ في ذلك العام نفسه مجلسَ الواعظ الكبير شهاب الدِّين عمر بن محمد السُّهْرَوَرْدِي، وهو يعظ برباط درب المقبُرة، ومنبره طين، وعلى رأسه مئزر صوف[٢].

* * *

ولم تمض الحياة بالصَّبي يوسُف على هناءتها، فبعد أشهر قلائل من تلك السنة، وكان قد بلغ التَّاسعة من عمره، وقعت لجدِّه الأثير لديه محنةٌ قاسية انتزعتْهُ منه. فقد سِيْق الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي، أمام ناظريه ـ وهو في نحو الثَّمانين من عمره ـ إلى واسط، وأقام في دارٍ بدرب الدِّيوان، وفُرضت عليه هناك إقامة جبرية، ووكل حارسٌ على بابه[٣].

وسببُ محنته هذه عداوةٌ قديمة كانت بين الوزير عُبيد الله بن يونس، وأولاد الشيخ عبد القادر الجِيْلي[٤]، أجَّجَ نارها كبسُ الوزير ابن يونس بيتَ حفيده عبد السَّلام بن عبد الوهَّاب بن عبد القادر، وكانت عنده كُتُبٌ كثيرة من كُتُب الفلاسفة والمنطق والسِّحْر، وهي محظورة في ذلك العَصْر، فحُكِمَ بإحراقها. وكان الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي ممَّن أفتى بذلك، فأحرقت سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م على مرأى من النَّاس ومسمع. فأسرَّها عبد السَّلام في نفسه. ثم إن ابن يونس نكاية بعبد السَّلام ولَّى ابنَ الجوزي مدرسة الشيخ عبد القادر[٥].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١)، والمذيل على الروضتين (١/ ٥٧).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٥، ٣٣، ٥٦ ـ ٥٧).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٥ ـ ٦)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

فلما وَلِيَ الوِزَارة محمدُ بنُ علي بن أحمد ابن القَصَّاب في شعبان سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م[١]، قبض على ابن يونس ـ وكانت بينهما عداوة ـ وراح يتتبَّع أصحابَه، فقال له عبد السَّلام: أين أنت من ابن الجوزي؟ هو كان من أكابر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرق كتبي بمشورته. فكتبَ ابنُ القصَّاب إلى الخليفة النَّاصر لدين الله، وساعده على ذلك جماعة، ولبَّسوا عليه الأمر، فأمر بتسليمه إلى عبد السَّلام[٢].

ولعلَّ الخليفة كان مضطغنًا كذلك على أبي الفرج لما أورده في تاريخه «دُرَّة الإكليل»، الذي ذيَّل فيه على تاريخه «المنتظم»[٣]، فرآها فرصة لاعتقاله.

وتركتْ هذه الحادثة آثارًا لا تمحى في ذاكرة الصَّبي، طفتْ فيما بعدُ على قلمه، فكتب يقول: «كان جدِّي يسكن بباب الأَزَجِّ في دار بنفشا[٤]، وكان الزَّمان صيفًا، وهو جالسٌ في السِّرْداب يكتب، وأنا صبيٌّ صغير، وإذا بعبد السَّلام قد هَجَمَ عليه في السِّرْداب، وأسمعه غليظ الكلام، وختم على كُتُبه وداره، وشتَّت عِياله، وجرى عليهم ما لم يجرِ على أقلِّ النَّاس. فلمَّا كان أوَّلُ الليل حملوا جدِّي إلى سفينة، فأنزلوه فيها، ونزل معه عبد السَّلام لا غير، وعلى جدِّي غِلالة بغير سراويل، وعلى رأسه تخفيفة، وحدَرُوه إلى واسط، واستوفى منه الكلام، وجدِّي لا يجيبه»[٥].

---

(١) الكامل لابن الأثير (١٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩)، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٧٦).
(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٢٦١، ٢٢/ ٣٣).
(٤) هي بنفشا بنت عبد الله؛ جارية المستضيء الخليفة العباسي، وكان لأبي الفرج ابن الجوزي عندها منزلة عالية، توفيت سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م. تنظر ترجمتها في: «مرآة الزمان» (٢٢/ ١٢٥)، و«المذيل على الروضتين» (١/ ١١٧ ـ ١١٨)، وذكرت ثمة مصادرها.
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١، ٣٣، ٤٧)، والمذيل على الروضتين (١/ ٥٧).

وفي تلك الدار في واسط أقام الشيخ أبو الفرج ابنُ الجوزي وحيدًا مع شيخوخته، ليس له من مُعينٍ عليها، فكان يخدُم نفسه، ويغسِلُ ثوبه، ويطبخ ويستقي الماء من البئر[١]. وتلقَّى ذلك كلَّه بالصَّبْر والحَمْد والشُّكْر[٢].

* * *

في غيبة جدِّه القسرية راح يوسُف يُكمل وحده ما بدأه، فتابع اختلافه إلى حلقات العلم، فقرأ النَّحْو والأدب على الوجيه المبارك بن المبارك الواسطي[٣]، وعبد الله بن الحسين أبي البقاء العُكْبَري[٤]، وسمع الحديث من مُسْنِد العصر الشَّيخ الجليل عبد المنعم بن عبد الوهَّاب ابن كُلَيْب الحرَّاني ـ وكان قد انتهى إليه علوُّ الإسناد[٥] ـ، والمحدِّث أبي القاسم يحيى بن أسعد ابن بَوْش[٦]، والمُسْند عمر بن محمد بن معمر المؤدِّب الدَّارَقَزِّي ـ المعروف بابن طَبَرْزد[٧] ـ، وهبة الله بن الحسن بن المُظفر الهَمَذاني[٨]، وحمزة بن علي بن حمزة ـ المعروف بابن القُبَّيطي[٩] ـ، والمُسند المعمَّر أبي طاهر المبارك بن المبارك ابن المَعْطُوش

---

(١) المصدران السالفان.

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٩٥).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٤) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨)، وينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٤٢).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ١٩٥)، والجليس الصالح (١١٤، ١٤٥، ١٤٦)، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٥٨ ـ ٢٦٠).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٥٨، ١٩٥)، والجليس الصالح (٢٩٦).

(٧) يفهم من سياق كلام سبط ابن الجوزي أنه سمع من ابن طبرزد في بغداد، وهو ما صرَّح به قطب الدين اليونيني. ينظر: «مرآة الزمان» (١/ ٤٤٤، ٢٢/ ١٩٥، ١٧٤ ـ ١٧٥، ٣٩٣)، و«الجليس الصالح» (٤٨، ١٣٨)، و«ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٢).
وذكر الذهبي في كتابيه: «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٧٦٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٢٩٧) أنه سمع منه بدمشق.
قلت: ولا يستبعد ذلك، فلعله سمع منه مرتين: الأولى في بغداد، والثانية في دمشق، والله أعلم.

(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٢٧).

(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

الحَرِيْمي[1]، وأبي القاسم عبد الله بن علي بن النفيس الأنباري[2]. وقرأ على علي بن أحمد بن سعيد بن الدَّبَّاس أبي الحسن المقرئ[3].

وأجاز له شعرَه نقيبُ الطَّالبيين بالبَصْرة يحيى بن محمد أبو جعفر العلوي، وكان قد قدم بغداد، ومدح الخليفة النَّاصر لدين الله بقصائد، وكان رقيق الشِّعْر، مليح النظم[4]. وحصَّل إجازة كذلك من قاضي تَكْريت يحيى بن القاسم بن المفرِّج التَّكْريتي[5].

ولا ندري مع مَنْ رحل ـ وهو في نحو الحادية عشرة من عمره ـ إلى هَمَذَان، ليسمع من مُسْنِدها الجليل أبي الغنائم شِيْرويه بن الشيخ الأجل المحدِّث شَهْرَدار أبي منصور الحافظ[6].

وفي بغداد ينازعُه الحنينُ إلى جدِّه، فيختلفُ إلى مجالس وعظ أصدقاء جدِّه: الشيخ عبد المُنْعم بن علي بن الصَّيْقل الحرَّاني بمسجد باب المشرعة[7]، والشيخ محمد بن سعد الله بن نصر الدَّجاجي برباط الأخلاطية[8]، والشيخ الزَّاهد محمود بن عثمان بن مكارم النَّعَّال، وكان

---

(١) تذكرة الخواص (١١٠، ١٢٨)، والجليس الصالح (٢٧، ٤٧، ٥٣، ٦٥، ٧٠، ٢٩٥)، وتنظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١).

(٢) تذكرة الخواص (١٢٤)، والجليس الصالح (١٢٣، ١٣٤، ١٣٥)، وينظر: «تاريخ الإسلام» (١١/ ٨٩٥).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣١)، وينظر: «معرفة القراء الكبار» (٣/ ١١٥٦ ـ ١١٥٨).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٥).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٥).

(٦) الانتصار والترجيح (١٢ ـ ١٣)، وقد ذكر أنه سمع منه بهمذان في رجب سنة ٥٩٢هـ، وتحرفت في المطبوع منه إلى ٥٧٢هـ! وتنظر ترجمة أبي الغنائم في: «التكملة لوفيات النقلة» (٢/ ٣٠)، و«تاريخ الإسلام» (١٢/ ١١٩٨ ـ ١١٩٩).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤٥).

والأخلاطية: هي سلجوقي خاتون بنت قليج رسلان بن مسعود، زوجة الخليفة الناصر لدين الله، وكانت حظية عنده، وتوفيت سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م. ينظر: «مرآة الزمان» (٢١/ ٣٦٤).

يزوره في رباطه بباب الأَزَجِّ. وكان شيخًا مهيبًا لطيفًا، كيِّسًا باشًّا، مبتسمًا، يصومُ الدَّهر، ويختِمُ القرآن كلَّ يوم وليلة، ولا يأكل إلا من غزل عمَّته. وفي رباطه يتعرف سِبْط ابن الجوزي إلى أهل العلم من المقادسة نزلاء صالحية دمشق، فقد كانوا يأوون إليه، وكان الشيخ محمود يُؤْثرهم على غيرهم(١).

وطالما حدَّثه شيخه عبد الكريم عن عمِّه الشَّيخ الزَّاهد الحَنْبلي حسن بن مسلَّم بن أبي الحسن، فيسعى سبط ابن الجوزي إلى زيارته في زاويته بالفارسية؛ وهي قرية بنهر عيسى.

وكان الشيخ حسن قد قضى من عمره أربعين سنة لا يكلِّمُ أحدًا من النَّاس، فهو صائمُ الدَّهر، وقائمُ الليل، يقرأ كلَّ يوم وليلة ختمة. فيحكي له جماعةٌ من مشايخ القرية أن السِّباع تنام طوال الليل حول زاويته، ولا تتعرَّض لأحد، وأن فقيرًا نام في الزَّاوية في ليلة باردة، فاحتلم، فنزل إلى النهر ليغتسل، فجاء السَّبُع، فنام على جُبَّته، فكاد الفقير يموت من البرد والخوف، فخرج الشيخ حسن، وجاء إلى السَّبُع، وضربه بكُمِّه، وقال: يا مبارك، قد قلنا لك: لا تتعرَّض لضيفنا، فقام السَّبُع يهرول(٢).

ولم يكن ليخفِّفَ من مسِّ فَقْده لجدِّه ما يقع أحيانًا في بغداد من مشاهد ساخرة، ولعل أشهرها ما وقع سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م حين قدم إليها من القُدْس الأمير حسام الدِّين أبو الهيجاء السَّمين، منتميًا للخليفة النَّاصر لدين الله، ومفارقًا لملوك بني أيوب، يومئذٍ خرج جميعُ أهل بغداد للقائه، وفيهم الفتى سبط ابن الجوزي. كان رأسُ أبي الهيجاء صغيرًا وبطنه كبيرًا جدًّا، فكان يندلقُ على رقبة البغلة التي يركبها. وحين مرَّ بالحربية رآه رجلٌ كوَّاز، فعمل من ساعته كُوزًا من طين على هيئته، وسبقه فعلقه في السُّوق، فلما اجتاز به أبو الهيجاء ضحك، ثم عمل بعد ذلك أهل بغداد كِيْزانًا على صورته، وسَمَّوْها أبا الهيجاء السَّمين(٣).

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٩٣).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٥٩ ـ ٦٠).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦، ٥٢، ٦٧).

وكادتِ السنة الخامسة على حبس جدِّه تُطوى، وهو في محبسه بواسط، لم يدخل خلالها حمَّامًا قط، ولا قرأ سورة يوسُف في ختمته للقرآن التي كان يختمها كلَّ يوم، حزنًا على ولده يوسف؛ سميِّ سِبْطه[(١)].

حتى كان يومٌ وقف فيه للخليفة النَّاصر لدين الله ـ وهو في بستان يتنزَّه ـ هذا الابن البار محيي الدِّين يوسف، وبيده قِصَّة يذكر فيها ما نال أباه وأهله من الضُّرِّ، فرقَّ له الخليفة، وأمر بالإفراج عن أبيه. فرجع الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي إلى بغداد في شعبان سنة ٥٩٥هـ/ حزيران ١١٩٩م، فخُلِعَ عليه، وأعيد إلى مجلس وعظه عند تربة أم الخليفة.

وفي أول مجالسه للوعظ بعد انقطاعه الطويل عنها تمثَّل ببيت الشَّريف الرَّضي:

إن كان لي ذنبٌ ولم آتِه فاستأنفِ العفوَ وَهَبْ ما مضى[(٢)]

وعاود سبط ابن الجوزي بنشاطِ الجَذْلان حضورَ مجالس وعظ جدِّه[(٣)]، وهو الحاملُ للوائه في عصره[(٤)]، ينهلُ منه طريقته وأسلوبه فيما كان يُسمَّى السَّجْع الوعظي[(٥)]، وكان لجدِّه فيه مَلَكة قوية[(٦)]، مع ما أُوتيَ

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١ ـ ٣٢)، والمذيل على الروضتين (١/ ٥٧).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٦٧، ١١٧).
وذكر سبط ابن الجوزي أن بيت الشريف الرضي هذا أورده في ترجمته ـ أي: (في الجزء ١٨/ ٢٤٧)، وما بعدها من «المرآة»، في وفيات سنة ٤٠٦هـ ـ، ولم أقف عليه فيه، ويبدو أن قطب الدِّين اليونيني قد حذفه في اختصاره. ولم أقف على البيت كذلك في «ديوانه».
(٣) ينظر: «مرآة الزمان» (١/ ١٣٤، ١٥/ ٤١٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٧).
(٥) ساق سبط ابن الجوزي بعض سجعات جده في الوعظ في ترجمته له. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ١٠٠، ١٠١).
(٦) سيرأعلام النبلاء (٢١/ ٣٧٧).

من طِيْبِ الصوت، وحُسْنِ الحديث، ومعرفة فنونه، ورشاقة عبارته، ولطف شمائله[1]، وتمثَّل سِبْطُه ذلك تمام التمثيل. وخَبَرَ وَقْع كلامه في النُّفوس، فممَّا سمع من أقواله في مواعظه: «من قنع طابَ عيشه، ومن طمع طال طيشه * الطاعة تبسُط اللسان، والمعاصي تُذلُّ الإنسان»[2]، وسمعه مرَّة يقول على المنبر: «كتبتُ بأصبعيَّ هاتين ألفي مجلَّدة، وتاب على يدي مئة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي ونَصْراني»[3]. وسمعه مرة ينشد في مدح الإمام الشَّافعي:

من أراد الهُدى بقول ابن إدريـ ـس هَداه وأين كالشَّافعيّ
وشفاءُ العِيِّ السُّؤالُ وأنَّى بإمامٍ سواه كشَّاف عِيّ[4]

ولعل مديح جدِّه هذا للإمام الشَّافعي أثار فضوله، فسأله ذات يوم: يا سيِّدي، لِمَ وقع بعض المحدِّثين في أبي حنيفة، رحمة الله عليه؟ فأجابه جدُّه: لأنَّه أخذ بالقياس. فبادره السبط بقوله: غيرُه من الأئمة قد أخذ بالقياس! فردَّ عليه الجدُّ: ولكن هو أكثر قياسًا منهم. فلم يقنع السِّبْط بالجواب، وردَّ قائلًا: هلَّا وقعوا في أولئك بقدر ما أخذوا من القياس؟ فسكت الشيخ أبو الفرج وكأنه انقطع عن الجواب[5]. ولا شكَّ أنَّه كان مسرورًا بما ظهر من بديهة سبطه في الحوار على حداثة سنِّه.

* * *

ومع حضور سبط ابن الجوزي مجالس جدِّه، وما كان يسمعه من شيوخه من الحديث والحكايات، كانت ثقته بنفسه تترسَّخ، حتى إذا آنس فيها القدرة على أن يجلس كجدِّه لوعظ النَّاس، وربما بتشجيعٍ منه، عقد أوَّلَ مجلسٍ له سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م، وهو في نحو الخامسة عشرةَ، عند قبر الإمام أحمد ابن حنبل. ويبدو أنَّ مجالسه التي تتالتْ بعدُ وجدتْ قَبُولًا من

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٧).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٠٢).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٩٤).
(٤) مرآة الزمان (١٣/ ٤١٧).
(٥) ينظر: «الانتصار والترجيح» (٩).

أهل بغداد، فوصفها على أسلوبه في السَّجْع بقوله: «فكان يجتمعُ فيها خلقٌ عظيم، ويهبُّ على تلك المجالس من القَبُول نسيم، وتَعْرِفُ فيها نَضْرةَ النَّعيم، ويصحَبُها كلُّ باردٍ من الطِّيب وكل تكريم، وسلامٌ قولًا من ربٍّ رحيم»(١).

وفي تلك السنة سمع من جدِّه كتابه «الثبات عند الممات»(٢)، و«جزء ابن الغِطْريف»، وكان جدُّه قد انفرد بروايته، وهو جزءٌ مشهور بين المحدِّثين(٣). وربما في نحو تلك الأيام سمع منه «مشيخته»(٤).

وفي مجلس من مجالس وعظه سمعه يُنشد بيتين، تركا في قلبه أثرًا لا يُمْحى، وكان جدُّه قد ذكرهما من قبلُ في كتابه «التبصرة»، وهما:

أهوى عليًّا وإيمانٌ مَحَبَّتُهُ ... كم مشركٍ دمُهُ من سيفهِ وَكَفَا
إنْ كنتَ وَيْحَكَ لم تسمعْ فضائِلَهُ ... فاسمَعْ مناقبَهُ مِنْ «هل أتى» وكفى(٥)

وفي تلك السنة كذلك ابتدأ سِبْط ابن الجوزي بسماع «مسند الإمام أحمد ابن حنبل» على شيخه عبد الله(٦) بن أحمد بن أبي المجد، بروايته له عن أبي القاسم بن الحُصين(٧)، وبقراءة عزِّ الدين محمد بن الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي(٨)، وكان عزُّ الدِّين أحسن الناس قراءة وأسرعها(٩). وكان يحضُرُ معه مجالس السَّماع أخوه جمالُ الدِّين

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٨٠).
(٢) مرآة الزمان (٧/ ١٢٦).
(٣) تذكرة الخواص (٤٩).
وابن الغطريف: هو أبو أحمد محمد بن أحمد ابن الغطريف الجرجاني، المتوفى سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م، تنظر ترجمته في: «الوافي بالوفيات» (٢/ ٦١)، و«الرسالة المستطرفة» (٨٨).
(٤) مشيخة ابن الجوزي (٣٨ ـ ٣٩، ٤٩).
(٥) تذكرة الخواص (٣١٧)، وينظر: كتاب «التبصرة» لأبي الفرج ابن الجوزي (١/ ٤٤٥).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤١)، والجليس الصالح (٢٧).
وسمع منه كذلك غير «المسند». ينظر: «مرآة الزمان» (٢/ ٢٠٣).
(٧) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦١).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤١، ٢١٤).
(٩) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٤٣).

عبد الله[1]، ولعل صلة سبط ابن الجوزي بهذين الأخوين هي التي قادته فيما بعدُ إلى صالحية دمشق حيث كان يقيمُ المقادسة[2].

ومع سماعه «المسند» لم يُغفل سماع الشِّعْر، فكان يلتقي الشَّاعر المهذَّب أبا الدُّرِّ الرُّومي، السَّاكن في المدرسة النِّظامية، وكان من المتعاطفين مع محنة جدِّه[3]، فينشده من أشعاره[4]، ويحدِّثُه من أخباره[5]، وكان لأبي الدُّرِّ شهرةٌ في ذلك العصر[6].

وكان شيخه عبد الوهَّاب بن علي بن علي الصُّوفي، المعروف بابن سُكينة، صديقًا لجدِّه أبي الفرج، ملازمًا لمجالسه ويزوره، فسأله أبو الفرج ذات يوم بعد عودته من واسط أن يُلبس ابنه محيي الدِّين يوسف خِرْقة التصوف، فألبسه إياها[7]، وألبسها كذلك ـ ربما في اليوم نفسه ـ لسبطه شمس الدِّين يوسف[8].

ولم تطلِ الحياةُ بالشيخ أبي الفرج ابن الجوزي بعد الإفراج عنه، فكان آخر مجالسه للوعظ يوم السبت ٧ رمضان سنة ٥٩٧هـ/ ١١ حزيران ١٢٠١م، وقد أنشد فيه أبياتًا عذبة[9]، لعله نظمها أيام حبسه في واسط[10]، قال فيها:

اللَّهَ أسألُ أن يطوِّل مُدَّتي ... وأنال بالإنعام ما في نيَّتي
لي هِمَّةٌ في العِلْم ما من مِثْلها ... وهي التي جَنَتِ النُّحولَ هي التي
خُلِقَتْ من القَلَقِ العظيم إلى المُنى ... دُعِيَتْ إلى نَيْلِ الكمال فلبَّتِ

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١٧).
(٢) ينظر: (ص ٣٣) من هذا الكتاب.
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٦).
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٢٩٠).
(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٢٩٩).
(٦) توفي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، تنظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).
(٧) المذيل على الروضتين (١/ ٢١١ ـ ٢١٢).
(٨) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٤).
(١٠) المذيل على الروضتين (١/ ١٠٨).

كم كان لي مِنْ مجلسٍ لو شُبِّهَتْ حالاتُهُ لتشبَّهتْ بالجَنَّةِ

فما إن نزل عن المنبر حتى أقعده مرضُ الشيخوخة، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في داره بقَطُفْتا[1]؛ بالجانب الغربي من بغداد[2]، وله نحو سبعٍ وثمانين سنة[3].

ووقف سِبْطه في عَزَائه، يتكلَّمُ عن حياته ومناقبه، وعينه تفيضُ بالدَّمع على فِرَاقه[4]. ولحبِّه ووفائه له أفرد من بعدُ ترجمة ضافية له في كتابه «مرآة الزمان»[5].

* * *

ويبدو أنَّ سِبْط ابن الجوزي قد أصاب منزلة في بغداد على صِغَر سنِّه، فحين تُوفِّيتْ زُمُرُّد خاتون ـ والدة الخليفة النَّاصر لدين الله في جُمادى الأولى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، وكانت امرأة صالحة، كثيرةَ المعروف والصَّدَقات ـ كان هو أحدَ المتكلِّمين في عَزَائها. وقد اتفق يوم وفاتها نزول الثلج، وزيادة دِجْلة زيادة عظيمة، فتكدَّر نهرُ عيسى، وتربتُها قريبة منه، فأنشد أبياتًا، منها:

شابتْ ليوم وفاتها لِمَمُ الثَّرى حُزْنًا وجاد لها النَّدَى ببهائِهِ
فلنهرِ عيسى بعد أُنْسٍ وَحْشةٌ وبمائِهِ كَدَرٌ بُعيدَ صفائِهِ
قامتْ قيامتُه فأضحى زائدًا يَنْمِي وذلك مُؤْذِنٌ ببُكائِهِ

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٤)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٠٨).
(٢) معجم البلدان (٤/ ٣٧٤).
(٣) ذكر سبط ابن الجوزي أن ولادة جدِّه في سنة ٥١٠هـ على وجه الاستنباط لا على وجه التحقيق. وكان على ما يبدو حريصًا على ضبطها، فقد سأله غير ما مرة عن مولده، وفي كلها يقول له: ما أحققه، ولكن يكون تقريبًا في سنة عشر وخمس مئة. ثم إنه سأل أخا جدِّه عمر بن علي، فقال له: في سنة ثمان وخمس مئة. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٠/ ٩٥، ٢٢/ ٩٤، ٩٥).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٥).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٩٣ ـ ١١٨).

وخلع الخليفة بعد شهر من وفاتها على الأعيان، ومن لم يخلع عليه أعطاه مالًا، ولا شك أن سِبْط ابن الجوزي قد أصاب يومذاك من خِلَعِ الخليفة أو ماله[(١)].

بيد أن الحياة في بغداد لم تصفُ له بعد وفاة جدِّه الأثير لديه، والحاني عليه. ولعلَّ مما زاد من ضيقه ما كان يعصِفُ بأسرة الشيخ أبي الفرج من مناكفاتٍ وعداواتٍ بين خالَيْه: محيي الدِّين يوسُف؛ صاحبِ الخلق الحميد، والبارِّ بأبيه في حياته وبعد مماته[(٢)]، وخاله أبي القاسم عليٍّ؛ الشديدِ المناوأة لأبيه في حياته.

وما كان أبو الفرج، وهو الواعظ الكبير، ليترك ابنه عليًّا على جهالاته، فكان لا يني يردِّدُ على مسامعه نصائحه، مرشدًا له إلى نهج الصَّواب، وهل غير العلم والعمل به يُفضي إليه؟ ولذلك ألَّف له كتابه «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد»، راسمًا له طريق النجاة والرِّفعة في الدُّنيا والآخرة، ومؤمِّلًا ألَّا يخيِّب ظنه فيما رجاه منه، سائلًا الله له أن يوفِّقَه للعلم والعمل معًا[(٣)].

وأصمَّ عليٌّ سمعه عن نصائح أبيه وإرشاداته، واستمرَّ سادرًا في غيِّه، يوالي من يعاديه[(٤)]، ثم صرَّح بعداوته له زمن حبسه بواسط، فأظهر مصنَّفاته، وباعها بثمن بخس بيع العبيد، ولم يكتف بذلك، بل صادق أعداءه[(٥)] ولا سيَّما عبد السَّلام حفيد الشيخ عبد القادر، الذي كان سبب محنته[(٦)]. وقد جمع بينهما عدمُ الورع[(٧)]؛ فهجره أبوه ساخطًا عليه، ومات

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٧)، والمذيل على الروضتين (١/ ١١٠).

(٣) ينظر: «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» (٢٦ ـ ٢٧، ٧٨).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٢)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٥٣).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٧، ٣٢١)، والمذيل على الروضتين (١/ ١١٠).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٢)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٥٣).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٥٦).

وهو غير راضٍ عنه[١]. فلم يشهد عليٌّ وفاته[٢]، وحين ذهبوا بجِنازته إلى تحت تربة أمِّ الخليفة مكان جلوسه، صلى عليه عليٌّ اتِّفاقًا؛ لأنَّ الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه[٣].

وبُعيد وفاة أبيه تمادى عليٌّ في استهتاره، وسوَّلتْ له نفسُه إفساد ابن أخته يوسُف، فدعاه ذات يوم إلى زيارة صديقه عبد السَّلام، قائلًا له: لي صديقٌ يشتهي أن يراك، ولم يعرِّفْه من هو، ولندع سبط ابن الجوزي يحدِّثنا عما رآه في زيارته تلك، قال: «فمشيت معه، فأدخلني إلى دار شممتُ من دِهْليزها رائحة الخمر، ودخلنا، فإذا الرُّكن عبد السَّلام جالس، وعنده صبيانٌ مُرْدان، وهو في حالة قبيحة، فلم أقعد، فصاح خالي والرُّكن، فلم ألتفت، فتبعني خالي، وقال: خجَّلتني من الرَّجل. فقلتُ له: لا جزاك الله خيرًا. وأسمعتُه غليظ الكلام»[٤].

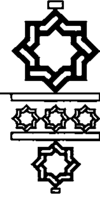
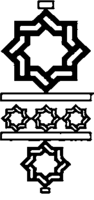
هذه الحادثة وأمثالها ربما عزَّزت لديه الرَّغبة في مغادرة بغداد، في رحلة لطلب العِلْم، وليمتحن قدرته في الوعظ فيما يمرُّ به من بلاد، بعد أن نجح في الوعظ في بغداد.

وما ندري هل كان والداه على قيد الحياة قبيل مغادرته بغداد؟ فسبط ابن الجوزي لم يعد يحدِّثنا عنهما أبدًا، إلا تلك الإشارة اليتيمة إلى والده، حين روى عنه حادثة تتعلق بصاحب المخزن ونائب الوزارة ظهير الدِّين أبي بكر ابن العطَّار[٥]، وإلى والدته حين حدثته عمَّا سمعتُه من جدِّه أبي الفرج قُبيل وفاته[٦].



---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢١)، وينظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٥٣).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٧). (٣) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٤).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٢)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٥٣).
(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٢٥٥، ٢٦٨ ـ ٢٦٩). (٦) مرآة الزمان (٢٢/ ١١٤).

رحلته في طلب العلم
من بغداد إلى دمشق

ـ ١ ـ

فما إن انقضت ثلاثُ سنواتٍ على وفاة جدِّه الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وقد بلغ التَّاسعة عشرة من عمره، حتى شرع في رحلته الأولى لطلب العلم، ولقاء الشُّيوخ.

فخرج من بغداد في أوَّل سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م[١]، تسبقه شهرةُ جدِّه، متَّجهًا شمالًا.

فمرَّ على أَوَانا؛ قرية بالدُّجيل، فزار رباط زاهدها الشيخ القُدْوة العارف محمد بن أبي المعالي بن قائد[٢]، وكان قد استُشْهد غِيْلة سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، فشاهد دمه بعد انقضاء تلك السِّنين، وهو ما يزال طريًّا، على جلد غزال كان يجلس عليه[٣].

ثم اجتاز بدَقُوقا[٤]، وهي مدينة صغيرة بين بغداد وإربل[٥]، فالتقى خطيبها، وكان يقال له الحُجَّة، فسمع منه الحديث، ثم عقد بها مجالس للوعظ. ولم يطل مقامه فيها، فتابع طريقه إلى إرْبِل، واجتمع فيها بشيخ كيِّس ظريف يقال له محيي الدِّين الشَّاتاني، وكان حافظًا للشعر، فأنشد له مُقَطَّعاتٍ مما يحفظ[٦]. وسمع من أعيانها عن مآثر حاكمها مظفر الدِّين

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٩٥).
(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٣٦٥، ٣٦٦).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٤).
(٥) معجم البلدان (٢/ ٤٥٩).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٤).

كُوكُبُري، وما ينفقه من أموال جزيلة على فكِّ الأسارى والخانكات ودار المضيف، وغيرها من أبواب البِرِّ، وعلى إقامة المولد النبوي الشَّريف في كلِّ عام، وكان له به احتفالٌ كبير[1]، وكذلك عقد فيها مجالس للوعظ.

ثم قدم المَوْصِل، وأدرك بها جماعة من مشايخ الإسلام، وحَمَلَةً من حديثِ المصطفى ﷺ، منهم شيخها المحدِّث أبو طاهر أحمد بن عبد الله بن أحمد الطُّوسي، فسمع منه الأحاديث النَّقُّورية[2]، وهي الأجزاء الحديثية التي تفرَّد بها مسنِدُ العراق أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد ابن النَّقُّور (المتوفى سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م)، وأسانيدها من أعلى الأسانيد[3].

ومنهم أخوه خطيبُ المَوْصِل أبو القاسم عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد الطوسي[4]، ومما قرأ عليه كتاب «اعتلال القلوب» لأبي بكر محمد بن جعفر الخَرائطي[5].

وسمع كذلك من الشيخ أبي القاسم بن مُسْلم الصَّفَّار الموصلي[6]. وحدَّثه أبو بكر القُدَيْمي، وإسماعيل الشَّعار حكاية جرت لشيخهما الزَّاهد أبي أحمد الحدَّاد مع صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زَنْكي (المتوفى سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)[7].

وعقد بها مجالس للوعظ، ويبدو أنَّ شهرته سَبَقَتْهُ إليها، فحصل له بها القَبُول التَّام، إذ كان الناس ينامون ليلة المجلس في الجامع من كثرة الزِّحام[8].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٥)، وتنظر: (ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨) من هذا الكتاب.

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

(٤) مرآة الزمان (٢/ ٨٩، ٣٤٤، ٢٠/ ٢٣٥)، والجليس الصالح (١٢٠)، وينظر: «الكامل» لابن الأثير (١٢/ ٤٤٨).

(٥) مرآة الزمان (٦/ ٣٤٣، ١٧/ ١٥٢).

(٦) مرآة الزمان (٢/ ٢٨٩).

(٧) مرآة الزمان (٢١/ ٢٧٥).

(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥).

ثم غادرها إلى حرَّان، فسمع من شيوخها: يحيى بن أبي الفتح بن الطَّبَّاخ الضَّرير[1]، وموفق الدِّين حَمْد بن أحمد الحرَّاني، المعروف بابن صُدَيق[2]، وأبي محمد عبد القادر بن عبد الله الرُّهاوي[3]، وخطيبها البارع وواعظها فخر الدِّين محمد بن أبي القاسم الخضر ابن تيميَّة[4]، وحضر خُطَبه في جامعها، وسمعه مرة يُنشد يوم الجمعة بعد الصَّلاة على المنبر:

أحبابَنَا قد نذرتْ مُقْلتي ... ما تلتقي بالنَّوْم أو نلتقي
رِفْقًا بقلبٍ مُغْرَمٍ واعطُفوا ... على سَقَام الجَسَدِ المُعْرَقِ
كم تَمْطُلوني بليالي اللِّقا ... قد ذَهَبَ العُمْرُ ولم نلتقِ[5]

وكعادته في كلِّ بلد ينزل فيه، عقد سبط ابن الجوزي بها مجالس للوعظ[6]. ويبدو أنَّه لم يجد ترحيبًا من فخر الدِّين ابن تيمية، فكتب عنه في «مرآته»: «كان ضنينًا بحرَّان، متى نبغ فيها أحدٌ لا يزال وراءه حتى يُخرجه منها، ويُبعده عنها»[7].

ومن ثَم شَدَّ الرِّحال إلى حلب[8]، ضيفًا على أتابكها شهاب الدِّين طُغْريل؛ عتيقِ صاحبها الملك الظَّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدِّين. وكان شهابُ الدِّين صالحًا عفيفًا، زاهدًا عابدًا. فأنزله في الخانقاه التي

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥، ١٨٥)، والجليس الصالح (٢٩٢، ٢٩٩).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٢٦)، وتنظر ترجمته في: «تاريخ الإسلام» (١٤/ ١٣٤)، و«توضيح المشتبه» (٥/ ٤٢٠).
(٣) الجليس الصالح (٢٩٨).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥)، والجليس الصالح (١٦٩، ٢٢٤)، وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٧٨)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٨٣).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥).
(٧) المذيل على الروضتين (١/ ٣٨٣)، ووفيات الأعيان (٤/ ٣٨٧)، وهذا النص مما نقله أبو شامة وابن خلكان من كتابه «مرآة الزمان»، وأسقطه اليونيني في اختصاره.
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥).

بناها بظاهر حلب على باب الأربعين عند القناة، واحتفاءً به كان يبيتُ دائمًا عنده[١].

ومُدَّة إقامته بحلب انتسجتْ صداقةٌ بينه وبين أميرٍ من كبار أمرائها، وهو سيفُ الدِّين علي بن سليمان بن جَنْدَر، وكان كثيرَ الخير والصَّدقات الدَّارَّة، والبِرِّ الوافر، مع ميلٍ إلى أهل العلم، وله الغزواتُ المشهورة، فصار الأميرُ يقوم على خدمته فيها[٢].

وقد سمع سبط ابن الجوزي من مشايخها، منهم كبيرُ الحنفية[٣] افتخار الدِّين عبد المُطَّلب بن الفَضْل الهاشمي البَلْخي، وله شرحٌ على «الجامع الكبير» للإمام محمد بن الحسن الشَّيباني[٤]، وكان يدرِّس بالمدرسة النُّورية الحلاوية[٥]، فسمع منه «شمائل النبي ﷺ»[٦]، وسمع «أسباب النزول» من شيخها عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عُلْوان ابن الأُستاذ[٧].

- ٢ -

ثم يمَّم وجهه شطر دمشق، فنزل بصالحيَّتها في سفح جبل قاسيون عند المقادسة[٨]، وكان له بهم معرفة وأُنس، فقد تعرَّف إلى بعضهم في رباط الشيخ محمود بن عثمان النَّعَّال في بغداد[٩]. وله صُحْبة مع عزِّ الدِّين محمد، وجمال الدِّين عبد الله ابني الحافظ عبد الغني المقدسي، أيام

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢٧).
(٢) مرآة الزمان (٢١/ ٣٩٢، ٢٢/ ٢٧٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٩٩).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٢).
(٥) مرآة الزمان (٤/ ٣٦٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٠٠).
(٦) تنظر: (ص ٤٨) من هذا الكتاب.
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥)، والجليس الصالح (٢٨٨)، وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥)، ويذكر في موطن آخر من كتابه أنه قدم الشام سنة ٦٠٣هـ، وهو وهم منه. ينظر: «مرآة الزمان» (٢١/ ٣٩١).
(٩) ينظر: (ص ٢١ - ٢٢) من هذا الكتاب.

سماعِهِ «مسند الإمام أحمد ابن حنبل»[1].

وقد راقته صحبة شيخ المقادسة وكبيرِهم أبي عمر محمد بن أحمد ابن قُدامة، وأخيه الموفَّق عبد الله، ونسيبهما العماد إبراهيم[2].

وكان أبو عمر وقتذاك في الثَّانية والسَّبعين من عمره، صبيحَ الوجه، كثَّ اللحية، نحيفًا، أبيض، أزرق العينين[3]. وكان قد حضر فيما مضى غزوات صلاح الدِّين يوسُف بن أيوب ضد الصَّليبيين، هو وأخوه الموفق، وشهدا معركة حِطِّين، وفتح بيت المقدس[4]، ثم آثر أبو عمر الاشتغال بالعبادة عن الرِّواية[5].

في تلك الأيام كان منهمكًا في إتمام بناءِ جامع الحنابلة بجبل قاسيون الذي شرع فيه قبل سنتين. وقد أعانه عليه من ماله أبو داود محاسن، وهو رجل فاميٌّ من قاسيون[6]؛ يبيعُ الفواكه المجفَّفة[7]، فوضع أساسه، وأنفق عليه ما كان يملكه حتى بلغ قامة. ثم بلغ مُظفَّر الدِّين بن زين الدِّين ـ صاحب إِرْبل ـ تعذُّر إكماله، فبعث إلى أبي عمر مالًا فتمَّمه، ووقف عليه وقفًا[8].

وأُعجب سِبْط ابن الجوزي بحال أبي عمر ومقاله أيَّما إعجاب، فوصفه لنا فيما بعد أبدع وصف، متتبعًا حركاته وسكناته على مدار أيامه، فقال:

«كان معتدلَ القامة، حَسَنَ الوجه، عليه أنوارُ العبادة، لا يزال مُبْتسمًا، نحيلَ الجسم من كثرة الصِّيام والقيام. وكان يصومُ الدَّهر إلا من

---

(١) ينظر: (ص ٢٥ ـ ٢٦) من هذا الكتاب. (٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٩).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٧)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢١٥)، وأورد أبو شامة كتاب أخيه الموفق عبد الله في وصف ما شاهده في معركة حطين في «كتاب الروضتين» (٣/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).
(٥) المذيل على الروضتين (١/ ٢١٤). (٦) مرآة الزمان (٢٢/ ١٢٥).
(٧) اللباب (٢/ ٤١٠).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٢٥)، والمذيل على الروضتين (١/ ١١٧).

عُذْر، ويقوم الليل من صِغَره، وما كان يُفطر إلا في يوم عيد، ويحافظ على الصَّلوات الخمس في الجماعات، ويخرج من ثُلُث الليل الأخير إلى المسجد في الظُّلْمة، فيصلي إلى الفجر، ويقرأ في كل يوم سُبُعًا من القرآن بين الظهر والعصر، ويقرأ بعد العشاء الآخرة آيات الحرس ويس والواقعة وتبارك و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوِّذتين. وإذا ارتفعت الشمس لقَّن النَّاس القرآن إلى وقت الضُّحى، ثم يقوم فيصلي الضُّحى ثماني ركعات، ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألف مرة.

ويزور المقابر بعد العصر في كلِّ جُمُعة، ويصعَدُ يوم الإثنين والخميس إلى مغارة الدَّم ماشيًا بالقَبْقاب، فيصلِّي فيها ما بين الظُّهْر والعصر. وإذا نزل جَمَع الشِّيح من الجبل، وربطه بحبل، وحمله إلى بيوت الأرامل واليتامى. ويحمل في الليل إليهم الدَّراهم والدَّقيق ولا يعرفونه. ولا ينام إلا على طهارة، ومتى فُتِحَ له بشيء من الدُّنيا آثر به أقاربه وغيرهم. ويتصدَّق بثيابه، وربما خرج الشِّتاء وعلى جسده جُبَّة بغير ثوب. ويبقى مُدَّة طويلة بغير سراويل، وعِمامتُه قِطْعة من بطانة، فإن احتاج أحدٌ إلى خِرْقة أو مات صغيرٌ يحتاج إلى كَفَن، قطع له منها قطعة.

وكان ينامُ على الحصير، ويأكل خُبْزَ الشَّعير، وثوبه خام إلى أنصاف ساقيه. وما نَهَرَ أحدًا، ولا أوْجَعَ قلبَ أحد، وكان يقول: أنا زاهدٌ، ولكن في الحرام»[١].

وما كان يردُّ أحدًا في شفاعة إلى من كان، ولجلالة منزلته لم تكن تُردُّ شفاعتُه. وقد حضره مرَّة سبط ابن الجوزي في بدايات تعرُّفه إليه، وهو يكتبُ ورقة إلى الملك المُعَظَّم عيسى بن العادل، فكتب فيها: إلى الولد الملك المعظم. فقال له: كيف تكتبُ هذا والملك المعظم على الحقيقة هو الله تعالى! فتبسَّم أبو عمر، ورمى له الورقة، وقال له: تأمَّلْها؛ وإذا به

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٦ ـ ١٧٧)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥).

لما كَتَبَ المعظم كسر الظاء، فصار المعظِّم، وقال: «لا بد أن يكون يومًا عظَّم الله تعالى». فعقَّب سبط ابن الجوزي على ما رأى بقوله: «فتعجَّبْتُ من ورعه، وتحفُّظه في منطقه عن مثلِ هذا»[(١)].

* * *

وأما أخوه الموفَّق عبدُ الله بن أحمد ابن قُدامة، فكان في التَّاسعة والخمسين؛ أبيضَ، مُشْرِقَ الوجه، كأنَّ النُّور يخرج من وجهه لحُسْنه، واسعَ الجبين، طويلَ اللحية، نحيفَ الجسم[(٢)]، وهو صاحبُ «المغني»، ذلك الكتابُ الجليل في فقه الحنابلة، الذي شرح فيه مختصر أبي القاسم الخِرَقي، وشَحَنه بالأدلة من الكتاب والسُّنَّة.

وكان الموفق قد سمع في رحلته إلى بغداد مع الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي من جدِّ السِّبْط أبي الفرج ابن الجوزي[(٣)]. وكان مُعْجبًا بوعظه، ويقرُّ بإمامته فيه، إلا أنه لم يرتضِ تصانيفه في السُّنَّة، ولا طريقته فيها، وكان يقول: «كانت تنفلتُ منه في بعض الأوقات كلماتٌ تُنكر عليه في السُّنَّة، فيُسْتفتى فيها، ويضيقُ صدرُه من أجلها»[(٤)].

ولا شكَّ أنَّ هذه الصِّلة القديمة مع أبي الفرج قوَّت ما بين سِبْطه والموفق، وزادها متانة ما وجده السِّبْط عند الموفق من علومٍ وفنون وورع، حتى قال فيه: «كان إمامًا في التَّفْسير والفِقْه والحديث والفنون، ولم يكن في زمانه مثله ـ بعد أخيه أبي عمر والعماد ـ أزهدَ منه ولا أورعَ منه. وكان كثيرَ الحياء، عَزُوفًا عن الدُّنيا وأهلها، هيِّنًا ليِّنًا متواضعًا، محبًّا للمساكين. حَسَنَ الأخلاق، جَوَادًا سخيًّا. من رآه كأنَّما رأى بعضَ الصحابة، كأنَّ النُّور يخرجُ من وجهه. كثير العبادة، يقرأُ كلَّ يومٍ وليلة سُبُعًا من القرآن، ولا يصلِّي ركعتي السُّنَّة في الغالب إلا في بيته اتِّباعًا للسُّنَّة»[(٥)].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٧، ٣٨٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٨١).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٦)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

وقد لازمه سبط ابن الجوزي، وقرأ عليه الفقه[1]، و«كتاب التَّوابين»، و«الاعتقاد»، وغيرهما من مصنَّفاته[2].

وثالثهم جوهرة العصر[3]، العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور؛ أخو الحافظ عبد الغني المقدسي. وكان في السَّابعة والخمسين. وكما يصفه لنا سبط ابن الجوزي: «كان معتدلَ القامة، شعره إلى أُذُنيه، مليحَ الوجه، بسَّامًا، عابدًا، مجتهدًا، لا يدَّخر من الدُّنيا شيئًا، حَسَنَ الصَّلاة، كثيرَ السُّجود والدُّعاء، يُقرئ القرآن والفِقْه دائمًا في الحَلْقة بجامع دمشق، ويجتمعُ إليه الطَّلَبة كلَّ ليلة بعد العِشاء الآخرة، فيحملهم إلى بيته، ويُحضر لهم من الطعام ما تيسَّر.

وما تعرَّف إلى أحدٍ من أبناء الدُّنيا قطُّ لا إلى سُلْطان ولا غيره.

ولا تحرَّك حركة، ولا مشى خطوة، ولا تكلَّم كلمة إلا لله تعالى.

وكان يتعبَّد بالإخلاص. ولقد رأيتُه مِرارًا في الحَلْقة بجامع دمشق، والخطيبُ يوم الجُمُعة على المنبر، فيقوم عمادُ الدِّين، ويأخذ الإبريق، ويضعُ بُلْبُلته في فِيْه على رؤوس الأشهاد، يُوهم النَّاس أنه يشرب، وهو صائم»[4].

* * *

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٦).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٦، ٢٦٨).

وذكر سبط ابن الجوزي في «المرآة» (١/ ٢٦١، ٢/ ٧١)، وكذلك في «تذكرة الخواص» (١٦٠) أنه قرأ على شيخه الموفق بقاسيون في شهر ربيع الأول سنة ٦٠٤هـ، وقد وهم في ذلك، إذ إنه كان في تلك السنة قد رجع إلى بغداد، ومنها حج إلى مكة المكرمة، كما ذكر هو في مواضع أخرى من كتابه. ينظر: (ص ٥٢ ـ ٥٤) من هذا الكتاب.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٥٠).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

وفي دمشق يلتقي سبط ابنُ الجوزي الشَّيخ الزَّاهد عبدَ الله بنَ عثمان بن جعفر[1] اليُونيني، أسد الشَّام[2]. كان شيخًا طويلًا مهيبًا، أمَّارًا بالمعروف، لا يهابُ الملوك، حاضر القلب، دائم الذِّكْر، بعيد الصِّيت[3]. وكانت إقامته ببَعْلبك، وله فيها زاوية[4]. وفي الشِّتاء يأتي إلى عيون الفاسريا؛ ظاهرَ دمشق بسفح الجبل المطلِّ على دُومة، لسخونة الماء بها. وله مسجدٌ صغير على رأس العين، يأوي إليه، وكان الدَّماشقة يخرجون إلى زيارته[5].

ولسبط ابن الجوزي تعلُّقٌ بأرباب القُلوب والأولياء، حتى المولَّهين منهم[6]، ويعرف أن طريقتهم غيرُ طريقة الفقهاء والعلماء، وليس على مثل أحوالهم جُناح، إذ طالما نُجِّيَ من بحار الهلاك الغَرْقى، وأُغرِقَ السَّبَّاح، على حدِّ تعبيره[7]. ولذلك لمَّا سمع سبط ابن الجوزي عن كراماته[8]، صَحِبَه[9]، ثم صار يزوره في زاويته ببعلبك[10].

وترك لنا وصفًا حيًّا له بقوله: «كان صاحبَ رياضاتٍ ومجاهدات، وكرامات وإشارات، لم يقُمْ لأحدٍ من النَّاس تعظيمًا لله تعالى، ويقول: لا ينبغي القيامُ لغير الله. وما كان يدَّخر شيئًا، ولا يمسُّ دينارًا ولا دِرْهمًا، وكان زاهدًا وَرِعًا عفيفًا، وما لبس طول عمره سوى الثَّوب الخام، وقَلَنْسوة من جلد الغنم تساوي نصف درهم»[11].

والشيخ عبدُ الله ـ على زُهْده وورعه ـ لم يكن حبيسَ زاويته، بل كان

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٠١).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٨، ٢٤٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٠١ ـ ١٠٢).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٩، ٢٥١).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٥١)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٣٨).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٧٧).
(٧) مرآة الزمان (١٦/ ٣٤١)، وينظر: (٢٠/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، ٢١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).
(٨) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٣٨ ـ ٣٤٠).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٨).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٩).
(١١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧).

يصدَعُ بالحقِّ[1]، ويشهد الغزوات لقتال الصَّليبيين، ويُثخن فيهم[2]، وأُوتيَ شجاعةً في قتالهم على قوَّةٍ فيه، فكان «لا يبالي بالرِّجال قلُّوا أو كَثُروا، وكان قوسُه ثمانين رطلًا، وما فاتَتْه غزاةٌ بالشَّام، وكان يتمنَّى الشَّهادة، ويُلقي نفسه في المهالك»[3]، ولشجاعته لقِّب بأسد الشَّام[4].

وفي زورةٍ من زياراته للشيخ عبد الله في زاويته ببَعْلبك تعرَّف سبط ابنُ الجوزي إلى أميرها الشَّاعر الملك الأمجد بَهْرام بن فَرُّخْشاه بن أيوب، فأنشده قصائدَ من شعره، وانعقدتْ بينهما صداقة ومحبةٌ على مدى الأيام، حتى إن سبط ابن الجوزي كان إذا صَعِدَ جبل لبنان للزِّيارة يجتازُ ببعلبك، فيخفُّ إليه الملك الأمجد، ويخدمه، ويُحسن إليه[5].

* * *

ويختلفُ سبط ابنُ الجوزي في دمشق إلى حَلْقة شيخها العلَّامة المُفْتي، شيخِ الحنفية، وشيخ العربية، وشيخ القراءات، ومُسْند الشَّام[6]، تاج الدِّين أبي اليُمْن زيد بن الحسن الكِنْدي، وكان إذ ذاك شيخًا جليلًا في الثَّمانين من عمره، وإليه انتهى علمُ القراءات والرِّوايات، وعلمُ النَّحْو واللغة في عصره[7]. حتى وصف بأوحد العصر، وفريد الدَّهر روايةً ودراية بأنواع علم الأدب، وجَمْعِ أصول الكُتُب[8]. ويلتقي مع جدِّه أبي الفرج في بعض شيوخه[9].

وكان الكنديُّ يعقدُ مجلسه للقراءة عليه في داره[10] بجيرون درب العَجَم، وكم ازدحم في ذلك الدَّرْب من شيوخ العلم وطلَّابه، وأولادِ

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٩).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٥٢).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٥١)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٣٨).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٨)، المذيل على الروضتين (١/ ٣٣٦).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١٠).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٤).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).
(٨) المذيل على الروضتين (١/ ٢٦٩).
(٩) مرآة الزمان (٢٠/ ٣٢٨، ٢٢/ ٢٠٩).
(١٠) المذيل على الروضتين (١/ ٢٧١).

الملوك وخدمته[١]، فقرأ عليه سبط ابن الجوزي من جُمْلة ما قرأ كتاب «الصِّحاح» للجوهري، و«ديوان المتنبي»، و«ديوان الحماسة» لأبي تمام[٢]، و«الإيضاح» لأبي علي الفارسي، و«المعرَّب» لابن الجواليقي[٣]، و«الاعتبار وأعقاب السُّرور والأحزان» لابن أبي الدُّنيا[٤]، وكان ـ وهو الواعظ ـ يستحسن هذا الكتاب[٥].

وقد وصف سبط ابنُ الجوزي شيخه الكندي بقوله: «كان طيِّبَ الخُلُق، ظريفًا، لا يسأم الإنسانُ من مجالسته، وله النَّوادر العجيبة»[٦].

وفي دار تاج الدِّين يتعرَّف سبط ابن الجوزي إلى رئيس دمشق عز الدِّين مُظفَّر بن المجد ابن القلانسي؛ حفيدِ مؤرِّخها أبي يعلى حمزة بن أسد ابن القلانسي، صاحبِ كتاب «ذيل تاريخ دمشق»، وكان كيِّسًا متواضعًا[٧].

وتعرَّف فيها كذلك إلى شِبْل الدَّولة كافور بن عبد الله؛ خادم ستِّ الشَّام؛ أخت السُّلطان صلاح الدِّين[٨].

وممَّن كان يختلفُ إلى تاج الدِّين الكِنْدي للقراءة عليه الملك المُحْسن أحمد بن السُّلطان صلاح الدِّين بن أيوب، فحَمَلَ ابنَ عمِّه الملك المعظَّم عيسى بن العادل على ملازمته[٩]، فكان المعظم يمشي من القلعة راجلًا إلى

---

(١) المذيل على الروضتين (١/ ٢٧٠).

(٢) ثم تصدى سبط ابن الجوزي من بعد لشرحها بكتاب «مقتضى السياسة في شرح نكت الحماسة». ينظر: (ص ٢٨٨) من هذا الكتاب.

(٣) المذيل على الروضتين (١/ ٢٧٣).
وذكر سبط ابن الجوزي في فاتحة كتابه «مرآة الزمان» (١/ ٩) أنه قرأ «المعرب» على شيخه الكندي بدمشق في شهور سنة ٦٠٤هـ، وقد وهم في ذلك، إذ كان في تلك السنة في بغداد، ومنها حج إلى مكة المكرمة، كما ذكر هو في مواضع أخرى من كتابه. ينظر: (ص ٥٢، ٥٤) من هذا الكتاب.

(٤) مرآة الزمان (١/ ٤٦٦).

(٥) مرآة الزمان (٩/ ٣٩٧).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٩).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٩، ٢١/ ١٣).

(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤١، ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

(٩) المذيل على الروضتين (١/ ٢٧١).

دار تاج الدِّين، والكتاب تحت إبْطه، وأكثر ما يقرأ عليه «كتاب سيبويه» نصًّا وشَرْحًا، و«الإيضاح»[1]. ولم يُقدَّر لسبط ابن الجوزي في تلك الأيام أن يضمَّه مجلسٌ مع المعظم في دار تاج الدِّين[2].

وكذلك لم يُقدَّر له الاجتماع بالحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي؛ والد صديقه عز الدِّين محمد[3] في دمشق، فقد كان مقيمًا وقتئذٍ في مِصْر، وتوفي فيها يوم الإثنين **٢٣** ربيع الأول سنة **٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م**، ودفن بالقرافة عند الشيخ أبي عمرو بن مرزوق. وقد سمع بعض أخباره من شيخه تاج الدِّين الكندي، وذكر له أنَّه أعلمُ من الدَّارَقُطْني والحافظ أبي موسى[4].

وممَّا يذكره سبط ابن الجوزي عنه أن الحافظ عبد الغني حضر عند جدِّه أبي الفرج في بغداد، فتذاكرا، فذكر أبو الفرج رجلًا اسمه ويزرة، فقال الحافظ مصحِّحًا: وَرِيْزة[5]. ويعني به وَرِيْزة بن محمد الغَسَّاني[6]، فيسلِّم له أبو الفرج بالصَّواب، قائلًا: «أنتم أعلمُ بأهل بلادكم»[7].

* * *

ويسعى سبط ابن الجوزي للسَّماع من قاضي دمشق الزَّاهد العابد[8]، مُسْند الشَّام[9]، الشيخ جمال الدِّين أبي القاسم عبد الصَّمد بن محمد الحَرَسْتاني، وهو من لِدَات العلامة أبي اليُمْن الكندي، ومسكنه بالحُويرة

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٠).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٣).
(٣) ينظر: (ص ٢٥، ٣٣) من هذا الكتاب.
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤١).
والحافظ أبو موسى هو شيخ الإسلام محمد بن أبي بكر عمر بن أحمد الأصبهاني، المتوفى سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، وهو شيخ الحافظ عبد الغني، سمع منه بأصبهان. ينظر: «طبقات علماء الحديث» (٤/ ١١٢ ـ ١١٤، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤١).
(٦) توضيح المشتبه (٩/ ١٨٤).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤١).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٤).
(٩) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٨٠).

قِبْلي جامع دمشق[١]. وكان مواظبًا على الصَّلوات في الجماعات على كِبَرِ سِنِّه[٢]، ينزل من بيته في سُلَّم طويل، فيصلِّي[٣] في الصفِّ الأول بمقصورة الخضر بجامع دمشق، قُبالة محرابها دائمًا، وهنالك كان يُقرأ عليه الكُتُب المسموعة، ويجتمعُ إليه خلقٌ عظيم، مع حُسْن سَمْته، وسكونه وهيبته[٤]. وفي تلك المقصورة سمع منه سبط ابن الجوزي أجزاءً حديثية[٥] من روايته عن شيخه جمال الإسلام علي بن المُسَلَّم الدِّمَشْقي، المعروف بابن الشَّهْرُزُوري[٦].

وحصَّل الأسانيد العالية من مسنديها: الشيخ المعمَّر أبي البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب[٧]، والشيخ أبي القاسم شمس الدِّين الحسين بن هبة الله بن محفوظ ابن صَصْرى[٨]، وكان له رواياتٌ كثيرة[٩]. وسمع كذلك من شهاب الدِّين محمد بن خلف بن راجح المقدسي[١٠]، ومن ستِّ الكتبة نعمة بنت علي بن يحيى ابن الطَّرَّاح، وكانت صالحة زاهدة عابدة[١١]، ومن خلقٍ كثير سواهم لم يسمِّهم لنا[١٢].

وأجاز له زين الأمناء أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر؛ أخو شيخ الشَّافعية فخر الدِّين ابن عساكر[١٣].

* * *

---

(١) المذيل على الروضتين (١/ ٢٩١).
(٢) المذيل على الروضتين (١/ ٢٩٢).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٤).
(٤) المذيل على الروضتين (١/ ٢٩٢).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٦).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٥)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (١/ ١٧٣).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٦)، وينظر: «المذيل على الروضتين (١/ ٣٢٠، ٣٢٦).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٦، ٣٠٢ ـ ٣٠٣).
(٩) المذيل على الروضتين (٢/ ٩)، وتنظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٠).
(١١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٦٤).
(١٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٦).
(١٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٦)، وينظر: (ص٢٦٨ ـ ٢٦٩).

ومع صُحْبة سبط ابن الجوزي لزُهَّاد دمشق وعلمائها، لم يتوانَ عن صحبة أهل الدُّنيا، فنراه يزور صفيَّ الدِّين عبد الله بن علي ابن شُكْر؛ وزير الملك العادل أبي بكر بن أيوب، في قاعته بدرب الشَّعَّارين[١]، وكان مهيبًا عالمًا فاضلًا، له معرفة بقوانين الوزارة[٢].

ويلتقي هناك شهاب الدِّين بن البانياسي، وكان على ديوان جامع دمشق. ويستغلُّ سبط ابن الجوزي انشغال الوزير بالحديث مع زوَّاره، فيتذاكر مع شهاب الدِّين أخبار السُّلطان نور الدِّين محمود بن زَنْكي[٣]. وكان مغرًى بسيرته، شغوفًا بجمع محاسنها؛ لأنَّها ـ كما يقول ـ «تحثُّ الطَّالب على نيل المطالب، وتعدِلُ بهمَّة الرَّاغب على تحصيل الرَّغائب»[٤].

ولربما في تلك القاعة يتعرَّف سبط ابن الجوزي إلى أحد عدول دمشق وأعيانها، وهو نجمُ الدِّين الحسن بن سالم بن سلَّام، فتنتسج بينهما صحبةٌ وصداقة[٥]. وكان نجم الدِّين ـ كما وصفه ـ «ذا مروءة، جَوَادًا، سَمْحًا، كريمَ الأخلاق، حَسَنَ العِشْرة، يحبُّ الصَّالحين، ويزورهم ويبرُّهم، وله في رمضان ضيافة لا يمنع منها أحدًا»[٦]. وكان أبوه قد عاصر السُّلطان نور الدِّين، فراح سبط ابن الجوزي من بعدُ يستزيده من أخباره مما سمعه من والده[٧].

وممن تعرَّف إليهم كذلك شِحْنة دمشق إبراهيم بن موسى المبارز المعتمد، وكان لطيفًا بالرَّعية، حَسَنَ السِّياسة، وله مواقفُ مشكورةٌ في حفظ دمشق من المُوبقات والجرائم، وتنعقد بينهما صداقة تزداد مع الأيام رسوخًا[٨].

---

(١) مرآة الزمان (٢١/ ٢١٥).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١٩).
(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٢١٥).
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٢٠٣).
(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٢١٤).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٩، ٣٨٣)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٧٥ ـ ٧٦).
(٧) مرآة الزمان (٢١/ ٢١٤ ـ ٢١٥).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢).

ويجتمع سبط ابن الجوزي بتاج الدِّين عبد الله بن شيخ الشيوخ عمر ابن حمُّوية، وكان عائدًا إلى دمشق من مُرَّاكش في المغرب بعد إقامته فيها نحو سبع سنين، في كَنَفِ سُلْطان الموحِّدين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن. وكان تاج الدِّين مفنَّنًا في العلوم؛ الهندسة والطب، عارفًا بالتَّواريخ، وله أشعارٌ جيدة. ومما أنشده لسبط ابن الجوزي، قوله:

لم ألقَ مُسْتكبرًا إلا تحوَّل لي   عند اللِّقاء له الكِبْرُ الذي فيهِ
ولا حلا لي من الدُّنيا ولذَّتِها   إلا مقابلتي للتِّيْه بالتِّيْهِ

وسيثمر اجتماعهما مودَّة وصحبة تستمرُّ العمر كلَّه[١].

ـ ٣ ـ

وكعادته في كلِّ بلدٍ ينزل فيه، يعقِدُ سبط ابن الجوزي بدمشق مجالسَ للوعظ في جامعها، وجامع الحنابلة بالصَّالحية[٢]، واختار لها يوم السبت من كل أسبوع[٣]، وهو اليوم الذي كان جدُّه يعقد فيه مجالس وعظه[٤]. وقد جَمَعَ الله له حُسْنَ الصُّورة، وطِيبَ الصَّوت، وظَرَافة الشَّمائل في الإيراد والجوابات، واللِّباس وسائر الحركات؛ فكان يزدحم في مجلسه ما لا يُحصى من الخلق رجالًا ونساء ـ والنِّساء بمعزلٍ عن الرِّجال ـ في الجامِعَيْن. وكان لا يفارق أحدٌ مجلسه إذا انفضَّ إلا وشوقه مستمرٌّ إلى عودته في الأسبوع الآخر[٥]، فغدت مجالسُه مثل غَدَوات الجنَّة، على حدِّ تعبيره[٦].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٧٢، ٣٨٣ ـ ٣٨٤).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٦)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٥٩).
(٣) المذيل على الروضتين (١/ ١٦١).
(٤) رحلة ابن جبير (٢٧١)، وينظر: (ص ٢٦) من هذا الكتاب.
(٥) المذيل على الروضتين (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٥٩).

وكان يحضُرُها من كبار شيوخ المقادسة: الشيخ أبو عمر[1]، وأخوه الموفق عبد الله[2]، والعماد إبراهيم[3]. وكان سبط ابن الجوزي يوردُ فيها من كلام جدِّه أبي الفرج وخُطَبه ما يتضمَّن إمرار آيات صفات الباري عَزَّ وجَلَّ، وما جاء في الأحاديث الصِّحاح من ذلك على ما ورد من غير مَيْلٍ إلى تأويل، ولا تشبيه ولا تعطيل، وهو ما يختاره علماءُ الحنابلة[4]. ولذلك كان الموفق عبد الله يفرح به، ويقول له: «قد أحيا الله بك السُّنَّة، وقمع البِدْعة»[5]. ويقول له العمادُ إبراهيم، وكان يحبُّ مجالسه، ولا ينقطع عنها إلا من عُذْر: «صلاح الدِّين يوسُف فتح السَّاحل وأظهر الإسلام، وأنت يوسُف أحييتَ السُّنَّة بالشَّام»[6]. ويحضر مجالسه كذلك شيخه أبو اليُمْن الكِنْدي، ويقول له متبسِّمًا: «أنا قد صرتُ من زبون المجلس»[7].

ومن أجوبته اللَّطيفة عن الأسئلة التي كان يُسألها في مجالس وعظه، قوله مرَّة وقد سُئل عن قوله ﷺ: «**أنا سَيِّدُ ولد آدم**»[8]. وقوله: «**لا تفضِّلُوني على يونس بن متَّى**»[9]. فأجاب: «لأنَّ يونس كان أضعفَ الأنبياء حالًا؛ لأنَّه ذهب مُغاضِبًا إلى قومه، فخاف من عَتْبه ولومه. ولما قال نبيُّنا: «**أنا سَيِّدُ ولد آدم**». قيل: بلغت أعلى المراتب، وإن كان العهدُ قد تقادم، فتواضع وإن كنتَ سيِّدَ العالم، واجبرْ قلبَ ذلك الضَّعيف المنكسر ـ الذي لولا لطفُ الله به لصيَّف في بطن الحوت وشتَّى ـ بقولك:

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٩)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢١٩).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٦). (٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢١).
(٤) المذيل على الروضتين (١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٦).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢١)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٨٨).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٩)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٧٣).
(٨) أخرجه مسلم برقم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة مرفوعًا.
(٩) أخرجه بنحوه البخاري في صحيحه برقم (٣٤١٣)، ومسلم (١٩٤) من حديث ابن عباس مرفوعًا.

«لا تُفَضِّلوني على يونس بن متَّى»[١].

* * *

وفي أثناء مُقامه بدمشق عنَّت له زيارة بيت المقدس[٢]، فدخل المسجد الأقصى، وقرأ على قُبَّة الصَّخْرة مقابل الدَّاخل من بابها القِبْلي: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، بنى هذه القبة عبدُ الله: عبدُ الملك أميرُ المؤمنين سنة اثنتين وسبعين»[٣]. ورأى في حائط سُور بيت المقدس الشَّرقي قبرًا، وعليه مكتوبٌ اسم الصَّحابي شدَّاد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه[٤]، وكان نزل بيت المقدس، وتوفي فيه[٥]. ثم زار سبط ابن الجوزي قبر الخليل عليه السلام. وعقد في بيت المقدس مجالس للوعظ، ذكر فيها فضائله.

ثم عاد منه إلى قاسيون[٦]، وقد اسْتَرْوَحَ إلى المُقام فيه[٧] في صُحْبة عُبَّاده وزُهَّاده، ومنهم: الشَّيخ الصَّالح يعقوب الخيَّاط؛ السَّاكن في مغارة الجوع، فكان سبط ابنُ الجوزي يزوره فيها، ويسمع منه العجائب عنها، ومما حكاه له أنه يرى فيها الرِّجال في الليل، وأن باب المغارة يُفتح ويخرج منه أشخاصٌ عجيبة، على حدِّ تعبيره[٨].

ويتملَّى من نعيم الصُّحْبة مع شيخ المقادسة أبي عمر وأخيه الموفق، والعماد إبراهيم، وقد شاهد من أحوالهم في الزُّهد في الدُّنيا، والورع والفضل والتواضع ما يُروى عن الصَّحابة والأولياء الأفراد، فأنساه حالُهم أهلَه ووطنه[٩].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٠٣)، وينظر: (٢٢/ ١٠٤).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥).

ولسبط ابن الجوزي زيارة إلى جبلة، ذكر أنه رأى فيها قبرًا يقال: إنه قبر الإمام الزَّاهد إبراهيم بن أدهم، وهو ظاهر يزار. ولم يحدثنا عن زيارته هذه إلا بتلك الإشارة العابرة. ينظر: «مرآة الزمان» (١٢/ ٣١٩).

(٣) مرآة الزمان (٩/ ٤٣).

(٤) مرآة الزمان (٧/ ٣٦٤).

(٥) مرآة الزمان (٧/ ٣٦٣).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥).

(٧) مرآة الزمان (١/ ٨٨).

(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٦).

وتطول إقامته بدمشق حتى أواخر سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م[١] حين يعزمُ أخيرًا على العَوْد إلى بغداد عن طريق حلب[٢]. فيعقد بجامع الحنابلة في الصَّالحية آخر مجالسه للوعظ، مودِّعًا فيه محبِّيه، وقد وصفَ لنا بقلمه مجلسَه ذاك بقوله: «وجلستُ بقاسيون، وودَّعْتُ النَّاس، فلم يتخلَّف بدمشق إلا اليسير، وامتلأ جامعُ الجبل بالنَّاس، فصاحوا علينا من الشَّبابيك التي بالإيوان: لا، لا؛ يعني: قُوموا، فاخْرُجوا. فخرجنا إلى المصلَّى. وكان شيخُنا تاجُ الدِّين الكِنْدي حاضرًا، فلمَّا خرج من الباب زَحَمُوه، فانكشفَ رأسُه، ووقعتْ عِمامتُه، فعزَّ عليَّ، وسألتُه، وأقسمتُ عليه أن يمضي إلى دمشق، فامتنع، وقال: لا والله حتى نتمِّم المجلس. وتاب في ذلك اليومُ زيادةٌ على خمس مئة شاب، وقطعوا شعورهم[٣]. وجرى كلام في المغناطيس، وأنه يعشقُ الحديد، ثم قلت: والخُبَّازى يعشق الشمس، ولهذا كلما مالت الشمس إلى جهة مال الخُبَّازى إليها. فصاح سيف الدِّين محمد بن تميرك؛ أمير الحاجِّ، وكان حاضرًا: يا مولاي شمس الدِّين، كلنا اليوم خُبَّازى»[٤].

* * *

وعقب انفضاض ذلك المجلس الحافل، يغادر سبط ابن الجوزي دمشق، ويصلُ إلى حلب أوائل شهر ذي الحِجَّة سنة ٦٠٣هـ/تموز

---

(١) مرآة الزمان (٣٣/ ١٣٥).   (٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥).

(٣) علل أبو الفرج ابن الجوزي قطع الشاب شعره عند التوبة بقوله: «هذه الشعرة أوتار عود، ومعنى قطعها أنه لا أعود». وقال مرة: «الشعر أوتار رباب، يغني عليها شيطان الشباب». ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/١٠٨).
وقد ذُكر أن الصُّلحاء كانوا يستحبون حلق الشعر عند التوبة، تشبهًا بحلق الحاج شعره في مِنى، وقد غفر له ذنبه. فالحلق دليل صدق النية، وأبين للخضوع والذلة. ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٥٦٤).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٥٣، ١٤٩ ـ ١٥٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٦١ ـ ١٦٢).

١٢٠٧م[١]، وينزلُ بظاهرها في خانقاه صديقه الأتابك شهاب الدِّين طُغْريل[٢].

وفي حلب يجتمعُ بالشَّاعر الغَزِلِ الرَّقيق تاج الدِّين مسعود بن أبي الفضل النَّقَّاش الحلبي، ويُنشده مُقطَّعات من شعره، ويكتبها له بخطِّه، وممَّا أنشده منها:

ما لي سوى حُبِّكم مَذْهَبُ ... ولا إلى غيرِكُمُ مذهَبُ
بدَّدْتُمُ شَمْلي فيا هل ترى ... يجمعني يومًا بكم مذهبُ[٣]

ويضمِّن سبط ابنُ الجوزي من بعدُ بعض أشعاره في كتابه «مرآة الزمان»[٤]، ولولاه لضاعتْ عنا أخباره، إذ لم يلتفت إليه غيرُه من المؤرِّخين، ولعل السبب في ذلك أن من رآه من معاصريه كان ينسبه إلى البلاهة وعدم الذكاء والفقاهة، إلا أنه ـ كما وصفه ـ «كان باطنه كالزِّناد الوقَّاد، وظاهره كالجليد والجماد.. فإذا أنشد تساقط من ألفاظه مثل الجُمان، وليس الخبر كالعِيان»[٥].

ويلمُّ بمجلس شيخه افتخار الدِّين عبد المُطَّلب بن الفَضْل، ويسمعُ منه للمرة الثَّانية «شمائل النبي ﷺ»[٦].

* * *

---

(١) هكذا قال في «مرآة الزمان» (٢٢/ ١٥٠)، وكان قد ذكر في موضع آخر من «مرآته» (٤/ ٣٦٩) أنه كان في حلب في شوال سنة ٦٠٣هـ، والغريب حقًّا، وهو المؤرخ، أن لا يضبط تواريخ حياته!

(٢) ينظر: (ص ٣٢ ـ ٣٣) من هذا الكتاب. (٣) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٠).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٠ ـ ١٥٤). (٥) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٥).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٥)، وينظر: (ص ٣٣) من هذا الكتاب.

ويبدو أن سبط ابن الجوزي نسي أنه سمع من افتخار الدين أول مرة سنة ٦٠٠هـ، وهو في طريقه إلى دمشق، فقال في «مرآة الزمان» (٤/ ٣٦٩)، وهو يحكي سماعه لحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء»، قال: وهذا هو الحديث المسند الذي سمعته من شيخنا افتخار الدين أبي هاشم عبد المطلب الهاشمي، وهو أول حديث سمعته منه.. وذلك بمدينة حلب في شوال سنة ثلاث وست مئة بالمدرسة النورية!

ويجتمع سبط ابن الجوزي في حلب بعليٍّ ابن عريف النَّحَّاسين، المعروف بابن النَّحَّاس الدِّمَشْقي[1]، وكان قد حضر حصار الصَّليبيين لعكَّا سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م؛ أي: قبل نحو ثماني عشرة سنة، يوم ألقتْ أوربة أفلاذ كبدِها لاسترداد بيت المقدس من المسلمين بعد موقعة حِطِّين، فأتى من عساكرها عبر البحار إلى عكا ما لا قِبَلَ لصلاح الدِّين به، فأحاطوا بها[2].

وفي أثناء حصارهم لها صنع الصَّليبيون ثلاثة أبراج من خشب، وألبسوها جلودَ البقر المُسَقَّاة بالخَلِّ والخمر لئلَّا تعمل فيها النَّار. وطمُّوا خندق عكَّا، وسحبوا الأبراج على العَجَل إلى السُّور، فأقبلتْ أمثالَ الجبال، فأشرفتْ على البلد، وفي كلِّ بُرجٍ خمس مئة مقاتل.

فأَيِسَ المسلمون من عكَّا، وقد حِيْل بينهم وبين السُّلطان صلاح الدِّين. وركب السُّلطان والعساكر، واجتهدوا في الوصول إلى البلد، فلم يقدروا. ورمى الزَّرَّاقون في عكَّا الأبراج بالنِّفْط، فلم يحترق منها شيء.

وكان ابنُ النَّحَّاس، هذا الشَّابُّ الدِّمشقي، في عكَّا مع المحاصَرين، ولم يكن من الجُنْد، وكان عارفًا بالنِّفْط والحريق، فهيَّأ ثلاث قدور، حتى إذا كان صبيحة يوم الجمعة ٢٠ ربيع الأول من سنة ٥٨٦هـ/ ٢٧ نيسان ١١٩٠م[3]، قال للأمير بهاء الدِّين قراقوش[4]؛ نائبِ السُّلطان صلاح الدِّين

---

(١) مرآة الزمان (٢١/ ٣٧٨)، وكتاب الروضتين (٤/ ١٢٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٨٦).
وقد ابتدأ حصارهم لعكا في ٣٠ رجب سنة ٥٨٥هـ/ ١٣ أيلول ١١٨٩م حتى سقطت في أيديهم يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ/ ١٢ تموز ١١٩١م. ينظر وقائع حصارها: «كتاب الروضتين» (٤/ ٧٩ ـ ٢٦٢).

(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٣٧٨)، وفي «كتاب الروضتين» (٤/ ١٢١، ١٢٢) كان ضرب البرج الواحد يوم وصول الظاهر غازي؛ يعني: سحر يوم الجمعة ٢٧ ربيع الأول سنة ٥٨٦هـ/ ٥ أيار ١١٩٠م.

(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨).

في عكا[1]: انصبْ لي مَنْجنيقًا. فانتهرَه، وقال له: قد عَجَزَ الصُّنَّاع عن ذلك، فمن أنت؟ فقال: قد عملتُ قدورًا لله تعالى، وما أريدُ منكم شيئًا، وما يضرُّكم أن أرمي بها في سبيل الله، فإنْ نفعت، وإلا فاحْسُبْني واحدًا منهم. فقال قراقوش: ما يضرُّنا ذلك. ثم نَصَبَ له المَنْجنيق، فرمى واحدةً في بُرْج، فاحترق بمن فيه، ثم فعل ذلك بالثَّاني والثَّالث، فكبَّر المسلمون، وسمع السُّلطان صلاح الدِّين، فكبَّر والعساكر، وفرح قراقوش والأمراء، وطمُّوه بالخِلَع والأموال، فلم يأخذْ منها شيئًا، وقال: أنا فعلت هذا لله تعالى[2].

ويقصُّ ابنُ النَّحَّاس ما جرى معه في ذلك اليوم العصيب على سبط ابن الجوزي، وكان يحضُر مجالس وعظه. وفي مجلس من تلك المجالس طاب قلبه لعذوبة ما يسمع منه، فقال للنَّاس: «اشهدوا أنَّ نصف ثوابي في حريق الأبراج لفلان»؛ وأشار إلى سبط ابن الجوزي[3].

وكان سبط ابن الجوزي ينحو باللَّائمة على السُّلطان صلاح الدِّين في سقوط عكا؛ وذلك لسماحه للصَّليبيين بعد فتحه القُدْس بالمسير إلى صور، فإنَّه ضيَّع الحزم بذلك ـ كما يقول ـ «ولم ينظر في عواقبِ الأمور، فإنَّ اجتماعهم بصُور كان سببًا لأخذهم البلاد، وقَتْلهم من قتلوا بعكَّا من أجناد الإسلام والأعيان، وقد كان الواجبُ عرضَهم على الإسلام، فإن أَبَوْا فالسَّيْف، وهو أصدق إنباءً من الكُتُب، وأنَّى وكيف»[4].

* * *

ولم يَطُلْ مُقام سبط ابن الجوزي بحلب، فيفارقها متَّجهًا إلى المَوْصِل، وتضمُّه فيها مجالس مع عمر بن صافي، ويسمع منه بعض

---

(١) كتاب الروضتين (٤/ ١٥٤).
(٢) مرآة الزمان (٢١/ ٣٧٨)، وينظر ما يؤيد هذه الرواية: «كتاب الروضتين» (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦).
(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٣٧٨).
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٣٢٢).

الأشعار ومناسباتها[1]. ويجتمعُ بأبي السَّعادات مجد الدِّين المبارك بن محمد ابن الأثير[2]؛ أخي المؤرِّخ المشهور عزِّ الدِّين عليٍّ ابن الأثير؛ صاحبِ كتاب «الكامل في التَّاريخ»[3].

وكان مجدُ الدِّين عاقلًا مهيبًا، ذا بِرٍّ وإحسان، وهو لأمراء المَوْصِل بمنزلة الوزير النَّاصح، إلا أنَّه انقطع إلى العلم بداره بدرب درَّاج، لمرضٍ ألمَّ به، وصنَّف من الكُتُب الحِسَان «جامع الأصول»، و«النِّهاية في غريب الحديث»، و«شرح مسند الشَّافعي»، وغيرها. فقرأ عليه سبط ابن الجوزي شيئًا من تصانيفه، وأجازه بالباقي[4].

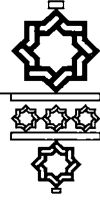
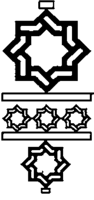
وفي الموصل يسمعُ من نزيلها المُسْند البغدادي أبي بكر مِسْمار بن عمر ابن العُوَيس النَّيَّار[5].

ويلتقي عليَّ بن الحسن الآبَنُوسي، فينشده أبياتًا في نار السَّذَق[6]، وهي ليلة معروفة عند الأعاجم، وكان من عادة سُلطانهم في بغداد أن يأمر فيها بإشعال النِّيران والشموع العظيمة في السُّفن والزَّواريق الكبار في دِجْلة، وعلى كلِّ زورق قُبَّة عظيمة، ويبيتُ أهل بغداد على ضفتي دجلة، وقد حُملت الملاهي في السُّفن، ولا يبقى ببغداد من حاشية السُّلطان أحدٌ إلا وهو يحمل الشمع والمشاعل. ويُكثر الشُّعراء في وصف تلك الليلة[7].

وبعد مغادرته المَوْصِل، يجتاز سبط ابن الجوزي بحرَّان، ويعاود السَّماع بها من شيخه يحيى بن أبي الفتح بن الطَّبَّاخ الضَّرير. وكان شيخًا صالحًا، فقيرًا، صَبُورًا على قضاء الله تعالى، ديِّنًا[8].

---

(١) مرآة الزمان (١/ ٤٦٠)، وتذكرة الخواص (٣٣ ـ ٣٤، ١٦٣).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧١).
(٣) المذيل على الروضتين (١/ ٢٠٧).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧١)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (١/ ٢٠٦).
(٥) الجليس الصالح (٤٠)، وتنظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ١٥٤).
(٦) مرآة الزمان (١٩/ ٤٣١).
(٧) مرآة الزمان (١٩/ ٤٣٠).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ١٨٥)، وينظر: (ص ٣٢) من هذا الكتاب.

حنينه إلى دمشق
واتخاذه لها دار إقامة

ـ ١ ـ

ويصل سبط ابن الجوزي إلى بغداد في أوائل سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م[(١)]، بعد غيابٍ عنها دام نحو ثلاث سنين، فيجد خاله محيي الدِّين يوسُف قد ولي الحِسْبة بجانبيها الشَّرقي والغربي.

ويشهد في صفر/ أيلول قدوم قافلة الحاجِّ من مكة[(٢)]، وكان أميرُها مجاهد الدِّين ياقوت[(٣)]، وقد حجَّ معه بُرْهان الدِّين محمد بن عمر بن مازة الملقَّب[(٤)] بصدر جهان[(٥)]؛ وهو من سادات بُخارى، ورئيس الحنفية بها وخطيبها[(٦)]، ومعه ثلاث مئة من الفقهاء والمتفقهة. وكان عند قدومه بغداد قد تلقَّاه جميعُ مَنْ بها من الأعيان والعلماء ما عدا الخليفة والوزير، وأُنزل في دار زُبيدة على نهر عيسى، وحُملتْ إليه الضِّيافات[(٧)].

وسمع سبط ابن الجوزي من الحُجَّاج العائدين ما لقوه من صدر

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٧، ١٦٠، ٢٤٩).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٧).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٠).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤٩)، وذكرت الاختلاف في اسمه في تحقيقي لكتاب «نزهة المقلتين» (٦٦)، حاشية رقم (٤).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٠).
(٦) نزهة المقلتين (٦٦ ـ ٦٧)، والجواهر المضية (٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ١٤٩).

جهان، وأن غلمانه كانوا يسبقون النَّاس إلى المناهل، فيأخذون الماء، فيرشُّون به حول خيمته، ويسقون أحواض البَقْل على الجِمال، فمات عطشًا أكثرُ النَّاس. ولفداحة معاناتهم في صُحْبته سمَّوا هذه السنة سنة صدر جهنم.

فلمَّا وصل إلى بغداد لم يخرج أحدٌ للقائه، ولعنوه في وجهه، وسبُّوه في الأسواق، وكتبوا لعنته على المساجد والجوامع. وخرجتِ النِّساء صارخاتٍ، مُنَشَّرات الشُّعور، يلطمن على موتاهن، ويقلن: العنوا صدر جهنم. فغادر بغداد، والناس خلفه يسبُّونه، ولم يقدر أحدٌ على منعهم(١).

وربما في تلك الأيام كان سبط ابن الجوزي يزور الشيخ مصدِّق(٢) بن شبيب بن الحسين النَّحْوي، المقيم في رباط شيخه(٣) الزَّاهد الواعظ صدقة بن وزير الواسطي، المتوفى سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م. وكان صدقه في وعظه وتقشُّفِه الزَّائد قد أخذ قلوب العوام، حتى عُدَّ من الأولياء الأفراد(٤). وكان تلميذُه مصدِّق على طريقه في الزُّهد والعبادة، منقطعًا عن الناس(٥). فكان سبط ابن الجوزي يجلس إليه، ويسمع منه عجائب من زُهْدِ شيخه وورعه وأمانته ودِيانته(٦).

وزار كذلك مشهد الإمام أبي حنيفة النُّعمان، واطَّلع فيه على أكثر مصنَّفات الجاحظ، ولا سيَّما كتابه «الحيوان»، فلم يُعْجبه، إذ رأى أنه كتابٌ كثيرُ الحَشْوِ، قليلُ الفائدة(٧).

وزار رباط المأمونية، وكان يسكُن فيه داودُ بن أبي الغنائم الضَّرير، وهو على رأي الأوائل، ويتستَّر بمذهب الظَّاهرية، فيلتقيه سبط ابن الجوزي، ويسمعُ منه بعض أشعاره الرَّقيقة(٨). ويطالعُ في وقف هذا الرِّباط

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٧)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٨٤).
(٢) مرآة الزمان (٢١/ ٢٩).
(٣) المذيل على الروضتين (١/ ٢٠٠).
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٢٨، ٢٩).
(٥) المذيل على الروضتين (١/ ٢٠٠).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩).
(٧) مرآة الزمان (١٥/ ٣٥١).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩).

نحوًا من سبعين مجلدًا من كتاب «الفنون» لأبي الوفاء ابن عَقِيل الحنبلي، المتوفى سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م، وهو في مئتي مجلَّد، وفيه حكاياتٌ ومناظرات وغرائبُ، وأشعار، ويستحسن بعضها، فيذكرها من بعدُ في «تاريخه»[١].

ويبقى مقيمًا في بغداد حتى يأزَفَ أوانُ الحجِّ، فينضمُّ إلى قافلة أمير الحاجِّ العراقي مجاهد الدِّين ياقوت، وهي أوَّلُ حجَّة حجَّها من بغداد[٢]. وكانت سنة مشهورة، كثيرة الخيرات، عظيمة البركات[٣]، لولا ما رأى في طريقه من موتى الحُجَّاج في الموسم الفائت ما أذهله، وخصوصًا في النقرة والغُسَيْلة، فقد مشى ـ كما ذكر ـ ثلاثة أيام بين الأموات، ورأى ما يزيد على خمسة آلاف ميت[٤].

وفي مكة يلتقي في قافلة الحجِّ الشَّامي صديقيه تاج الدِّين عبد الله بن شيخ الشيوخ عمر بن حمُّويه[٥]، وشِبْل الدولة كافور بن عبد الله الحُسامي[٦]؛ خادم ستِّ الشَّام أخت السُّلطان صلاح الدِّين[٧]، وكان له حُرْمة وافرة، ومنزلة عالية عند ملوك بني أيوب[٨].

وكان الوقوفُ بعرفة يوم الأربعاء[٩]، وهناك وقعتْ لسبط ابن الجوزي

---

(١) مرآة الزمان (٢٠/ ١٢٦ ـ ١٢٩، ٢١/ ٢٧٧).
ولما يصل إلينا من هذا الكتاب إلا قطعة حققها الدكتور جورج مقدسي، ونشرها في جزأين في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٧٠م، ووقع له فيها تحريفات فاحشة.

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٧، ١٦٠، ٣٨٤).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٥).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٥٧).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٤).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٢، ٣٨٤)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٨٧)، وتنظر: (ص ٤٠، ٤٤) من هذا الكتاب.

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤١، ٢٨٢).

(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٢).

(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ١٦٠، ٣٨٥).

حادثة غريبة، قصَّها علينا في معرض حديثه عن شيخه عبد الله اليُونيني، ونحن ننقلها عنه، والعُهْدة عليه، قال: «وكان له تلميذٌ اسمه توبة، وكان من الصَّالحين الأجواد. فلمَّا كان يوم عرفة صَعِدْتُ جبل عرفات، وإذا بالشيخ عبد الله قاعدٌ على الجبل مستقبل الكعبة، وعليه الثَّوب الخام، وعلى رأسه القَلَنْسُوة السَّوداء، فسلَّمتُ عليه، فرحَّب بي، وسألني عن طريقي، وقعدتُ عنده إلى قريب الغِياب، ثم قلتُ له: ما تقوم نروح إلى المُزْدلفة؟ فقال: اسبقني أنت، فلي رفاقٌ. فنزلتُ من الجبل، وأتيتُ المُزْدلفة، ووقفتُ بها، وجئتُ إلى مِنى، فدخلت مسجد الخَيْف، وإذا بالشَّيخ توبة خارجٌ من المسجد، فسلَّم عليَّ، فقلتُ له: أين نزل الشيخ؟ ظنًّا منِّي أنه قد حجَّ معه، فقال: أيما شيخ؟ قلتُ: عبد الله. قال: خلَّفْتُه ببَعْلَبك. ففَطِنْتُ، فقلتُ: مبارك. ففهم، فلزم بيدي وبكى، وقال: بالله حدِّثْني أيش معنى هذا؟ فقلتُ: رأيتُه البارحة على عرفات. وحدَّثتُه الحديث»[1].

وفي مكة يجلسُ إلى حلقة إمام الحنابلة الشيخ الحافظ المتقن المقرئ نصر بن أبي الفرج محمد بن علي، البغدادي، المعروف بابن الحُصْري، وكان مجاورًا بها[2]، فيسمع منه الحديث[3]، وكان ـ كما وصفه السبط ـ متعبِّدًا، لا يفتر من الطَّواف، صالحًا ثقة[4].

* * *

وبعد قضائه مناسك الحجِّ، يعودُ سبط ابن الجوزي إلى بغداد[5]، ويزور فيها فيمن يزور أحمد بن علي بن مسعود الورَّاق ـ مصنِّف كتاب

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٣، ١٦٤).
(٣) المذيل على الروضتين (١/ ٣٥٣)، ونص سماعه منه مما أسقطه اليونيني في اختصاره لـ «مرآة الزمان».
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٢)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ١٦٠، ٢٤٩).

«فاكهة المَجَالس وفاكهة المُجَالس»، وهو في عِدَّة مجلدات، ثم يختصر منه كتابًا سمَّاه «سُلافة العنقود» ـ فيجلس إليه سبطُ ابن الجوزي، ويسمع منه بعض الأشعار[1].

بيد أن الحياة لم تَرُقْ له في بغداد، ولربما آثر ألا يزاحمَ بها خاله محيي الدِّين يوسُف، وقد بلغ شأوًا عظيمًا في الوعظ كذلك[2]، وكان حنينه إلى دمشق لا ينفكُّ يشدُّه إليها، بعد أن ذاق حلاوة نعيمها في صُحْبة المقادسة في قاسيونها، فمن سَكَنه لا يطيبُ له سُكْنى غيره[3]، فيعزمُ على العَوْدِ إليهم على نيَّة الإقامة، عسى أن يكون رفيقهم في دار المُقامة، على حدِّ تعبيره[4].

وفي طريقه إلى دمشق يعرج على حرَّان، ويلتقي فيها رجلًا صالحًا من أهلها قد نيَّف على التسعين بقُبَّة الشيخ حياة[5] بن قيس الحرَّاني؛ شيخ حرَّان وزاهدها المتوفى سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م[6]، فيحدِّثه عن قصة يزعُمُ أنها جرتْ له مع السُّلطان نور الدِّين محمود بن زَنْكي[7].

وفي المَوْصِل يعاودُ اجتماعه بشيخه أبي القاسم عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسي[8]، ويجتمع بالثقة[9] الإمام أبي عبد الله

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٨).
(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٢٢).
(٣) مرآة الزمان (١/ ٨٨).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٣٦)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٥٩).
(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٢١٢).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٨١ ـ ١٨٢).
(٧) مرآة الزمان (٢١/ ٢١٢ ـ ٢١٤)، وهي قصة لا تصح، ودللتُ على نكارتها في حاشيتي (رقم ١ ص ٢١٤) من «المرآة».
(٨) تذكرة الخواص (٢١٠)، وينظر: (ص ٣١) من هذا الكتاب.
(٩) مرآة الزمان (٢١/ ٣٤٤).

الحسين بن عمر بن نصر[١] ابن باز؛ شيخ دار الحديث المُظفَّرية، وكان قد حضر مع السُّلطان صلاح الدِّين بن أيوب حصار عكَّا[٢]، فيذاكره بغزوات صلاح الدِّين[٣]. ثم يلمُّ بحلب، ويعقد فيها مجالس للوعظ[٤].

ويصل أخيرًا إلى دمشق سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م[٥]، وهو ينشد بلسان الظَّاهر والباطن، متمثِّلًا بقول الشَّاعر:

فَأَلْقَتْ عَصاها وَاسْتَقَرَّتْ بِها النَّوى[٦]

ويُسارع إلى زيارة الشيخ عبد الله اليُونيني، وكان توبة قد حدَّثه حديثه في عرفات، فيعاتبه الشيخ عبد الله على ما فاه به، ويقول له: «لا تَعُدْ إلى مثلها». ويتفهَّم سبط ابن الجوزي عِتاب شيخه له، ويعلِّله بقوله: «كأنَّه كَرِهَ أن يُتحدَّث له بكرامةٍ في حال حياته»[٧].

ـ ٢ ـ

وعَوْدٌ على بَدْئه، يجلس سبط ابن الجوزي للوعظ في جامع دمشق[٨]، وجامع الحنابلة بالصَّالحية[٩]. ويحضُرُ فيه خُطَبَ شيخه أبي عمر.

ويتَّفق له ذات جُمُعة من أول سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م أن جلس إلى جانبه في أثناء سماع الخطبة شيخُه عبد الله اليُونيني، فلمَّا كان في آخر الخُطْبة، وأبو عمر يخطب، نهض الشيخ عبد الله اليونيني مُسْرعًا، وصَعِدَ إلى مغارة توبة، وكان نازلًا بها، فظنَّ سبط ابن الجوزي أنه قد احتاج إلى الوضوء،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/٢٥٨).

(٢) ينظر الحاشية رقم ٢ (ص ٤٩) من هذا الكتاب.

(٣) مرآة الزمان (٢١/٣٤٤).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/٢١٣).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/١٦٥).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/١٣٦).
وعجز البيت: «كما قرَّ عينًا بالإيابِ المسافرُ». وهو من قصيدة لمعقِّر البارقي، وبيته هذا ذهب مثلًا. ينظر: «الحماسة البصرية» (١/٢٤١ ـ ٢٤٢).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/٢٥٠)، وينظر: (ص ٥٤ ـ ٥٥) من هذا الكتاب.

(٨) مرآة الزمان (٢٢/١٧٢).

(٩) مرآة الزمان (٢٢/١٧٩).

أو آلمه شيءٌ، فيقول: «فلمَّا صلينا الجمعة صَعِدْتُ وراءه، وقلت: خير، ما الذي أصابك؟ فقال: هذا أبو عمر ما تَحِلُّ خلفه صلاة. قلت: ولِمَ؟ قال: لأنَّه يقول على المِنْبر ما لا يصلُح. قلتُ: وما الذي قال؟ قال: الملك العادل، وهو ظالمٌ، فما يَصْدُق. وكان أبو عمر يقول في آخر الخُطْبة: اللَّهُمَّ وأَصْلِحْ عبدَك الملك سيف الدِّين أبا بكر بن أيوب. فقلت: إذا كانتِ الصَّلاة خلف أبي عمر لا تصح، فيا ليتَ شِعْري خلفَ مَنْ تصحّ!.. وبينا نحن في الحديث إذا بالشيخ أبي عمر، وقد صَعِدَ إلى مغارة توبة، فدخل ومعه مئزر، فسلَّم، وحلَّ المئزر، وفيه رغيفٌ وخيارتان، فكسر الجميع، وقال: بسم الله، الصَّلاة، ثم قال: ابتداءً قد جاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: «**وُلِدْتُ في زمن العادل كِسْرى**»[1]. فنظر إليَّ الشيخ عبد الله وتبسَّم، ومدَّ يده فأكل، وقام أبو عمر، ونزل، فقال لي الشيخ عبد الله: يا سيِّد، ما ذا إلا رجلٌ صالح»[2]. ولا ريب أنَّ أبا عمر أجلُّ من اليُونيني، كما ذكر الإمام الذَّهبي[3].

وفي جلسة له في ذلك العام مع شيخه أبي عمر، حدَّثه أبو عمر عن شيخه أبي محمد بن برِّي، بإسناده إلى كعب الأحبار، قال: «إنَّا نجدُ في كُتُب الله المُنَزَّلة أنَّ الله أوحى إلى جبلِ قاسيون أنْ هَبْ ظلَّك وبركتك وخيرَك لجبالِ بيت المقدس، فقال: قد فعلتُ. فأوحى الله إليه: لن تذهبَ الأيَّام والليالي حتى أردَّ ظلك وخيرَك وبركتك، وسيُبْنى في ظِلِّك بيتٌ أُعْبَدُ فيه بعد خراب الدُّنيا أربعين عامًا».

---

(١) حديث لا أصل له، وأورده السخاوي في «فتح المغيث» (٣/ ٣٦)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (١٥/ ٤٥)، وقال: هذا الحديث الذي احتج به الشيخ أبو عمر لا أصل له، وليس هو في شيء من الكتب المشهورة. وعجبًا له ولأبي المظفر ثم لأبي شامة في قبول مثل هذا، وأخذه منه مسلمًا إليه فيه، والله أعلم.

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، وينظر تعقيب أبي شامة على هذه القصة في: «المذيل على الروضتين» (١/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٠٣).

ثم تبسَّم الشيخ أبو عمر، وقال: «أرجو أنْ يكون لجامع الجبل»؛ يعني به: جامع الحنابلة الذي بناه[1].

ويسوقُ لنا سِبْط ابن الجوزي طَرَفًا ممَّا كان يدور بينهما من أحاديث، فلربَّما سأله ذات يوم عن سبب تسمية الجبل بالصَّالحية، فيجيبُه أبو عمر بحياءٍ وتواضع: «هاجَرْنا من بلادنا، فنزلنا مسجد أبي صالح بباب شَرْقي، فأقمنا به مُدَّة، ثم انتقلنا إلى الجبل، فقال النَّاس: الصَّالحية الصَّالحية. نسبُونا إلى مسجد أبي صالح، لا أنَّا صالحون. ولم يكن بالجبل عمارة إلا ديرُ الحوراني، وأماكنُ يسيرة»[2].

وممَّا حكاه له الشيخ أبو عمر عن السُّلطان نور الدِّين، قال: «كان نور الدِّين يزور والدي الشيخ أحمد في المدرسة الصَّغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدَّير، فجاء يومًا لزيارة والدي، وكان في سقف المسجد خشبةٌ مكسورة، فقال له بعضُ الجماعة: يا نورَ الدِّين، لو كَشَفْتَ السَّقف وجدَّدته. فنظر إلى الخشبة وسكت. فلمَّا كان من الغد جاء معماره ومعه خشبة صحيحة، فزرقها موضعَ المكسورة ومضى، فعَجِبَ الجماعة. فلمَّا جاء إلى الزِّيارة، قال له بعضُ الحاضرين: يا نور الدِّين، فاكرتنا في كشف السَّقف. فقال: لا والله، وإنما هذا الشيخ أحمد رجلٌ صالح، وإنما أزوره لأنتفعَ به، وما أردتُ أن أزخرف له المسجد، وأنقض ما هو صحيح، وهذه الخشبة يحصل بها المقصود، فدعوني مع حُسْن ظنِّي فيه، فلعلَّ الله ينفعني به»[3].

وممَّا تعلَّمه سبط ابنُ الجوزي من أبي عمر دُعاء السَّنَة، إذ قال له ذات يوم: «ما زال مشايخُنا يواظبون على هذا الدُّعاء في أوَّل كلِّ سنة وآخرها، وما فاتني طول عمري، وأما أول السنة فإنَّك تقول: اللَّهُمَّ أنتَ الأبدي القديم، وهذه سنةٌ جديدة، أسألك فيها العِصْمة من الشيطان

---

(١) مرآة الزمان (١٠/١٠٨)، وينظر: (ص ٣٤) من هذا الكتاب.

(٢) مرآة الزمان (٢٢/١٧٦). (٣) مرآة الزمان (٢١/٢١١ ـ ٢١٢).

وأوليائه، والعَوْنَ على هذه النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، والاشتغالَ بما يقرِّبُني إليك يا ذا الجلال والإكرام. فإنَّ الشَّيطان يقول: قد آيسنا من نفسه فيما بقي، ويوكل الله به مَلَكين يحرسانه.

وأما دُعاء آخر السَّنة، فإنَّه يقول في آخر يوم من أيام السَّنة: اللَّهُمَّ ما عمِلْتُ في هذه السنة مما نهيتني عنه، ولم تَرْضَه ولم تنسه، وحلمتَ عنِّي بعد قُدْرتك على عقوبتي، ودَعَوْتني إلى التوبة من بعد جُرْأتي على معصيتك، فإنِّي أستغفركَ منه، فاغفرْ لي. وما عملتُ فيها ممَّا ترضاه، ووَعَدْتني عليه الثَّواب، فأسألك أنْ تتقبَّلَه مني، ولا تقطعْ رجائي منك يا كريم. فإنَّ الشيطان يقول: تَعِبْنا معه طول السنة، فأفْسَدَ عملنا في ساعة»[١].

وكانت محبَّة سبط ابن الجوزي لأبي عمر تتعمَّق مع الأيام وتترسَّخ، لما يرى من فضائله الغزيرة، وكراماته الكثيرة. ويقصُّ علينا بعضًا مما شاهده منها، فيقول: «أصابني قُولَنْج، وعانيتُ منه شِدَّة، فدخل عليَّ أبو عمر وبيده خَرُّوب شامي مدقوق، فقال: استفَّ هذا. وكان عندي جماعة، فقالوا: هذا يزيد القولنج ويضرُّه. فما التفتُّ إلى قولهم، وأخذتُه من يده، فأَكَلْتُه، فبرأت في الحال، ومن هذا شيءٌ كثير»[٢].

ويُنشده أبو عمر ذات يوم من نظمه، قوله:

أوصيكُمُ بالقول في القُرْآن ... بقيلِ أهلِ الحقِّ والإتقانِ
ليس بمخلوقٍ ولا بفانِ ... لكنْ كلامُ الملك الدَّيَّانِ
آياتُهُ مُشْرقةُ المعاني ... متلوَّةٌ لِلَّه باللِّسانِ
محفوظةٌ في الصَّدْرِ والجَنَان ... مكتوبةٌ في الصُّحْفِ بالبَنانِ
والقولُ في الصِّفاتِ يا إخواني ... كالذَّاتِ والعلم مع البيانِ
إمرارُها من غيرِ ما كُفْران ... من غير تشبيهٍ ولا عُدْوانِ[٣]

---

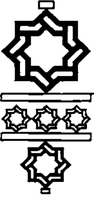
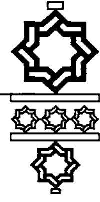
(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٨٠ ـ ١٨١).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٨).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ١٨١).

ولذلك وصف سبط ابن الجوزي أبا عمر من بعدُ بقوله: «كان على مذهب السَّلف الصَّالح، حسنَ العقيدة، متمسِّكًا بالكتاب والسُّنَّة والآثار المروية، ويُمرُّها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدِّين وعلماء المُسْلمين، وينهى عن صُحْبة المُبْتدعين، ويأمر بصحبة الصَّالحين»[1].



---

(١) مرآة الزمان (٢٢/١٧٩).

مشاركته في جهاد الصَّليبيين

ـ ١ ـ

وتنقضي هُدْنة الملك العادل مع الصَّليبيين في المحرم سنة ٦٠٧هـ/ تموز ١٢١٠م. وكان قد اقترح عليهم تجديدَها قبل انتهائها، فلم يستجيبوا له، متذرِّعين بأنَّ زوج ملكتهم جان دي بريين، الذي اختير ليحكم البلاد باسمها، يستعدُّ للقدوم من فرنسة إلى عكَّا، ولا يمكنهم إلزامه بهدنة جديدة[١].

وبانتظار ما ستُسْفر عنه الأيام، أرسل العادل ـ وكان مقيمًا في حرَّان وقتئذٍ[٢] ـ ابنَه المعظَّم عيسى إلى نابُلُس، ليكون قريبًا منهم. ويراها سبط ابنُ الجوزي فرصة ليشارك بهذه الغَزاة، فيجلس في جامع دمشق يوم السبت ٥ ربيع الأول سنة ٦٠٧هـ/ ٢٧ آب ١٢١٠م، حاثًّا النَّاس على الخروج معه إلى المعظم ـ ولم يكن التقاه من قبل ـ ويصفُ لنا من بعدُ هذا المجلس، وخروجه إلى نابلس بقوله: «وكان النَّاس من باب مشهد زين العابدين إلى باب النَّاطفانيين، وإلى باب السَّاعات. وكان القيامُ في الصَّحْن أكثر، بحيث امتلأ الجامع، وحُزروا بثلاثين ألفًا. وكان يومًا لم يُرَ بدمشق مثله ولا بغيرها. وكان قد اجتمع عندي شعورٌ كثيرة، وقد وقفتُ على حكاية أبي قُدامة الشَّامي مع تلك المرأة التي قطعتْ شعرَها، وبعثتْ به إليه، وقالتْ:

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٣٩).

(٢) المذيل على الروضتين (١/ ٢٠٣)، ومفرج الكروب (٣/ ٢٠٠).

اجعله قيدًا لفرسك في سبيل الله[1].

فعملتُ من الشُّعور التي اجتمعتْ عندي شُكلًا لخيل المجاهدين وكرفسارات. ولما صَعِدْتُ المنبر أمرتُ بإحضارها، فحُملت على أعناق الرِّجال، وكانت ثلاث مئة شكال، فلمَّا رآها النَّاس صاحوا صيحة واحدة عظيمة، وقطعوا مثلها، وقامتِ القيامة.

وكان المبارز إبراهيم المعتمد؛ والي دمشق حاضرًا، وجَمَعَ الأعيان، فلمَّا نزلتُ من المنبر قام المبارز يُطرِّق لي، ومشى معي إلى باب النَّاطفانيين، فأمسك بركاب فرسي، وأركبني، وخرجنا من باب الفرج إلى المُصلَّى، وجميع من كان بالجامع بين يدي، وسرنا إلى الكُسوة من الغد، ومعنا خلقٌ مثل التراب. . والكلُّ خرجوا احتسابًا. وجئنا إلى عقبة فِيْق، والطَّير لا يطيرُ من خوف الفرنج، فسرنا على الجادَّة إلى نابُلُس، ووصلتْ أخبارُنا إلى عكا، وخرج المعظَّم، فالتقانا، وسُرَّ بنا. وجلستُ بجامع نابلس، وحضر، وأحضرنا الشُّعور، فأخذها، وجعلها على وجهه، وجعل يبكي، ولم أكن اجتمعتُ به قبل ذلك اليوم»[2].

ويخرج المعظَّم عيسى مع المتطوِّعين من نابلس ـ ومعه سبط ابن الجوزي ـ للإغارة على ضواحي عكَّا، فيخربها، ويقطع أشجارها، ويقتل ويأسر من يقع عليه من الصَّليبيين. ويقبع الصَّليبيون خلف أسوارها، لا يجرؤون على الخروج منها، ويقيم أيامًا، ثم يعود إلى جبل الطُّور؛ جنوبيِّ شرق عكا، والمطلِّ على النَّاصرة، ويرى أن يبني عليه قلعة[3]، للتَّضييق على عكا.

---

(١) أورد سبط ابن الجوزي قصة أبي قدامة الشَّامي مع تلك المرأة في كتابه «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (١٠٥ ـ ١٠٧)، فانظرها إن شئت.

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٣)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢١٠).

ويصلُ لسبط ابن الجوزي، وهو في نابُلُس، كتابٌ من شيخه أبي اليُمْن الكِنْدي بخطِّه الجميل مثل الدُّرِّ، على حدِّ تعبيره، وقد ضمَّنه بعضَ أشعاره الرَّقيقة، معبِّرًا بها عن شِدَّة شوقه إليه، وعُمق محبَّته له، منها:

جَزَى اللَّه بالحُسْنى لياليَ أحسنتْ إلينا بإيناسِ الحبيبِ المُسافرِ
لياليَ كانتْ بالسُّرور قصيرةً ولم تكُ لولا طِيْبُها بالقصائِرِ
فيا لكَ وَصْلًا كان وَشْكُ انقضائه كزَوْرةِ طيفٍ أو كنغمةِ طائِرِ

ومنها:

أيا ساكني قلبي على بُعْدِ دارهمْ لقد عِيْلَ صبري منذ شَطَّتْ نَوَاكُمُ
سرى معكمْ نومي فأصبحتُ بعدَكُمْ ألومُ السُّرى منه وأبكي سُرَاكُمُ
رضيتُمْ بعادِي عنكُمُ فرضِيْتُهُ لأنِّيَ أهواكُمْ وأهوى هواكُمُ(١)

ـ ٢ ـ

ويعود سبطُ ابن الجوزي إلى دمشق، مفارقًا للملك المعظَّم عيسى، وقد تعمَّقتْ صلته به. ولم ينقضِ على رجوعه إلا أيامٌ قلائل حتى يُفجع بوفاة شيخه أبي عمر. وكان آخرَ لقاءٍ له به في مجلس وعظه بالصَّالحية.

ويصفُ لنا سبط ابن الجوزي بألم هذا اللِّقاء الأخير، وكأنَّه هو من تسبَّب بوفاته، فيقول: «حضر مجلسي بقاسيون في الجامع، وأخوه شيخنا الموفَّق حاضر والعمادُ والجماعة، وكان قاعدًا في الباب الكبير، وجرى الكلامُ في رؤية الله تعالى ومشاهدته، واستغرقتُ في ذلك. وكان وقتًا عجيبًا، وأبو عمر جالسٌ إلى جانب أخيه الموفق، فقام، وطَلَبَ باب الجامع، ولم أره، فالتفتُّ، وإذا بين يديه شخصٌ يريدُ الخروج من الجامع، فصِحْتُ على الرَّجل: اقعدْ. فظنَّ أبو عمر أنني أُخاطبه، فجلسَ على عتبة بابِ الجامع الجوَّانية إلى أن فرغ المجلس، ثم حُمل إلى الدَّير، فكان آخرَ

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٩)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٧٣).

العَهْد به»[1].

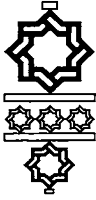
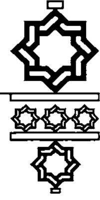
وأقام أبو عمر أيامًا مريضًا، حتى إذا كان عشية يوم الإثنين ٢٨ ربيع الأول سنة ٦٠٧هـ/١٦ تموز ١٢١٠م جَمَعَ أهله، واستقبل القِبْلة، ووصَّاهم بتقوى الله ومراقبته، وأمرهم بقراءة «يس»، وكان آخرَ كلامه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ثم توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]، وله نحو تسع وسبعين سنة[3].

وغُسِّل في وقت السَّحَر، ومن وصل إلى الماء الذي غُسِّل به نشَّف به النساء مقانعهن، والرجال عمائمهم. ولم يتخلَّف عن جِنازته أحدٌ من القضاة والأمراء والعلماء والأعيان، وعامَّة الخلق، وكان يومًا مشهودًا. ولما خرجوا بجِنازته من الدَّير كان يومًا شديدَ الحرِّ، فأقبلت غمامةٌ، فأظلَّتِ النَّاس إلى قبره، وكان يُسمع منها دويٌّ كدوي النَّحْل[4].

ودُفن على طريق مغارة الجوع، على يمين المارِّ إليها، إلى جانب قبر أبيه الشيخ أحمد بن محمد بن قُدامة[5].



(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٨٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٢٠).
(٣) ولد الشيخ أبو عمر سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م بقرية جمَّاعيل، قرب نابلس. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ١٧٦)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢١٤).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٨٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٢٠).
(٥) المذيل على الروضتين (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

صُحبته للملك المعظَّم عيسى بن العادل وتحوُّله في الفِقْه من المذهب الحَنْبلي إلى المذهب الحَنَفي

ـ ١ ـ

ويشرع المعظَّم عيسى بنُ العادل في تنفيذ ما عزم عليه من بناء قلعة الطُّور، في العَشْر الأوسط من ذي الحِجَّة سنة ٦٠٧هـ/ أيار ١٢١١م[١]. وأقام على العمل فيها حتى أشرف على إكمال سُورها في أواخر سنة ٦٠٨هـ/ أيار ١٢١٢م، والرُّسل في أثناء ذلك تتردَّد بين العادل وبين جان دي بريين من أجل عقد هُدنة جديدة. ويرى الصَّليبيون أنَّهم لا يقوون الآن على مجابهة المسلمين، والقلعة آخذة بالتمام، فيؤثرون عقد هدنة[٢]، مُدَّتها خمس سنين على أن تبدأ من المحرم سنة ٦٠٩هـ/ تموز ١٢١٢م. وقبل أن يجفَّ حبرها يرسل جان دي بريين الرَّسائل إلى روما طالبًا فيها من البابا أن يُعِدَّ حملة صليبية جديدة، تكون متأهبة للقدوم إلى فلسطين عند انقضاء أجلها سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م[٣].

أما العادل، ففور انتهائه من أمر الهدنة، فرَّق عساكره[٤]، وسار نحو الكَرَك، فأقام بها أيامًا، ثم تابع طريقه مطمئنَّ البال نحو القاهرة[٥].

---

(١) المذيل على الروضتين (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٣)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢١٠).
(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٤٠).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٣). (٥) مفرج الكروب (٣/ ٢٠٧).

ولا ريب أن سبط ابن الجوزي في تلك الأيام لم ينقطع عن المعظم عيسى، فكان يزوره في نابُلُس، أو يلتقيه في دمشق حين يأتي لتفقُّدِ شؤونها، مخالفًا بذلك سيرة مشايخه المقادسة من آل قُدامة والعلماء ممن يرى النَّأي بنفسه عن السُّلطان، مسوِّغًا صنيعه هذا بقوله: «رأيتُ قِوَام الخلق كلِّهم بعلمائهم وأمرائهم، ورأيتُ العلماء بالغالب منقسمين إلى خيِّر يخافُ على دينه، فيبعد عن الأمير، ومنافقٍ يخالط السُّلطان مخالطة الشِّرير، مراده استلاب دنياه، فلا يأمره ولا ينهاه.. فإذا كان هذا يؤذي السُّلطان بالقُرْب منه، والعالم الخيِّر ينأى عنه، فمن الذي ينبِّهُه على الصَّواب، ويُفقِّهُه بآداب السُّنَّة والكتاب؟»[1].

واطمأنَّ المعظَّم لصفاء صداقته، فصار يبوحُ له في تلك اللقاءات ببعض ما جرى له في حياته[2]، وبلغ من قوَّة تلك الصَّداقة مع الأيام أن المعظم عيسى لم يَعُدْ يصبر على فِرَاقه، فاصطحبه معه حين عزم على السفر إلى مِصْر سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م[3] للقاء والده العادل[4].

ويصلا إلى مصر في جُمادى الأولى[5]، ويستقبل سبط ابنَ الجوزي في القاهرة الملكُ الكاملُ محمد بن العادل، النَّائبُ عن أبيه في مصر، وينزله تكريمًا له في دار الوِزَارة[6]. ولعل سبط ابن الجوزي في هذه الزِّيارة قابل الملكَ العادل، وسأله عن مولده، فقال: فتوح الرُّها؛ يعني: سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. ويُعجب بصحبة العادل، فقد رآه خليقًا بالملك، حَسَنَ التَّدْبير، حليمًا صفوحًا[7].

---

(١) الجليس الصالح (١٩٦).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٧٠).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ١٩١، ٣٤٧).

(٤) مفرج الكروب (٣/ ٢٠٩)، وذكر أن ذلك كان سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م، وإخاله وهمًا لا يتفق وسياق الأحداث.

(٥) تذكرة الخواص (٢٦٣).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٧).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٠)، وينظر عن فتح عماد الدين زنكي للرُّها: «مرآة الزمان» (٢٠/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠)، و«كتاب الروضتين» (١/ ١٣٨ ـ ١٤٩).

وفي القاهرة يجلس سبط ابن الجوزي في حلقة القاضي الأسعد أبي البركات عبد القوي بن أبي المعالي عبد العزيز ابن الجَبَّاب السَّعْدي، يسمع منه[١].

ويعقِدُ فيها مجالس للوعظ، ويحضرها أعيانها، ومنهم الأمير الشَّاعر مُرْهَف بن الأمير أسامة ابن مُنْقذ. ويأنس به الأمير، فيزوره، وينشده مقطَّعات من شعره، منها:

وما زالتِ الأيامُ تُوعِدُني المُنى   بلقياكَ حتى برَّحَتْ بي وعودُها
فلمَّا تلاقَيْنا افترقنا فليتنا   بقينا على الحال التي لا نريدُها[٢]

ويقتني سبط ابن الجوزي ديوان الواعظ المِصْري محمد بن إبراهيم بن الكِيْزاني، المتوفى نحو سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م[٣]، فيراه حَسَنَ العبارة، صحيح الإشارة، وفيه رِقَّة وحلاوة، وعليه طلاوة. وينشده الأميرُ مُرْهَف أبياتًا مما يحفظ من شِعْره[٤].

* * *

وكان في القاهرة الأمير سامة الجيلي[٥]، وهو آخرُ من بقي من الصَّلاحية الذين مهَّدوا المُلْك للعادل، ومن أشدِّهم إخلاصًا له في حروبه مع أولاد أخيه: الأفضل والظَّاهر[٦]، وكانت له قلعتا كوكب وعجلون، وكشأن كلِّ مَنْ يكره مَنْ له منَّة عليه، قرَّر العادل أن الوقت قد حان للتخلُّص منه. وكان المعظَّم عيسى يطمعُ بامتلاك قلعتيه، وهما القلعتان

(١) تذكرة الخواص (٢٦٣)، وتنظر ترجمته في: «الوافي بالوفيات» (١٩/ ٤٢)، وترجمة والده أبي المعالي في «كتاب الروضتين» (٢/ ٦ ـ ١٠)، و«الوافي بالوفيات» (١٨/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩).
(٢) مرآة الزمان (٢١/ ٣٦٣).
(٣) ذكر سبط ابن الجوزي وفاته في هذه السنة، وعند ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٤/ ٤٦٢)، أنه توفي سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م.
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٥٥ ـ ٥٦).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ١٩١).
(٦) كتاب الروضتين (٤/ ٤٢٨)، ومفرج الكروب (٣/ ٢٠٩).

اللتان لا تخضعان له مباشرة في بلاده، فطلب منه تسليمهما إليه، فأبى سامةُ ذلك أشدَّ الإباء[1].

وخرج المعظَّم مع أبيه وأخَوَيْه الكامل والفائز إلى دِمْياط لتفقُّدِها، وفي صُحْبتهم سبط ابن الجوزي. وكان سامة قد استشعر تغيُّر العادل عليه، فاستوحش منه، ولا سيَّما أن العادل اتهمه بمكاتبة الظاهر غازي؛ صاحب حلب، وبينهما من العداوة المعلنة والخفية ما بينهما، فاغتنم سامة خروجَ العادل إلى دمياط، وقرَّر الهرب من القاهرة، فخرج منها كأنَّه خارج للصَّيْد، وأسرع في مماليكه نحو قلعتيه كوكب وعجلون، وكان ذلك يوم الإثنين **٢٩** جمادى الآخرة سنة **٦٠٩**هـ/**٢٦** تشرين الثاني **١٢١٢**م.

وعَلِمَ والي بِلْبِيس بالأمر، فأرسل حَمَامَ الزَّاجل إلى العادل يخبرُه بذلك، فقال العادل لأولاده، وقد خاف أن يُفلت منه: من ساق خلفه فله أمواله وقلاعُه. فقال المعظم على الفور: أنا. ثم التفت إلى سبط ابن الجوزي قائلًا له: أنا أريد أن أسوق، فسُقْ أنت مع قُماشي. ودَفَعَ إليه بغلة. وركب المعظم من دِمْياط يوم الثلاثاء غُرَّة رجب/ **٢٧** تشرين الثاني، وساق بنفرٍ يسير خلف الأمير سامة بسرعة فائقة حتى سبقه إلى القُدْس، وقبض عليه[2]، ثم اعتقله بالكَرَك إلى أن مات[3]، واستولى على قلاعه وذخائره وخيله[4]، وممَّا استولى عليه كذلك داره في دمشق[5].

ولا يسوء سبط ابنَ الجوزي ما فعله المعظَّم بالأمير سامة، بل يسوِّغ

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢١٠). (٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٩١).
(٣) مرآة الزمان (٢٠/ ٧، ٢٢/ ١٩٢)، ومفرج الكروب (٣/ ٢١٠).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٩٢).
(٥) مرآة الزمان (٢٠/ ٦).
وهذه الدار أخربها الصَّالح نجم الدِّين أيوب بن الكامل سنة **٦٤٧**هـ/ **١٢٤٩**م، ثم بُني على أنقاضها فيما بعد المدرسة البادرائية. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٠/ ٦، و٢٢/ ٤٠٧)، و«المذيل على الروضتين» (٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، ومقالتي عنها في «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق»: (مج ٨٨/ ٥٠٧ ـ ٥١٦).

له ذلك بأنَّ ما جرى له كان جزاءً وِفَاقًا لأفعاله الشَّنيعة؛ فقد جاوز هذا الأمير حدَّه في بناء هذه الدار، ومدَّ يده إلى أموال النَّاس وأراضيهم يغتصبُها، حتى صحَّ فيه قول القائل: الحجرُ المغصوب في البناء أساسُ الخراب. فكانت هذه الدَّار سببَ هلاكه(١)!

ولم يكتفِ بهذا، بل إنَّ هذا الأمير واغِلٌ في خيانته، فهي تعودُ إلى أيام ولايته لبيروت زمن السُّلطان صلاح الدِّين، فقد كان يأخذ مراكب الصَّليبيين، وفيها أموالٌ عظيمة، ولا يُطلع السلطان على شيءٍ منها، ثم إنَّه سلَّم بيروت للصَّليبيين سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، ومن ثم تمزَّقت أمواله، وتغيَّرت أحواله، وخَرِبَتْ دياره، ودَرَسَتْ آثارُه(٢).

- ٢ -

صِلتُه القوية هذه مع الملك المعظَّم عيسى كانت وراء تحوُّله من المذهب الحنبلي إلى المذهب الحنفي في الفِقْه، مجاراة لهذا الصَّديق المُولع بفقه ذلك المذهب(٣)، بل المتعصِّب له(٤).

فالمعظم عيسى انفرد من بين سائر ملوك بني أيوب، وكلُّهم شافعية، بالانتماء إلى مذهب أبي حنيفة(٥)، وشيخه فيه شيخ الحنفية في الشَّام الإمام جمال الدِّين محمود بن أحمد الحَصِيْري، وكان يحترمه ويُكرمه، وممَّا قرأ عليه كتاب «الجامع الكبير» للإمام محمد بن الحسن الشَّيْباني(٦). ويقال: إنَّ أباه العادل لامَه في ذلك، فأجاب أباه على سبيل المُداعبة: «أما تَرْضَوْنَ أن

---

(١) مرآة الزمان (٢٠/ ٦ - ٧).

(٢) مرآة الزمان (٢١/ ٣٨٥، ٢٢/ ٥٢).

(٣) ذيل مرآة الزمان (١/ ٤١).

(٤) ينظر صور من تعصبه في: «مفرج الكروب» (٤/ ٢١١).

(٥) مفرج الكروب (٤/ ٢١١).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٩).

ثم ولاه تدريس المدرسة النورية سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م. ينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٤٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٥٤).

يكون فيكم رجلٌ واحد مُسْلم!»[١].

ولحبِّه لأبي حنيفة أَمَرَ الفُقهاء أن يجرِّدُوا له مذهبه دون صاحِبَيْه، فجرَّدوا له المذهب في عشر مجلدات، وسمَّاه «التذكرة»، فكان لا يفارقه سفرًا ولا حضرًا، يطالعه دائمًا، وعلى ظهر كلِّ مجلدة منه كَتَب بخطِّه: «أنهاه حِفْظًا عيسى بن أبي بكر بن أيوب». فقال له سبط ابنُ الجوزي يومًا: «ربما يُؤخذ هذا عليك؛ لأنَّ أكبر مدرِّس في الشَّام يحفظ القُدُوري مع تفرُّغه، وأنت مشغولٌ بتدبير الممالك تكتب خطَّك على عشر مجلدات أنْ قد حفظتَها! فأجابه المعظَّم: ليس الاعتبار بالألفاظ، وإنما الاعتبارُ بالمعاني، سَلُوني عن جميع مسائلها، فإنْ قصَّرتُ كان الصَّحيح معكم، وإلا فسلِّمُوا لي ما قلت»[٢].

ومن تآليف المعظَّم كتابُ «السَّهْم المُصيب في الرَّدِّ على الخطيب»، رَدَّ فيه على ما رواه الخطيبُ البغدادي في «تاريخه» عن جماعة من المحدِّثين من مطاعن على أبي حنيفة[٣]. وشَرَحَ «الجامع الكبير» في عِدَّة مجلَّدات بإعانة غيره[٤]. وكان يُعْطي لمن يحفظ نص «الجامع الكبير» مئة دينار[٥].

وعلى الشَّيخ جمال الدِّين الحَصِيري؛ شيخ المعظَّم، قرأ سبط ابن الجوزي «الجامع الصَّغير» للإمام محمد بن الحسن الشَّيْباني، و«مختصر القُدُوري»، وتنويهًا بمنزلته كتب له الحَصِيري خطَّه عليهما بالاعتراف له بفنون العلوم ومعرفة الأحاديث والمذاهب[٦].

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢١١).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٢١٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٥٩)، وتاج التراجم (١٧٢).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٩)، وفيه: «الجامع الكبير» للكرماني، وهو وهمٌ فاتني التنبيه عليه، فالجامع الكبير هو للإمام محمد بن الحسن الشيباني، كما هو معروف. وأما أبو الفضل عبد الرحمٰن بن محمد الكرماني، فله شرح عليه. ينظر: «تاج التراجم» (١٢٢، ١٨٩).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٩).

وقرأ على الفقيه الحنفي الوَرِع الزَّاهد شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم مصنَّفه «مقدِّمة في الفرائض»، و«الجامع الصَّغير»[(١)].

ولم يَرُق لأصحابه المقادسة انتقاله لمذهب أبي حنيفة، كما لم يَرُق لهم من قبلُ انتقال شيخه أبي اليُمْن الكِنْدي[(٢)]، فانتقده بعضُ الحنابلة بحدَّة على تحوُّله هذا، وجَبَهه أحدُهم ذات يوم، وهو على منبر وعظه بقوله: إذا كان الرَّجل كبيرًا ما يُرجع عنه إلا لعيبٍ ظهر له فيه، وأيُّ شيء ظهر لك في الإمام أحمد حتى رجعتَ عنه؟ فغضب سبط ابن الجوزي، وقال له: اسكت. فأجابه الرَّجل بهدوء: أما أنا فقد سكتُّ، وأما أنت فتكلَّم. فرام سبط ابن الجوزي الكلام، فأُرتج عليه، ونزل عن المنبر[(٣)].

ولم يخفِ الذَّهبي ـ وميله للحنابلة معروفٌ[(٤)] ـ انزعاجه من هذا الانتقال، فاغتمزه بأنه كان لأجل الدُّنيا[(٥)]. وكأنَّ الدُّنيا لم تكن مقبلة عليه قبل ذلك!

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١٦).

(٢) لم يكن سبط ابن الجوزي بِدْعًا في الانتقال عن مذهبه، فكذلك كان شيخه أبو اليُمْن الكِنْدي حنبليًّا من قبل، فانتقل حنفيًّا، ولم تشفع له منزلته عند المقادسة، فغمزه الموفق عبد الله ابن قدامة بذلك، وقال: «انتقل إلى مذهبه لأجل الدنيا». ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٥، ٣٨).
ومن قبله كان جدُّه أبو الفرج، لحسد الحنابلة له، يفكر بالانتقال عن مذهبه، ويقول: «والله لولا أحمد والوزير ابن هبيرة لانتقلت عن المذهب، فإني لو كنت حنفيًّا أو شافعيًّا لحملني القوم على رؤوسهم». ينظر: «مرآة الزمان» (٢١/ ٢٢٥).

(٣) ذيل مرآة الزمان (١/ ٤١).

(٤) المنهل الصافي (١٢/ ٢٣٣).

(٥) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨).
ودافع ابن تغري بردي عن انتقاله لمذهب أبي حنيفة، ردًّا على الذهبي، مجرِّدًا له من أسبابه، وأهمها صلته بالملك المعظم عيسى، بقوله: «أما قوله: انتقل حنفيًّا للدنيا، ليس بالقوي، فإن والده كان حنفيًّا، ونشأ هو ببغداد، فعلمه مؤدبه على مذهب جده أبي الفرج ابن الجوزي، فلما ترعرع وكبر وتفقه تبع الأصل، واستمر على مذهب والده قبل أن يلي الوظائف بسنين، وميل الحافظ الذهبي إلى سادة الحنابلة معروف». ينظر: «المنهل الصافي» (١٢/ ٢٣٣).

وحاول قُطْب الدِّين اليُونيني، وهو الحنبلي، أن يخفِّفَ من وقع هذا الانتقال على الحنابلة، فقال: «وعندي أنه لم ينتقلْ عن مذهبه إلا في الصُّورة الظَّاهرة، والله أعلم»[١].

وقوله هذا لا يُسعده دليل، ولا تؤيِّده الوقائع؛ فإنَّ سبط ابن الجوزي لتأكيد انتقاله إلى مذهب أبي حنيفة انتقالًا لا رُجْعى عنه، شرع في تأليف كتاب مختصر للانتصار له، سمَّاه «الانتصار والترجيح للمذهب الصَّحيح»[٢]، وقدَّمه للمعظَّم عيسى[٣]، ثم توالتْ من بعدُ تآليفه في بسط أدلته وشرح مذهبه[٤]، ومنها كتابٌ أفرده في «مناقب أبي حنيفة»[٥].

* * *

وعلتْ منزلةُ سبط ابن الجوزي في الوعظ، وانتهتْ إليه رياستُه[٦]، وصار أوحدَ زمانه فيه، فما إن يجلس على منبره حتى تتعلَّق به الأبصار[٧]، وترقَّ لرؤيته القلوب، وتذرِفَ لسماع كلامه العُيون، حتى إنَّه كان أحيانًا يتكلَّمُ في مجلس وعظه بكلماتٍ يسيرة أو يُنشد البيتَ الواحد من الشِّعْر، فيحصل لأهل المجلس من الخُشوع والاضطراب والبكاء ما لا مزيد عليه.

وغدت مجالسه نزهة القلوب والأبصار يحضرها الصُّلحاء والعُلماء والملوك والأمراء والوزراء وغيرهم[٨]، وفي مقدِّمتهم الملك المعظَّم عيسى[٩]، وكان يُبكِّر في حضورها، ويقعدُ عند المنبر قرب باب المشهد بين

---

(١) ذيل مرآة الزمان (١/ ٤١).

(٢) ينظر تفصيل أبوابه (ص ٢٨١) من هذا الكتاب.

(٣) الانتصار والترجيح (٥).

(٤) ينظر على سبيل المثال «مرآة الزمان» (١٦/ ٢٨٢، ١٩/ ١٩٥، ٢٠/ ٢٠، ٢١/ ٢٧٨)، ومؤلفات سبط ابن الجوزي (ص ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٦) من هذا الكتاب.

(٥) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧).

(٧) طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٢٣٩).

(٨) ذيل مرآة الزمان (١/ ٤٠).

(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ١٠١).

العامَّة[1]. ويحضرها كذلك: شيخه جمال الدِّين الحَصِيري[2]، والقاضي شمس الدِّين يحيى بن هبة الله ابن سني الدَّوْلة، وقد غدا من أصدقائه[3]. والشيخ الزَّاهد العابد طيّ المِصْري، وكان سبط ابن الجوزي يطرب له، ويقول: «كانت مجالسي تطيبُ بحضوره، وكانت عنده أيام سروره»[4]. وأمير الحاجِّ علي ابن السَّلَّار، وكان غزيرَ الدَّمعة، لا ينقطع عن البُكاء طوال المجلس[5]، وصديقه تاج الدِّين عبد الله بن شيخ الشيوخ[6].

ويحدِّثنا سِبْط ابن الجوزي عن مجلسٍ من تلك المجالس التي عَقَدَها سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م في جامع دمشق، وهو في نحو التَّاسعة والعشرين من عمره، بشيءٍ من الزَّهو، فيقول: «حَضَرَ مجلسي القُضاة والأشراف والأعيان، والملكُ المعظَّم عيسى، وشيوخُنا جمال الدِّين الحَصِيري، وتاجُ الدِّين الكِنْدي، والقاضي شمس الدِّين بن سَني الدَّولة. وكان مجلسًا عظيمًا، احتوى على عشرة آلاف وزيادة على باب مشهد عليٍّ عليه السلام. وكان بمجلسي قارئان، أحدُهما يُقال له النَّجيب البغدادي، إذا قرأ طربنا، والآخر يقال له الشَّرف ابن ميّ، إذا قرأ أزعجنا. فحكيتُ للجماعة حكاية الجاريتين المغنيتين ـ وكان سمعها من جدِّه أبي الفرج ابن الجوزي، وهي أنَّه كان لبعضهم جاريتان مغنيتان، إحداهما تغني طيِّبًا، والأخرى مُزْعِجًا، فكان إذا غنَّت الطيبة الصوت يمزِّق ثيابه، وإذا غنَّت القبيحة الصَّوت يقعد يَخِيْط ما مزَّق ـ وكان تاج الدِّين الكِنْدي قاعدًا في القُبَّة التي في وسط المجلس، فصاح: يا بُني، كلُّنا اليوم نَخِيط»[7].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٠).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٠١).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٧).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢٨).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٣).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٤).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ١٠١)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٦٠).

ويصفُ أبو شامة مجالسَ وعظه بأنَّها من محاسن الدُّنيا ولذَّاتها[1]، وقد حضرها مِرارًا في صِغَره وكِبَره. وبتصوير ينبضُ بالحياة، يحكي لنا عن مجلسٍ من تلك المجالس في جامع دمشق، فيقول: «كان يزدحمُ في مجلسه ما لا يُحصى من الخلق رجالًا ونساء ـ والنِّساء بمعزلٍ عن الرِّجال ـ وكان لا يفارق أحدٌ مجلسه إذا انفضَّ إلا وشوقه مستمرٌّ إلى عودته في الأسبوع الآخر، فإنه كان يجلس كلَّ سبت، وتُبسط السَّجَّادات والحُصُر والبُسُط في كلِّ المواضع القريبة من المِنْبر ما بينه وبين القُبَّة في يوم الجُمُعة، ويبيتُ النَّاس كلَّ سبت حِلَقًا يقرؤون القرآن بالشُّموع، كلُّ ذلك فرحًا بالمجلس، ومسابقة إلى الأماكن. وعادة الدِّمشقيين التفرُّج في أيام السبت، ويبطِّلُون عن أشغالهم بالمدينة، وينقطعون في بساتينهم، وكانوا لا يفوتون حضور المجلس. ثم ينصرفون منه إلى فُرَجهم، فلا ينقضي يومهم إلا بالتذاكر لما وقع فيه من المحاسن وإنشاد الأشعار، والتحدُّث بمن أسلم فيه أو تاب، وإيراد ما كان فيه من سؤال وجواب»[2].

ـ ٣ ـ

وتتعزَّز مع الأيام صلته بالملك المعظَّم عيسى، ولم تخلُ صِلَته به من التزلُّف إليه، فقد قال له يومًا، وكان المعظَّم لا يقيمُ وزن الشِّعْر: فيكَ ضَرْبٌ من النُّبوة ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ [يس: ٦٩][3]. وبادله المعظَّم قُرْبًا بقرب؛ حتى كان يخصُّه بالقيام له دون غيره من العُلماء إذا دخل عليه مجلسه[4]، وبات لا يكادُ يفارقه.

ويعزم المعظَّم على الحجِّ سنة ٦١١هـ/ ١٢١٥م مع جماعةٍ من خواصِّ أمرائه: عز الدِّين أيبك، وعماد الدِّين داود بن موسك، والظَّهير غازي بن

---

(١) المذيل على الروضتين (١/ ١٦٠).
(٢) المذيل على الروضتين (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).
(٣) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٨٥). (٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٣٣).

سُنْقُر الحلبي[1]، وهم من أعزِّ أصدقاء سبط ابن الجوزي كذلك[2]، فيرافقهم إلى الكَرَك[3]، ويقيم فيها منتظرًا أوبة المعظم. وما إن يعلم بعودته حتى يخرج مُسْرعًا إلى لقائه على غدير الطَّرْفاء في البرية مع جماعةٍ من الأعيان والأمراء والفُقراء والفُقهاء. ويبادِلُه المعظَّم حُبًّا بحبٍّ، وقد بلغ من شوقه إليه، أنه حين رآه ترجَّل عن ناقته، وعانقه، ولم يلتفت إلى أحدٍ سواه. وشرع يحكي له صفة حجِّه وما فعل[4]، ذاكرًا له أنَّه أحرم قارنًا، وأتى بجميعِ مناسك الحجِّ على مذهب أبي حنيفة. ويروعُ سبط ابن الجوزي ما يراه في كِتْف المعظَّم، وقد أكلته الشَّمس وانقشط، فيسأله: ما هذا؟ فيقول له المعظَّم: ما غطَّيْتُ رأسي ولا كتفي مُدَّة ثلاثة عشر يومًا[5]. ثم يسوقا معًا إلى زَيْزاء؛ وهي من قرى البلقاء الكبيرة، وبها يقام سوقٌ للحُجَّاج[6]. وكان الملك العادل نازلًا على خربة اللُّصوص، فيعتذر المعظم إلى صاحبه عن اضطراره لفِراقه، قائلًا له: أريد أبغته حتى لا يلتقيني أحد. ويفترق الصَّاحبان، فيرجع سبط ابن الجوزي إلى دمشق، ويسير المعظم إلى أبيه للاجتماع به[7].

ويصلُ المعظَّم مع أبيه العادل إلى دمشق في **٢٣** المحرم سنة **٦١٢**هـ/ **٢٤** أيار **١٢١٥**م[8]، وفي مجلس وعظه بجامع دمشق يُنشد سبط ابنُ الجوزي قصيدةً له في مدح المعظَّم، يقول فيها:

---

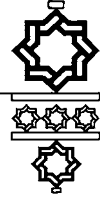
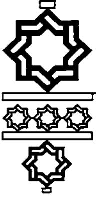
(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٠).
(٢) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ١٩٨، ٢٦٥، ٣٠٤، ٤٠٠).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠١)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٥٠).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠١).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٥١)، ويعقب أبو شامة بقوله: «لم تكن له حاجة إلى كشف كتفه، فإنه لا يُستحبُّ إلا حالة الاضطباع في طواف القدوم، والله أعلم».
(٦) معجم البلدان (٣/ ١٦٣).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠١).
(٨) المذيل على الروضتين (١/ ٢٥٥).

كـريـمٌ إذا مـا جئت تـرجو أيـاديًا ... له فاضَ من قبل السُّؤال غزيرُها
فمـا تُدْرك الأشعارُ بعضَ صفاتِهِ ... ولـو حـاكـهـا بـشَّـارُهـا وجـريـرُهـا
لِيَهْنِك يا عيسى مساع تضاعفَتْ ... لـديـكَ بـإجـزاءِ الإلٰـه أجـورُهـا
سبقتَ بها الزُّهَّاد إذ طُويتْ بها ... لك الأرضُ في شِبْرٍ وهانَ عسيرُها
وقفتَ بها للحجِّ وِقْفَتَك التي ... وقفتَ ونارُ الحربِ بادٍ سعيرُها
وكنتَ إمامَ المَوْقِفَيْن عظيمةٌ ... مساعيكَ عند اللَّه جمٌّ غفيرُها
فلا زلتَ تكسو الدِّين حُسْنًا ورَوْنَقًا ... وتُـوضـحُ مـخـفـيَّـاتِـهِ وتـنـيـرُهـا
ودانت لك الدُّنيا ودمتَ مليكَها ... ولا رجـعـتْ إلَّا إلـيـك أمـورُهـا

ولما بلغ سبط ابنُ الجوزي قوله: «وكنت إمام الموقفين»، وعنى بهما موقف الجهاد، وموقف الحجِّ، بكى المعظم، وقال: «من أنا حتى يكون لي مساع؟». وزاد بكاؤه. وخاف سبط ابن الجوزي عليه أن يُفتضح بين العامَّة، فقال له: «لا ينسى الله لك مواقفك في رِضائه، وسهرك اللَّيالي في جهاد أعدائِه»(١).



(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

صِلاتُه مع ملوكِ بني أيوب

ـ ١ ـ

ولم تقتصر صِلته على الملك المعظَّم عيسى، بل تعدَّت إلى أخيه الأشرف موسى، وكان حاكمًا على البلاد الشَّرقية: الرَّقة وحرَّان وخِلاط وميَّافارِقين والرُّها[١]، فنراه عنده في خِلاط سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وربما وصل إليها في أول شوال من ذلك العام، وغدا مقرَّبًا منه، يجلس معه في منظرة قلعتها، ويحدِّثه الأشرف عن بعض ذكرياته وما جرى له[٢]. ولم يطل مقامه عنده، إذ إنَّه لثقته فيه، يرسله في رسالة كتبها بخطِّه إلى الظَّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدِّين بن أيوب؛ صاحب حلب، في قضايا لا يطَّلعُ عليها كاتبٌ[٣].

ويصل سبط ابن الجوزي إلى حلب، ويلتقي الظَّاهر غازي لقاءه الأول، ويؤدِّي إليه الرِّسالة، ويتجاذبان أطراف الحديث، ويعرض لهما فيه ذكر الملك المعظَّم عيسى، فيُبْدي له الظَّاهر احترامه له، وخشيته منه، قائلًا: «والله هو واسطة العقد، وعين القِلادة، ولولا همَّتُه وأنه مشغولٌ بجهاد الأعداء لما قرَّ لي بحلب قرار»[٤].

وقد ترك الظَّاهر غازي انطباعًا حَسَنًا في نفس سبط ابن الجوزي، فكتبَ عنه: «كان قُعْدُدًا بالملك، مهيبًا، له سياسة وفِطْنة، ودولته معمورةٌ

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٠، ٣٣١). (٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٣).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٣)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٦٨).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٢).

بالعلماء والفضلاء، مزينة بالملوك والأمراء، وكان مُحْسنًا إلى الرَّعية والوافدين عليه.. يزور الصَّالحين ويعتقدهم، ويغيثُ الملهوفين ويرفدهم، وكان يتوقَّد ذكاءً وفِطْنة، سريعَ الإدراك»[١].

وبحضور الظَّاهر غازي، يعقد سبط ابن الجوزي مجلسًا للوعظ في دار العدل يوم الأحد ٢٤ شوال سنة ٦١٢هـ/ ١٥ شباط ١٢١٦م[٢]. ويقصُّ علينا عما جرى في هذا المجلس بقوله: «كان بحلب فقيرٌ يحضُرُ مجالسي قبل ذلك، وكان ذلك الفقير يقومُ في المجلس ويصيح: واه، واه. فيزعج الحاضرين، وكان صالحًا، والظَّاهر أنه تغيَّر حاله فيما بعد ذلك. فلمَّا جلستُ ـ أي: في هذا المجلس ـ بقي ذلك الفقير يحترقُ، ويقول: كيف أعمل. ويردِّدُها، فقال الظَّاهر: قدِّمُوه إلى عندي. فقدَّموه، فقال له: هذا الذي يقوله الشَّيخ ما هو مليحٌ؟ قال: بلى. قال: فإنْ أردتَ أن تصيح صيح. فعجب الحاضرون.

وحضر في ذلك المجلس رجلٌ أعجمي، يقال له أبو بكر النَّصْبة، وكان صالحًا، وكان يحمل عصا آبنوس، فطابتْ قلوبُ الجماعة في ذلك اليوم، وبكوا، فقام النصبة، وجاء إلى الظاهر، وقال له: أنت فرعون، ما تتحرَّك؟ وثار في وجه النصبة مثل التفاحتين، وخرج[٣].

ولما انقضى المجلس، نزلتُ من المنبر، فقام الظاهر والتقاني، وأجلسني إلى جانبه، ودفع إليَّ بطاقة جاءته من حارِم تخبرُه أنَّ ابن لاون أخذ أنطاكية من الفرنج في هذا اليوم»[٤].

ويحضُرُ سبط ابن الجوزي إلى دار العدل يوم الخميس، لا ليعظ في مرَّته هذه، بل ليشهد مجلس حُكْم الظَّاهر، وفَصْله في القضايا التي تعرض عليه، وقد جيء إليه في ذلك اليوم بامرأةٍ كذبت على شخص، واعترفتْ

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٢).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٣).
(٣) ثم مات بعد ثلاثة أيام. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢١٣).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٣).

بالكذب، فقال الظاهر لابن شدَّاد القاضي[(١)]: ما يجبُ عليها؟ قال القاضي: التأديب. فقال الظاهر: تُضرب بالدِّرَّة شريعة، ويقطع لسانها سياسة. وهنا يتدخل سبط ابن الجوزي، وقد ساءه هذا التفريق بين الشريعة والسياسة، قائلًا: الشريعة هي السِّياسة الكاملة، وما عداها يكون تعاطيًا عليها. فيطرق الظاهر غازي، ولا يحير جوابًا. وتؤدَّب المرأة، وتَسْلم من قطع اللِّسان[(٢)].

* * *

ويرجع سبط ابن الجوزي إلى خِلاط، حيث يقيمُ الأشرف موسى، لينهي إليه جواب الظَّاهر عن رسالته[(٣)]. وفي طريقه يمرُّ بالرُّها، ويلتقي فيها شهاب الدِّين غازي بن العادل، ويبدو أن سبط ابن الجوزي أنس إليه، لِمَا رأى من لُطفه، وحِفْظه للأشعار، وعُذوبة حديثه وحكاياته، وإحسانه إليه. ويعقد كعادته مجلسًا للوعظ في جامعها، ويحضره شهاب الدِّين غازي، وكان يومًا مشهودًا على حدِّ وصفه[(٤)].

ولعله عرَّج منها على مارِدِين، وزار قلعتها، وتحقَّق أن فيها عين ماءٍ واحدة، لا كما كان يشاع أن فيها من العيون العَذْبة عشر أَعْيُن[(٥)].

ـ ٢ ـ

ويصل إلى خِلاط ربما في شهر ربيع الأوَّل سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م[(٦)]،

---

(١) هو بهاء الدين يوسف بن رافع، المتوفى بحلب سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م، صاحب كتاب «النوادر السُّلطانية» في سيرة صلاح الدِّين، وهو كتابٌ مشهور متداول، واستقصيت مصادر ترجمته في تحقيقي لكتاب «المذيل على الروضتين» (٢/ ٣٢).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٣)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٧).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٣).

(٥) مرآة الزمان (١/ ٩٥، ٩٦).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٧)، وينظر: «الجليس الصالح» (٢٨٢)، فقد ذكر فيه سبط ابن الجوزي أنه أقام في خدمة الأشرف موسى أربعة أشهر؛ يعني: بعد عودته من =

وقد امتلأ إعجابًا بما وصل إليه من منزلة. ويبدو أنَّ الأشرف موسى كان ينتظرُ قدومه بلهفة، إذ كان الخليفة النَّاصر لدين الله قد أظهر سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م ـ تقرُّبًا للعلماء والعامَّة ـ الإجازة التي أُخذت له من الشُّيوخ، وذكرهم في كتابه «روح العارفين»، ودفع إلى أهل كلٍّ مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة إجازة عليها مكتوبًا بخطِّه: أجزنا لهم ما سألوه على شرط الإجازة الصحيحة، وكتبه العبدُ الفقير إلى الله تعالى أبو العباس أحمد أمير المؤمنين[(١)].

ووصلت للأشرف نسخةٌ من هذا الكتاب، بعث بها إليه الخليفة، فرغب الأشرف في شرحه. ولم يستطع سبط ابن الجوزي، وهو يسوق هذا الخبر أن يطامِنَ من زَهْوه، فهو يذكر أن الأشرف عَرَض الكتابَ على العلماء الذين في خدمته، وأمرهم أن يشرحوه، فلم يقدروا على شرح حديث واحد، فأشار عليه حينئذٍ بشرحه، وتبيين ما فيه من الفوائد، فاستجابَ له، وشرحه[(٢)].

ولعلَّ سبط ابن الجوزي انتهى في تلك الأيام من تأليف كتابه «الجليس الصَّالح والأنيس النَّاصح»[(٣)]، ليكون هديته للملك الأشرف

= حلب، وتكون عندئذٍ نهايتها في شعبان عند رحيله إلى حرَّان. ينظر: (ص ٨٥، ٨٦) من هذا الكتاب.

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧١ ـ ١٧٢)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٠٩).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧١، ٢٠٧).

ثم أوقف هذا الشرح فيما بعد بدار الحديث الأشرفية بدمشق. ينظر: «المذيل على الروضتين» (١/ ٢٦٥).

وكأن قطب الدين اليونيني لم يعجبه هذا الادِّعاء من سبط ابن الجوزي، فاختصر هذا الخبر اختصارًا مختزلًا. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٠٧).

(٣) يعني بعد عودته من حلب، فقد أشار فيه إلى حكم الظاهر غازي بقطع لسان المرأة سياسة دون أن يسميه، وقوله له: إن الشريعة هي السياسة الكاملة. ينظر: «الجليس الصالح» (٥٥)، و(ص ٧٩ ـ ٨٠) من هذا الكتاب.

موسى[١]، ساردًا فيه ما ينبغي للأمير معرفته من سِيَر الولاة وأخبار الصَّالحين، وما تقومُ به الممالك من العدل وذمِّ الظلم، وافتتحه في الباب الأول منه[٢] في ذكر مولد الأشرف ومنشئه[٣]، ولم يتوسَّعْ فيه ليذكر طَرَفًا من سيرته وأخباره لعجزه ـ كما ذكر ـ عن حَصْر مناقبه، وقصوره عن إدراك مراتبه، ولأنَّ العُلماء من المؤرِّخين يتطيَّرون بذكر سيرة الملك في حياته[٤].

ويعقد سبط ابن الجوزي بقلعة خلاط مجالس للوعظ، يحضرها الأشرف موسى، ويفيضُ دمعه تأثرًا بما يسمع[٥].

ولربما قال في تلك المجالس من المواعظ ما خطَّ بعضها في كتابه «الجليس الصالح»، فممَّا كتبه فيه: «استحلى أربابُ الولاية الولايات، فلمَّا انقضى بالصَّرْف زمن التَّصَرُّف جلسوا في عزاء الغَمِّ، فلو رأيتَهم عند الموت وقد ذهب خُمار اللَّذَّة، وجاءتْ سِياط الحُدود، ثم رُدُّوا إلى حبس القبور، فنكَّل بهم الموكَّل، ثم رُدُّوا إلى صحراء القيامة، فهجَّرَتْ عليهم شمسُ التوبيخ حتى سال وادي الأسى من عرق الأسف، ثم الطَّامة الكبرى ما يَلْقَوْنَ من سجن، فلو رأيت نادمهم يقول: يا حسرتَى على ما فرَّطْتُ في جَنْب الله[٦]. ومدَّ يدَه إلى أملٍ لا يناله: لو أنَّ لي كَرَّة[٧]، يا ليتني قدَّمْتُ لحياتي[٨]».

---

(١) الجليس الصالح (٢٧).

(٢) ينظر: تفصيل أبوابه (ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤) من هذا الكتاب.

(٣) الجليس الصالح (٢٨، ٣٣ ـ ٣٤). (٤) الجليس الصالح (٢٨١).

(٥) المذيل على الروضتين (١/ ٢٦٥)، وهذا الخبر لم يذكره قطب الدين اليونيني في اختصاره للمرآة.

(٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

(٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨].

(٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

وقوله: «يا أَسَفَا للظَّلمة الفُجَّار، يُخطئون على أنفسهم باللَّيل والنَّهار، والشَّهوات تفنى وتبقى الأوزار، كم ظالم تعدَّى وجار، فما راعى الأهل والجار، بينا هو يعقِدُ عقدَ الإصرار، نزل به الموتُ فحلَّ من حُلَّته الإزار، ما صَحِبَه سوى الكَفَن إلى بيت البِلى والعَفن»(١).

ويقدم على سبط ابن الجوزي، وهو بخِلاط، النِّظام بن أبي الحديد، ومعه نعلٌ(٢) يقال: إنها نعلُ النبي ﷺ(٣)، فيعرِّف الأشرف بقدومه، فلمَّا دخل عليه، ومعه النعل، قام الأشرف قائمًا، ونزل من الإيوان، وأخذ النعل، فقبَّلها، ووضعها على عينيه، وبكى، وخلع على النظام، وأعطاه نفقة، وأجرى عليه جراية، وقال: تكون في الصُّحْبة نتبرَّك بها(٤).

ويبلغ سبط ابنَ الجوزي، وهو هناك، نبأُ وفاة الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين بحلب ليلة الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٦١٣هـ/ ٤ تشرين الأول ١٢١٦م(٥)، وله نحو خمسٍ وأربعين سنة(٦).

ويتولَّى بعده ولده العزيز محمد، وأتابكه المدبِّر لدولته شهاب الدِّين طُغْريل الخادم(٧)؛ صديقه الزَّاهد(٨)، فيحفظ ملكه بحسن تدبيره(٩)، ويطهِّرُ حلب من الفجور والفِسْق، والخمور والمكُوس، حتى إن الأشرف يقول

---

(١) الجليس الصالح (٨٤). (٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٣).
(٣) مرآة الزمان (١٨/ ٣٢٣).
(٤) وبقي النظام بخلاط بعد رحيل سبط ابن الجوزي عنها، واتفق أن مات بها، وأوصى بالنعل للأشرف، فأودعها فيما بعد بدار الحديث الأشرفية بدمشق. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٥٣).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٣)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٦٩).
(٦) ولد الظاهر غازي بالقاهرة سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢١٢).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٣ ـ ٢١٤)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٦٩).
(٨) ينظر: (ص ٣٢، ٤٨) من هذا الكتاب. (٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٤).

لسبط ابن الجوزي عنه فيما بعد: «إن كان لله في الأرض وليٌّ، فهو هذا الخادم الذي فعل ما عَجَزَ عنه الفحول»[1].

* * *

وبأسى يحدِّثنا سبط ابنُ الجوزي عن لقائه بخِلاط الضِّياءَ بن الزَّرَّاد، وهو دمشقيٌّ، عالمٌ بالقراءات السَّبْع، وما جرَّته عليه صحبتُه للأشرف موسى من زلَّاتٍ، فيقول: «كان صيِّتًا، طيب النغمة، وكان فقيرًا، سافر من دمشق إلى ميَّافارِقين، واتَّصل بشهاب الدِّين غازي بن الملك العادل، وأقام عنده. ثم اتصل بالملك الأشرف موسى.. وكان يتردَّدُ إلينا، ويقرأ طيِّبًا صحيحًا.. جاءني يومًا وهو نادمٌ حزين يبكي، فسألتُه عن حاله، فقال: البارحة حضرتُ عند الأشرف، وناولني قَدَحًا من الخمر، فامتنعتُ من شربه، والأشرفُ ساكتٌ ينظر إليَّ. وما زالوا بي حتى شربتُه، فلمَّا حصل في جوفي عضَّ الأشرفُ على يده بحيث كاد أن يقطع أصابعه، وقال لي: والك[2] فعلتها! حَطَّيْتَ الخمر على مئة وأربع عشرة سورة! والله لو خُيِّرتُ بين أن أحفظ القرآن كما تحفظه، وأدع مُلْكي لاخترتُ حفظ القرآن».

ثم يعقب سبط ابن الجوزي على ما آل إليه حاله، بقوله: «ثم تُركت حُرْمته بعد ذلك»[3]. والغريبُ حقًّا أنه لا يُعقب على ما فعله الأشرف من مناولته الخمر، ولا على ما فعله جلساؤه من الإلحاح عليه حتى شربه!

ونتساءل: هل ألمَّ سبط ابن الجوزي في تلك السنة، وهو يتجوَّل في بلاد الأشرف، بزيارة قَيْسارية من بلاد سلاجقة الرُّوم؟ فقد أشار إلينا أنه وقفَ هناك قرب جبل عَسِيْب على قبر الشَّاعر الجاهلي امرئ القيس، وهو

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢٧).

(٢) كلمة عامية، لا تزال مستعملة في الشام، تعني تنبيه المخاطب مع زجره، وفصيحها: ويلٌ لك.

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٧٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٥٨).

أقرب إلى الصِّحَّة، كما يقول؛ لأنه مات بالرُّوم[1]. تساؤلٌ يتركنا حيارى في إجابته؛ لأنه اكتفى بتلك الإشارة، ولم يزد.

* * *

ويرى المعظَّم في وفاة الظاهر غازي فرصة للاستيلاء على حلب، وضمِّها إلى مملكته دمشق، ويبدو أن مراسلاتٍ تبادلها مع أخيه الأشرف في هذا الشأن[2].

وينزل الأشرف من خِلاط إلى حرَّان في شعبان سنة **٦١٣**هـ/ تشرين الثاني **١٢١٦**م، ويرافقه سبط ابن الجوزي. فيسأله الأشرف أن يجلس للوعظ في جامعها، وتضرب للأشرف خيمة كبيرة في الجامع فيجلس فيها، ومعه شيخُ حرَّان وخطيبُها فخر الدِّين ابن تيمية[3]؛ شيخ سبط ابن الجوزي[4]. وينطلق سبط ابن الجوزي كعادته بكلماته المُؤثرة التي تهزُّ الحاضرين، وقبيل انقضاء المجلس يكتبُ له أهل حرَّان رِقاعًا كثيرة فيها أسئلة ليجيب عنها، فيجمعها، وبذكاء مُرْهف، مراعيًا حساسية الشيخ فخر الدِّين ابن تيمية، يعتذرُ عن الإجابة عنها، قائلًا: «اتركوا هذه إلى يوم مجلس شيخكم يجيبُ عنها، فهو يطوِّل روحه عليكم، أما هذا اليوم فالوقت ما يحتمل». ويُعجب الأشرف بسرعة بديهته، وحُسْن تصرفه، وينفضُّ المجلس[5].

ويلتقي سبط ابن الجوزي بحرَّان المجدَ البَهْنسي، وكان وزيرًا للأشرف، ثم عزله واستأصله، وأخذ جميع ماله، فيبثُّه المجدُ بعض شجونه. وكان المجدُ حَسَنَ المحضر، عاقلًا ـ كما وصفه ـ ولم يكن فيه ما يُعاب إلا استهتاره، والله يعفو عنه[6].

---

(١) مرآة الزمان (١/ ٨٦)، وينظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٢١).

(٢) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٠٧).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٧).

(٤) تنظر: (ص ٣٢) من هذا الكتاب.

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٧)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٦٥).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

ويجدُ سبط ابنُ الجوزي من الأشرف موسى إحسانًا كثيرًا، ويتفضَّل عليه فَضْلًا غزيرًا. ويفوِّض إليه ـ ربما رغبة بإبقائه معه ـ جميعَ الخوانك التي ببلاده شرقًا وغربًا، وبُعْدًا وقربًا، على حدِّ تعبيره[(١)]. بيد أنَّ سبط ابن الجوزي لم يكن راغبًا في الإقامة مع الأشرف، فيقول له ذات يوم: «لا بُدَّ لي في هذه السنة من شيئين: الحج على بغداد، والثاني الاعتكاف بالرَّقة». فينزل الأشرف على رغبته، ويقول له: «مبارك»[(٢)].

ويخرج سبط ابن الجوزي مع أصحابٍ له من حرَّان في آخر شعبان/ كانون الأول قاصدًا الرَّقَّة، وبينما هو في الطريق، وقد قرب منها، يلوحُ له من بعيد نجابون بينهم رجلٌ عليه بغلطاق أحمر، فيقع في قلبه أنَّه المعظَّم عيسى، فيلتفتُ إلى أصحابه قائلًا: هذه شمائل الملك المعظم. فيقولون له متعجِّبين: المعظَّم في دمشق، أيش جاء به إلى ها هنا؟ فلمَّا قرب النجابون منهم إذا به المعظَّم، وقد أعيت ناقته. فينزلُ عنها، ويتحدَّث مع سبط ابن الجوزي، ويأكل قليلًا من زاده، ويعطيه ناقته، ويأخذ فرسه، ويسأله عن الأشرف أين هو؟ فيجيبه السبط: في الزَّرَّاعة، وهي في نواحي الرَّقة، فيسوق إليه المعظم، ويفاوضه في أمر حلب. وكان الأشرف قد حلف لشهاب الدِّين طُغْريل الخادم، وأنه أتابك العزيز محمد ولد الظاهر. فيشقُّ على المعظم امتناع أخيه عن مساعدته، ويسكتُ على مضض.

ويقدم الأخوان المعظم والأشرف إلى الرقة، ويدخلان على سبط ابن الجوزي في معتكفه. ثم يرجع المعظَّم إلى دمشق[(٣)].

وفي مُدَّة إقامته في خانكاه الرَّقَّة معتكفًا يختلف إليه من أهلها جمال الدِّين بن جرير، وكان له بستانٌ ومُلْك يسير يعيش منه[(٤)].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٢).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٧).
(٣) المصدر السالف.
(٤) ثم إن ابن جرير ما زال يتوصل إلى الأشرف حتى استوزره بدمشق. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٦٢)، و(ص ١٥٥) من هذا الكتاب.

ويتمُّ الأشرف في أثناء ذلك تجهيز سبط ابن الجوزي إلى الحَجِّ، ويعمل له سبيلًا مثل سبيله، فيغادر الرَّقة متوجِّهًا إلى بغداد[1]، عارفًا بإحسان الأشرف إليه وجميله[2]، تاركًا في نفسه أطيبَ الأثر. وقد عبَّر عنه في الأوراق الأخيرة من كتابه «الجليس الصَّالح» بقوله: «لقد شاهدتُ من مكارم أخلاقه ما لو أعارَتْني خُطَب الزَّمان ألسنتها في وصف فضائله التي اتَّصلتْ اتِّصالَ السُّعود، وانتظمتْ انتظامَ العُقود، لَمَا كنتُ إلَّا عاجزًا عن الغرض المقصود»[3].

وفي طريقه إلى بغداد يأتيه نعي شيخه تاج الدِّين أبي اليُمْن الكِنْدي، وأنه توفي يوم الإثنين ٦ شوال سنة ٦١٣هـ/١٦ كانون الثاني ١٢١٧م، وصُلِّيَ عليه بجامع دمشق، وحُمل إلى قاسيون، فدُفن به، ولم يتخلَّف عن جِنازته أحد، وكان قد بلغ من العمر نحو ثلاثٍ وتسعين سنة[4].

ـ ٣ ـ

ويرجع سبط ابنُ الجوزي من الحجِّ في المحرم سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، سالكًا طريق تبوك والعُلا، متَّجهًا لزيارة القُدْس الشَّريف، ومدينة الخليل، حيثُ مقام أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام، ليجمع ـ كما جرتِ العادةُ في ذلك العصر ـ بين زيارته وزيارة المصطفى ﷺ، عملًا بالحديث الشَّائع: «**من زارني وزار أبي إبراهيم في عامٍ واحد ضَمِنْتُ له الجنَّة**»[5]، وهو حديثٌ باطل موضوع[6]، ومع ذلك رأى العمل به، معلِّلًا ذلك بقوله: «وإن لم يتَّفق على نقل هذا الحديث الثِّقاتُ، فالأعمال بالنِّيَّات»[7].

وكان منذ إقامته بدمشق دائمَ التَّردُّد إلى القدس كلما سَنَحَ له الوقت،

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٧)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٢).

(٣) الجليس الصالح (٢٨٢).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٧٥).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٨).

(٦) تنزيه الشريعة (٢/ ١٧٦).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٠٨)، وفي موضع آخر، قال: فيه للمحدثين نظر. ينظر: «مرآة الزمان» (١/ ٤٢٣).

ويعقد فيه مجالس للوعظ، وممَّن كان يحضر مجالسه تلك الملك المعظم حين يلمُّ به[1]، والأمير بدر الدِّين محمد بن أبي القاسم الهَكَّاري؛ وهو من أكابر أمرائه[2]. وصديقه الشَّيخ الوَرِع عبد الله الأرمني العابد، وكان جَوَادًا سَمْحًا لطيفًا، وله مجاهداتٌ ورياضات، وعباداتٌ وسياحات. وكان سبط ابن الجوزي يزوره في زاويته، وممَّا جرى معه في إحدى زياراته له، ما حدَّثنا به قائلًا: «اتَّفق أنني يوم عيد الفِطْر أكلتُ سمكًا مالحًا، وصَعِدْتُ إلى زاويته، وقعدنا نتحدَّث، فجاءت الشَّمس عليَّ، وعطشتُ عطشًا شديدًا، وإلى جانبه إبريق، فيه ماءٌ بارد، فاستحييتُ أن أطلبه منه، فاحمرَّ وجهه، ومدَّ يدَه إلى الإبريق، فقال: اشربْ، فكم تكاشر»[3].

ولعله في القُدْس تعرَّف إلى كاتب الإنشاء البليغ عبد الرَّحيم بن علي ابن شِيْث، وكان يتولَّى ديوانها[4]، وصار بينهما مكاتبات[5]. ويبدو أن صُحبته له تعمَّقت حين قدم إلى دمشق، وصار كاتب السِّرِّ للملك المعظَّم[6]. وقد وصفه لنا بقوله: «كأنَّ الله تعالى جَمَعَ له الفَضْل والمروءة، والكَرَم والفُتوَّة، والإحسان إلى الخَلْق، ما قصده أحدٌ في شفاعة فردَّه خائبًا، وكان يمشي بنفسه مع النَّاس في قضاء حوائجهم»[7].

وفي دمشق يعودُ سبط ابن الجوزي إلى سيرته وشواغله، حتى إذا كان سَحَر يوم الأربعاء ١٦ ذي القعدة سنة ٦١٤هـ/ ١٥ شباط ١٢١٨م تصحو دمشق على نبأ وفاةِ عالمها وزاهدِها العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن علي المقدسي. وكان قد قضى يوم الثلاثاء صائمًا، وصلى المغرب في جامع دمشق، وأفطر في داره على شيءٍ يسير، وفي الليل جاءته سَكْرَة الموت،

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٠).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٦).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢٨، ٣٣١).
ولإعجاب سبط ابن الجوزي به طوَّل ترجمته في مرآته (٢٢/ ٣٢٨ ـ ٣٣٢).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٦).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٥).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٠١).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

فجعل يقول: يا حيُّ يا قيُّوم، يا ذا الجلال والإكرام حتى توفي. فغُسِّل وقت السَّحَر، وأخرجت جِنازته إلى جامع دمشق، فما وَسِعَ النَّاسَ الجامعُ، وصلَّى عليه العلَّامة الشيخ موفق الدِّين ابن قُدامة بعد جهد جهيد[1].

وهال سبط ابن الجوزي كثرةُ المشيِّعين، فراح يتأمَّل الناس من أعلى قاسيون، فإذا أوَّلهم عند مغارة الدَّم ورأس الجبل إلى الكهف، وآخرهم بباب الفراديس، ولو رمى الإنسان عليهم إبرة لما ضاعت، ولولا المبارز المعتمد وأصحابه لقطَّعوا أكفانه، وما وصل إلى الجبل إلى آخر النهار، فكان يومًا لم يُر في الإسلام مثلُه، على حدِّ تعبيره[2].

وفي الليل يأوي سبط ابن الجوزي إلى فراشه، وهو يتفكَّر في جِنازته، فيذكر أبياتًا أنشدها الإمام سُفْيان بنُ سعيد الثَّوري في منامٍ رُئي له بعد وفاته، ومنها هذا البيت النَّفيس:

نظرتُ إلى ربِّي كِفاحًا وقال لي   هنيئًا رضائي عنكَ يا ابنَ سعيدِ[3]

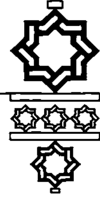
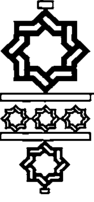
فيتمنَّى للعماد أن يرى ربَّه كما رآه سُفيان عند نزول حُفْرته، ويقصُّ علينا سبط ابن الجوزي ما جرى له في تلك الليلة، فيقول: «ونمتُ، فرأيتُ العمادَ في النَّوم، وعليه حُلَّة خَضراء، وعِمامة خضراء، وهو في مكانٍ متَّسع كأنَّه رَوْضة، وهو يرقى في دَرَج مرتفعة، فقلت: يا عماد الدِّين، كيف بِتَّ، فإنِّي والله مفكِّرٌ فيك؟ فنظر إليَّ، وتبسَّم على عادته، وقال:

رأيتُ إلهي حين أُنْزِلْتُ حُفْرتي   وفارقتُ أصحابي وأَهْلي وجِيْرَتي
فقال جُزِيْتَ الخيرَ عنِّي فإنَّني   رضيتُ فها عَفْوي لديك وَرَحْمتي
دأبتَ زمانًا تأمُلُ الفوز والرِّضا   فَوُقِّيْتَ نيراني ولُقِّيْتَ جَنَّتي

فانتبهت مرعوبًا، وكتبتُ الأبيات»[4].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢١)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٨٩).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢١).
(٣) تنظر الأبيات في: «مرآة الزمان» (١٢/ ٣٣٤).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

حملةُ الصَّليبيين على مِصْر ووفاةُ الملك العادل وانفراد المعظَّم بمملكة دمشق[1]

ـ ١ ـ

ومع حلول عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وهو عام انقضاءِ الهُدْنة مع الصَّليبيين[٢]، بدأتْ سفنهم تصل إلى عكَّا فيما عُرف بالحملة الصَّليبية الخامسة، وكان هدفها الرَّئيس هو غزو مِصْر[٣].

كان العادل في القاهرة[٤]، ويبدو أنَّه فوجئ حقًّا بوصول بعض القوات الصَّليبية إلى عكا، وهو المطمئنُّ إلى معاودة تجديد الهُدْنة، كما جرتِ العادة دائمًا في كلِّ مرَّة، فجمع على عَجَلٍ بعض قواته، وأغذَّ بها السَّير نحو الشَّام، فوصل إلى الرَّمْلة، ثم منها إلى لُدّ[٥].

وبلغ الصَّليبيين وصوله، فخرجوا من عكا، قاصدين لمحاربته[٦]. فسار العادل نحوهم، مسابقًا الصَّليبيين للوصول إلى أطراف البلاد ممَّا يلي عكا، ليحميها منهم[٧]، فوصل إلى نابُلُس[٨]، بيد أن الصَّليبيين كانوا أسرعَ

---

(١) كانت مملكة دمشق تمتد من جنوبي حمص، وحتى عريش مصر. ينظر: «مفرج الكروب» (٤/ ٢٠٩).

(٢) الحملة الصليبية الخامسة (١٤٠).

(٣) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٤).

(٤) الكامل (١٢/ ٣٢١).

(٥) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٤).

(٦) الحملة الصليبية الخامسة (١٦٩).

(٧) الكامل (١٢/ ٣٢١).

(٨) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٤).

منه فسبقوه، ونزلوا في عين جالوت[1]، فانتقل إلى بَيْسان، وأقام فيها، وتقدم نحوه الصَّليبيون[2].

فلما عاين العادل قُربهم منه، وقد هاله جمعُهم، وهو في قِلَّة من عسكره، آثر الانسحابَ من بَيْسان[3]، فارتفع إلى عَجْلون[4]، ووصل إلى الفوَّار، ثم عبر نهر الأردن[5]، صاعدًا عقبة فِيق، استعدادًا لمنع أي هجوم على دمشق[6]، ومضى ابنه المعظم عيسى، فنزل بين نابُلُس والقُدْس، على عقبة اللبن، خوفًا على القدس[7].

وكان أهل بَيْسان وما حولها من قرى قد اطمأنُّوا إلى نزول العادل بينهم، فلم يهربوا، فلمَّا رحل العادل عنهم قصدهم الصَّليبيون، وبذلوا فيهم السَّيف، ونهبوا البلاد والرَّساتيق، وأخذوا جميع غلَّاتها وحواصلها، وغَنِمُوا من المُسْلمين ما لا يحُصى كثرة، ونهبوا ما بين بَيْسان وبانياس، وبثُّوا السَّرايا في القرى، ووصلتْ غاراتهم إلى خِسْفِين ونَوَى، وقرى من بلاد السَّواد[8]، والنَّاس بين أيديهم جافلين.

وأرسل العادل إلى المبارز المعتمد؛ والي دمشق، بتحصينها، ونقل الغلَّات من داريا إلى القلعة، وتغريق أراضيها بالماء، فإنَّ الفرنج مظهرون قصدها[9]. ويبدو أن العادل كان يهيئ نفسه لدُخولها، فسار حتى نزل على رأس الماء، وبعث أثقاله ونساءه إلى بُصْرى[10]، وأرسل خزانته إلى دمشق[11]، فلمَّا شجَّعه المبارز المعتمد[12]، أمر العادلُ بردِّها إليه، وتقدَّم،

---

(١) المذيل على الروضتين (١/ ٢٨٣). (٢) الكامل (١٢/ ٣٢١).
(٣) الكامل (١٢/ ٣٢١)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٢١).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٧). (٥) المذيل على الروضتين (١/ ٢٨٣).
(٦) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٤). (٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٧).
(٨) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٤)، والكامل (١٢/ ٣٢١).
(٩) المذيل على الروضتين (١/ ٢٨٣). (١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٨).
(١١) المذيل على الروضتين (١/ ٢٨٣). (١٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١١٩).

فنزل بمرج الصُّفَّر، وأرسل إلى ملوك الشَّرق يستحثُّهم ليقدموا عليه(١).

ودبَّ الخوفُ في دمشق، فغلتِ الأسعار، وعزم النَّاس على النزوح منها، وجَفَل أهل القرى من عقربا وحَرَسْتا وغيرهما، وكان للنَّاس بجامع دمشق في أوقات الصَّلوات ضجيجٌ وبكاء ودُعاء(٢).

وواصل الصَّليبيون غاراتهم، فنازلوا بانياس، وأقاموا عليها ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مرج عكَّا، ومعهم من الغنائم والسَّبي ما لا يُحصى، سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا(٣).

ولم تشتفِ نفوسُهم من هذه الغارات؛ لأنها لم تحقِّق لهم نَصْرًا عسكريًّا(٤)، بينما حصن الطور يهدِّد عكا، فرأوا أن يعدُّوا حملة لمهاجمته(٥).

وحين أتمُّوا استعداداتهم، اتَّجهوا بقواتهم إلى حصن الطُّور، فنزلوا تحته يوم الأربعاء ١٨ شعبان ٦١٤هـ/ ٢٠ تشرين الثاني ١٢١٧م، ولم يبادروا بالهجوم عليه إلا يوم الأحد ٢ رمضان/ ٣ كانون الأول، مستغلِّين الضَّباب الكثيف في ذلك اليوم، فما أحسَّ أهلُ الطُّور بالصَّليبيين إلا وهم عند باب الحصن، وقد ألصقوا رماحهم بالسُّور، ففتح المسلمون الباب، وخرج إليهم الفارس والرَّاجل، وفي مقدِّمتهم الأمير بدر الدِّين محمد بن أبي القاسم الهَكَّاري، فقاتلوهم حتى رموهم إلى أسفل الحصن(٦)، وباء الصَّليبيون بالفشل.

فعاودوا بعد يومين مهاجمة الحصن، وصَعِدُوا إليه بأسرهم، ومعهم سُلَّمٌ عظيم، فزحفوا من ناحية باب دمشق، وألصقوا السُّلَّم بالسُّور، فقاتلهم المُسْلمون قتالًا شديدًا، ودخلت رماح الصَّليبيين من مرامي الحصن من كلِّ

---

(١) المذيل على الروضتين (١/ ٢٨٣)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٢).
(٢) المذيل على الروضتين (١/ ٢٨٣). (٣) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٥).
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٦٤). (٥) الحملة الصليبية الخامسة (١٧٢).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٨).

ناحية، فضرب بعضُ الزَّرَّاقين السُّلم بالنِّفْط، فأحرقه، وقُتل عنده جماعةٌ من أعيانهم، منهم أميرٌ كبير، فلمَّا رأوه مقتولًا سُقِط في أيديهم، فصاحوا وبَكَوْا، وكسروا عليه رماحهم، وتوقفوا عن القتال، فأسرع المسلمون إلى إغلاق باب الحصن(١).

وممن استُشْهد في ذلك اليوم الأمير بدرُ الدِّين محمد بن أبي القاسم الهَكَّاري(٢)، والأمير سيف الدِّين بن المَرْزُبان، وهما من أكابر الأمراء، ولبدر الدين منزلةٌ رفيعة عند المعظم عيسى، فقد كان يستشيره، ويصدُرُ عن رأيه، ويثقُ به لصلاحه ودينه(٣).

بعد مقتل هذين الأميرين، جَبُنَ بعض المسلمين عن القتال، وباتوا عشية الأربعاء يداوون جراحاتهم، ويتشاور أعيانهم فيما يفعلون، ثم انتهوا إلى الإصرار على مواصلة القتال حتى الموت، ولن يستسلموا، خوفًا أن يجري عليهم ما جرى على أهل عكا زمن صلاح الدين بعد استسلامهم للصَّليبيين(٤).

واستشعر الصَّليبيون تصميم المُسلمين على القتال، فآثروا الانسحاب، فأوقدوا النيران حول الحصن، تغطية لانسحابهم، وانكفؤوا إلى عكا سَحَر يوم الخميس ٦ رمضان/ ٧ كانون الأول(٥)، بعد حصار دام سبعة عشر يومًا(٦)، مصطحبين معهم بعض الأسرى من الأطفال، فعمَّدهم بِطْريقُ بيت المقدس وأُسْقُفُّ عكَّا(٧).

وبُعيد انسحابهم أسرع المعظم عيسى إلى الحصن، فبكى على من قُتل، وأطلق المال والخِلَع، وطيَّب قلوبَ النَّاس(٨).

---

(١) المصدر السالف.
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٦).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٨، ٢٢٦).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٨)، وينظر: «كتاب الروضتين» (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٩).
(٦) الكامل (١٢/ ٣٢٢).
(٧) الحملة الصليبية الخامسة (١٧٣).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٩).

ويبلغ سبط ابنَ الجوزي نبأُ استشهاد صديقه الأمير بدر الدِّين الهَكَّاري، فيتذكر تمنِّيه الشَّهادة، وقوله دائمًا: «ما أحسنَ وَقْعَ سُيوف الكُفَّار على أنفي ووَجْهي». فيردِّدُ بحزن: «كان سَمْحًا لطيفًا، دَيِّنًا ورعًا، بارًّا بأهله وبالفُقراء والمساكين، كثيرَ الصَّدقات، دائم الصِّلات. . فاستجابَ الله له دُعاءه، ورزقه الشَّهادة»[١].

وفي دمشق يلتقي سبط ابن الجوزي الشَّاعر أمين الدِّين عبد المُحْسن بن حمود الحلبي؛ كاتب صديقه الأمير عزِّ الدِّين أيبك المعظَّمي، فيُسْمعه أبياتًا من نظمه يخاطب فيها الخليفة النَّاصر لدين الله، مستحثًّا له على نُصْرة المُسْلمين في الشَّام، وإن لم يفعل فإنَّ الفرنج سيصلون قريبًا إلى بغداد، يقول له فيها:

قُلْ للخليفة لا زالتْ عساكِرُهُ ... لها إلى النَّصْرِ إصدارٌ وإيرادُ
إنَّ الفرنج بحصنِ الطُّور قد نزلوا ... لا تَغْفُلَنَّ فحِصْنُ الطُّورِ بغدادُ[٢]

* * *

بعد هذا الهجوم على حصن الطُّور يقبعُ الصَّليبيون في مرج عكا، ويقيمُ العادل في مرج الصُّفَّر[٣]، ظانًّا أن الغارات الصَّليبية قد بلغتْ نهاياتها، ولربما كان ينتظر سفارة منهم لتجديد الهُدْنة، فالعلاقات التجارية التي توثَّقت معهم لن تدفعهم لنقض الصُّلح وتجديد الحرب[٤].

وكم كانت مفاجأته كبيرة[٥]، والأنباءُ تتلاحق عن قواتٍ صليبية جديدة، بدأت تتوافد من الغرب على عكا ابتداءً من **٢٨** المحرم **٦١٥هـ/ ٢٦** نيسان **١٢١٨م**[٦]، وتتجمَّع قربها في قلعة الحجاج[٧]، ولم يكن يعرف

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٦).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩، ٣٩٢).
(٣) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٢).
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).
(٥) حملة لويس التاسع على مصر (٤٥). (٦) الحملة الصليبية الخامسة (١٨١).
(٧) الحملة الصليبية الخامسة (١٨٩).

وجهتها[1] حتى نمتْ إليه الأخبار بإبحارها نحو دِمْياط في ٢٦ صفر/ ٢٤ أيار، ووصلتْ طلائعُها قُبالتها في ٢٩ صفر/ ٢٧ أيار[2]، حينئذٍ تحقَّق العادل أخيرًا أن الهُدنة لن تتجدَّد، وأن الحرب قد وقعت، فسارع إلى إرسال عساكره إلى مِصْر[3]، وقد اشتدَّ خوفه عليها[4]. وأقام المعظَّم مرابطًا في السَّاحل، خشية هجوم الصَّليبيين على الشَّام[5].

ولم يجرؤ الصَّليبيون على النُّزول إلى برِّ جِيْزة دِمْياط[6] حتى يوم الثلاثاء ٢ ربيع الأول ٦١٥هـ/ ٢٩ أيار ١٢١٨م[7]، وقد تمَّ لهم ذلك دون عائقٍ يُذكر[8].

وموقعُ دمياط أكسبها حصانة طبيعية، فهي شِبْه جزيرة، يحدُّها البحر الأبيض المتوسِّط شمالًا، ونهر النِّيل غربًا، وبحيرة تِنِّيس شرقًا، ولا منفذ إليها إلا من الطَّريق الجنوبي[9]، إضافة إلى تحصيناتها العسكرية: بُرْجين وسُور وخندق.

والبُرْجان هما: برجُ السِّلْسِلة الذي يقع في وسط النِّيل، قريبًا من الضِّفة الغربية[10]، وبرجٌ آخر يقابله من أبراج دمياط[11]، تمتدُّ بينهما سلسلة من الحديد تزن ما يعادل الآن (١١٥٧١) كيلو غرام تقريبًا[12]، وقد شُحن البرجان بالمقاتلين، وهذه السِّلسلة تمنعُ عبور السُّفن القادمة من البحر الأبيض المتوسط إلى النيل[13]، فكان رجال البرجين يرخون السِّلسلة إذا

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٧٠)، والحملة الصليبية الخامسة (١٩٠ ـ ١٩١).
(٢) الحملة الصليبية الخامسة (١٨٩ ـ ١٩٠)، ومفرج الكروب (٣/ ٢٥٨).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٧)، ومفرج الكروب (٣/ ٢٦١).
(٤) خطط المقريزي (مج١/ ٥٨٧).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٧).
(٦) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٦٩).
(٧) السلوك (ج١/ق١/ ٢٣٢)، والحملة الصليبية الخامسة (١٩٠).
(٨) الحملة الصليبية الخامسة (١٩١).
(٩) الحملة الصليبية الخامسة (١٨٦).
(١٠) الحملة الصليبية الخامسة (١٨٧).
(١١) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٣).
(١٢) الحملة الصليبية الخامسة (١٨٧).
(١٣) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٣).

أرادوا للسُّفن أن تصعد في النيل، ويشدُّونها إذا أرادوا منعها من ذلك. ولأهمية برج السِّلسلة هذا في حماية مصر أُطلق عليه: قُفْل الدِّيار المِصْرية[1].

واختار الصَّليبيون جِيْزة دمياط موقعًا لنزولهم لحصانتها، فهي كذلك شِبْه جزيرة مثلثة، ضلعها الشَّمالي البحر الأبيض، وضلعها الشَّرقي نهر النِّيل، والضلع الثَّالث خليج قديم، يعرف باسم الخليج الأزرق[2].

وبعد أنِ اطمأنَّ الصَّليبيون إلى رسوِّهم في هذا المكان المحصَّن، دون مقاومة تذكر، تجمَّعوا، وامتطى فرسانهم الجِياد، وساروا مدجَّجين بالسِّلاح، وإلى جانبهم سفنهم في النيل تسير بحِذائهم، عازمين على العبور إلى الضِّفَّة الشرقية، حيث تقع مدينة دمياط، وساعدهم على ذلك اتساعُ مجرى النيل عند مدخل فرعها. وفي سيرهم فوجئوا ببرج السِّلسلة يقفُ عائقًا بينهم وبين العبور، فتعذَّر عليهم حصارُها برًّا وبحرًا[3]، فارتدُّوا إلى معسكرهم، وأحاطوه، كعادتهم في حروبهم كلِّها، بخندقٍ وسور، وشرعوا في إعداد الخُطَط وعملِ الآلات للاستيلاء عليها[4].

ـ ٢ ـ

وكان الكاملُ محمد؛ نائب العادل في مصر قد أُخبر بنزولهم عن طريق حمام الزَّاجل، فأمر على الفور والي الغربية بجمع العُرْبان. وخرج هو بمن معه من العساكر من القاهرة يوم الخميس ٥ ربيع الأول ٦١٥هـ/ ١ حزيران ١٢١٨م؛ أي: بعد ثلاثة أيام من نزولهم. وأبحر الأسطول الإسلامي، وأقام تحت دِمْياط، ووصل الكاملُ إلى العادلية؛ جنوبيها، وأقام معسكره فيها[5]، ونشر جنوده منها إلى دمياط، كي يمنع الصَّليبيين من

(١) المذيل على الروضتين (١/ ٢٩٩).
(٢) الحملة الصليبية الخامسة (١٩١).
(٣) الحملة الصليبية الخامسة (١٩٢ ـ ١٩٣).
(٤) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).
(٥) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٤)، وخطط المقريزي (مج١/ ٥٨٦).

العُبور إلى الضِّفَّة الشَّرقية[1]، وليحول بينهم وبين برج السِّلْسلة[2]. وصار يركبُ في كل يوم عِدَّة مرَّات ما بين العادلية ودمياط لتدبير أمورها، وإعداد الخُطَط للدِّفاع عنها[3].

والعادل في مرج الصُّفَّر يواصل إرسال العساكر إلى ابنه الكامل أولًا بأول، حتى لم يبق عنده من العسكر إلا القليل[4].

وأتمَّ الصَّليبيون استعداداتهم لمهاجمة دمياط، بعد نزولهم على جِيْزتها بنحو أربع وعشرين يومًا، فاستقلُّوا يوم الجُمُعة **٢٦** ربيع الأول **٦١٥هـ/ ٢٢** حزيران **١٢١٨م**[5]، ما يقرب من ثمانين سفينة، مزوَّدة بستائر من الخشب لحمايتها من رُماة المسلمين، وشنُّوا هجومًا من ناحيتها الشَّرقية، بينما كانت قذائف مَنْجنيقاتهم من الضفة الغربية تنهال عليها، محدثة الدَّمار، ومُوقعة جرحى في عددٍ كبير من سُكَّانها، وتمكنتْ سفنهم من الاقتراب من أسوارها.

وبرغم ما أثاره هذا الهجوم الكبير من رُعْب في القلوب، فقد استبسل المسلمون في الدِّفاع عن مدينتهم، وكان الكامل يختلف إليها، لترتيب أمورها، وتشجيع أهلها.

وإزاء هذا الصُّمود عَجَزَ الصَّليبيون عن تسلُّق أسوارها، فعادوا أدراجهم إلى معسكرهم، بينما ظلت قذائفهم تتساقط عليها.

وبما أنَّ السِّلْسلة هي العقبة الكأداء التي تحولُ دون تقدُّم سفنهم نحو دمياط، فقد عَمَدَ أحدُ فرسان الدَّاوية إلى إحدى السُّفن، فزوَّدها بأربعين فارسًا منهم، مع رجال مسلحين آخرين، فبلغوا نحو ثلاث مئة، واتَّجه بها نحو السِّلْسلة، وكانت خُطَّته ترمي إلى الاصطدام بها وتحطيمها، حتى إذا قاربتِ الوصول إليها، انهالتْ عليهم قذائفُ الحجارة والنِّبال من حامية برج

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢٦٠).
(٢) الحملة الصليبية الخامسة (١٩٤).
(٣) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٤).
(٤) مفرج الكروب (٣/ ٢٦١).
(٥) الحملة الصليبية الخامسة (١٩٧).

السِّلسلة، فحاولوا التراجع عنها بسرعة، بيد أنَّ شِدَّة القذف وما أصابهم من رُعْب أذهلهم، فساقوا السفينة خطأ نحو الضِّفَّة الشَّرقية تجاه دمياط، وفي آخر لحظة تداركوا الأمر، واستطاعوا الابتعاد عن أسوارها. ولم يدعهم المسلمون ينجون، وقد رأوا ذُعْرهم واضطرابهم، فاستقلُّوا سُفنهم على الفور، وانقضُّوا على سفينة الدَّاوية، وأدرك الداوية أنهم غارقون لا محالة، فثقبوا سفينتهم وأغرقوها، وغرقوا معها(١).

وعاود الصَّليبيون بعد نحو أسبوع هجومهم للاستيلاء على دمياط وبرج السِّلْسلة، وقام بعضُ فرسان الاسبتارية بمحاولة التسلُّق على أسوارِها، مستخدمين سلالم متحرِّكة أُقيمت على السفن، بيد أنها تكسَّرت تحت ثِقَلِ قواتهم المُهاجمة، وغرق كثيرٌ منهم، وباءت محاولتهم هذه بالفشل.

وكانت بعض قواتهم، في الوقت عينه، يشنُّون هجومًا على برج السِّلْسلة، وكذلك تراجعوا تحت وابل من القذائف التي صبَّها عليهم رجالُ البرج(٢).

وبرغم خسائرهم، فقد أعدُّوا بعد أيام هجومًا آخر على دمياط والبرج معًا، مُولين البرج في مرَّتهم هذه اهتمامًا أكبر.

فزوَّدوا أربعَ بطسات ببعض الأبراج الصغيرة، وفوق هذه الأبراج ثبَّتُوا السَّلالم المتحرِّكة، لمنح الأبراج مزيدًا من الارتفاع يمكِّنُهم من الوصول إلى حامية برج السِّلْسلة، وأُخفيت هذه السَّلالم، كيلا ترى، بقطع من القُماش(٣).

واتجهت يوم السبت ٤ ربيع الأول ٦١٥هـ/ ٣٠ حزيران ١٢١٨م(٤)، ثلاثٌ من هذه البطسات نحو برج السِّلسلة، بينما اتجهت الرَّابعة لمهاجمة دمياط.

---

(١) الحملة الصليبية الخامسة (١٩٨).
(٢) الحملة الصليبية الخامسة (١٩٩).
(٣) الحملة الصليبية الخامسة (٢٠٠).
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٧١).

وبعد جهد كبير استطاع الصَّليبيون الرُّسُوَّ أمام برج السِّلْسلة، وحاولوا إسناد أحد السَّلالم إلى جواره، وكذلك تمكَّنوا من الوصول إلى أسوار دمياط، بيد أن هاتين المحاولتين باءتا بالفشل مرَّة أخرى، لبسالة المُدافعين، فقد انهالتِ القذائفُ على الصَّليبيين من البرج والمدينة معًا، فاضطرُّوا إلى التراجع، والغيظ يأكلُ أكبادهم، كما تكسَّرت السَّلالم على الأبراج تحت ثِقَلِ جنودهم المدجَّجين بالدُّروع، فسقطوا في النهر، وغرق عددٌ كبير منهم.

وابتهج المُسلمون بهذا النصر، ودقَّت طبولهم فرحًا في دمياط والقاهرة، كما زُينت الشَّوارع[١]، لقد نجحوا في صدِّ أول هجوم قوي على المدينة والبرج معًا[٢].

ـ ٣ ـ

بعد الفشل الذَّريع في الاستيلاء على برج السِّلْسلة، فكَّر الصَّليبيون في طريقة مبتكرة جديدة، وهي وضع بطستين جنبًا إلى جنب، وربطهما معًا بعروق من الخشب، فتصبحان قطعة واحدة، ثم إقامة أربع صوارٍ خشبية، يشيَّد في أعلاها برجٌ خشبي، تضاف إليه الستائر الخشبية لحمايته، ويوضع عليه سُلَّم متحرِّك، ينخفض ويرتفع بعَجَلة من المعدن.

ونُفذت هذه الفكرة، وأصبحت البطستان كالقلعة العائمة، ثم غلفوهما بالنُّحاس الأحمر وجلود الحيوانات كيلا تؤثر فيها النَّار، ونصبوا منجنيقًا مثبتًا فوق البرج.

بهذه القلعة العائمة استعدَّ الصَّليبيون مرَّة أخرى لمهاجمة برج السِّلْسلة[٣]، وأبحروا بها يوم الخميس **٢٨** جمادى الأولى **٦١٥هـ/ ٢٣** آب **١٢١٨**م، وتمكَّنوا من الرُّسوِّ إلى الجانب الشَّمالي الشَّرقي منه، ومن إسناد السُّلَّم المتحرِّك إلى جداره[٤].

---

(١) الحملة الصليبية الخامسة (٢٠٠ ـ ٢٠١). (٢) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٧١).
(٣) الحملة الصليبية الخامسة (٢٠١). (٤) الحملة الصليبية الخامسة (٢٠٢).

واندلعتِ المعركة في السَّاعة الثَّالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، بين الصَّليبيين المهاجمين والمدافعين عن البرج، وهم نحو ثلاث مئة مقاتل، وكان القتالُ وجهًا لوجه، واستطاع المسلمون إشعال النَّار في هذه القلعة العائمة، وفي السُّلَّم المتحرِّك، وتمكَّن الصَّليبيون بعد جهود متواصلة من إخمادها، ومعاودة الهجوم بضراوة أشد تحت غطاءٍ كثيف من الدُّخان لحجب الرُّؤية[١]. وتقدَّمهم في هذه المرَّة أحدُ الفرسان التيوتون الألمان، فصَعِدَ إلى أعلى السُّلَّم المتحرِّك، ممسكًا بيده مِقْلاعًا يلوِّح به من عَصًا مكسوَّة بالحديد، ومثبت في طَرَفها سِلْسلة من الحديد، تنتهي بكُرة من الحديد ذات أسنان بارزة، فلم يجرؤ أحدٌ من المدافعين على مهاجمته، وأفسح له جُنْديان صليبيان، يطعنان الرِّجال المواجهين لهما بالرِّماح، الطريقَ إلى برج السِّلْسلة، فتمكَّن هذا الفارس من الوصول إلى الطَّابق الرَّئيس للبُرج، وتتابع بعده الصَّليبيون، والتحم المدافعون بهم، واستمرُّوا في القتال حتى لم يبق منهم سوى مئة رجل[٢]، فأُسِرَ بعضُهم، وألقى بعضهم نفسه في نهر النِّيل، ونجح في الوصول سباحة إلى برِّ دمياط[٣]، ورُفع علمُ الصَّليبيين على برج السِّلْسلة في يوم الجمعة **٢٩** جمادى الأولى ٦١٥هـ/ ٢٤ آب ١٢١٨م[٤].

وهكذا لم ينقضِ على بَدْء الهجوم أربعٌ وعشرون ساعة حتى استطاع الصَّليبيون الاستيلاء على البُرْج، منهين بذلك حصارًا له دام نحو ثلاثة أشهر.

وتسكتُ المصادر الإسلامية عن الخوض في تفاصيل هذا الحدَثِ الجَلَل[٥]، وتكتفي بالقول في عبارةٍ مقتضبة: وفي آخر جُمادى الأولى أخذ

---

(١) الحملة الصليبية الخامسة (٢٠٢ ـ ٢٠٣).
(٢) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٧١). (٣) الحملة الصليبية الخامسة (٢٠٣).
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٧١)، والحملة الصليبية الخامسة (٢٠٣).
(٥) الحملة الصليبية الخامسة (٢٠٤).

الفرنجُ برج السِّلْسلة[١].

* * *

ويسارع الكاملُ بإرسال شيخ الشُّيوخ صدر الدِّين محمد بن عمر ابن حمُّويه إلى أبيه العادل في مرج الصُّفَّر، حاملًا إليه نبأ سقوط برج السِّلْسلة، فيتأوَّه العادل تأوُّهًا شديدًا لدى سماعه هذا النبأ، ويدقُّ بيده على صدره أسفًا وحُزْنًا، ويقع مريضًا، ويرحل إلى عالقين[٢]، حيث يموتُ يوم الجمعة ٧ جمادى الآخرة ٦١٥هـ/ ٣١ آب ١٢١٨م[٣]، عن ستٍّ وسبعين سنة[٤]، وليس عنده أحدٌ من أولاده، فيكتمُ موته كريمُ الدِّين الخِلاطي؛ وهو أخصُّ أصحابه، ويأمر الأطباء بملازمته ليظنَّ النَّاس أنَّه ما زال على قيد الحياة، ويبعث إلى المعظم بنابُلُس يحثُّه على القدوم سريعًا[٥].

ويصلُ المعظَّم إلى عالقين يوم السبت، فيحتاطُ على الخزائن، ويصبِّر العادل[٦]، ويتفق مع كريم الدِّين على كِتْمان موته، ويُظهران أنَّ السُّلطان العادل عازمٌ على الرَّحيل إلى دمشق[٧] للتَّداوي[٨].

ويُحمل العادلُ في مِحَفَّة، قد رُفع طرف سِجافها، ويجلسُ خادمٌ إلى جواره يروِّح عليه[٩]، والأطباءُ حولها[١٠]، ويدخلون به دمشق يوم الأحد، فيصطفُّ النَّاس في الطريق يُسلِّمُون على الخادم، والخادم يُومئ إلى ناحية العادل إشارة إلى ردِّه السَّلام، حتى يصلوا به إلى القلعة[١١]، وهناك يُغسل

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢٨)، والمذيل على الروضتين (١/ ٢٩٨).
(٢) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٥).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣١)، ومفرج الكروب (٣/ ٢٧٠)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٥).
(٤) ولد العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٣٠)، و«المذيل على الروضتين» (١/ ٣٠٣).
(٥) مفرج الكروب (٣/ ٢٧٥).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٢).
(٧) مفرج الكروب (٣/ ٢٧٥).
(٨) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٥).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٢).
(١٠) مفرج الكروب (٣/ ٢٧٥).
(١١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٢).

ويُكفن، ويُدفن فيها سرًّا[1].

ويبالغ المعظَّم في كِتْمان موت أبيه، حتى يُخفيه عن أعزِّ أصدقائه سِبْط ابن الجوزي، وكان جالسًا إلى جانبه في القلعة عند باب الدَّار التي فيها الإيوان، والمعظَّم واجمٌ لا يتكلم، فلما تمَّ دفن العادل نهض المعظَّم، وشقَّ ثيابه، ولطمَ رأسه ووجهه، حينئذٍ علم السِّبْط بوفاته[2].

ويُحضِرُ المعظمُ وكريمُ الدِّين أكابرَ الدَّولة والأمراء، فيحلفون للعادل وللمعظَّم معًا، حتى إذا أتمَّ المعظم ما أراد أظهر موتَ أبيه[3]، وكتبَ لإخوته بوفاته[4].

وتختبط دمشق لدى شيوع هذا النبأ، ويضطرُّ المعظم إلى تسكين النَّاس، فينادي المنادون في الحارات: ترحَّموا على السُّلْطان العادل، وادْعُوا لسُلطانكم الملك المعظَّم، أبقاه الله. ويبكي الناس حُزنًا لوفاته[5]. ويقامُ له العَزَاء ثلاثة أيام بالإيوان الشَّمالي للقلعة.

ويرى سبط ابن الجوزي شدَّة حزن صديقه المعظم، فيقوم ويتكلَّمُ في أوَّل أيام العزاء، محاولًا أن يخفِّفَ مُصابه الأليم بفَقْد والده. ويتكلَّمُ في ذلك اليوم كذلك[6] الواعظ ناصحُ الدِّين عبدُ الرَّحمٰن بن نجم[7] ابن الحَنْبلي ـ وكان يُسامي سبط ابن الجوزي في الوعظ[8] ـ فيعاتبه المعظَّم،

---

(1) مفرج الكروب (٣/ ٢٧٦).
وبقي العادل مدفونًا في قلعة دمشق نحو أربع سنوات، حتى أتمَّ ابنُه المعظم عيسى بناء المدرسة العادلية الكبرى سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، وهي في باب البريد، مقابل المدرسة الظاهرية، شمالي غرب الجامع الأموي، فنقل العادلَ إليها، ودفنه في تربتها. وكان العادل قد شرع في عمارتها سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م. ينظر كتابي: «أبو شامة مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين» (٤٥ ـ ٤٦)، و«منادمة الأطلال» (١٢٣ ـ ١٢٦).

(2) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٢).
(3) مفرج الكروب (٣/ ٢٧٦).
(4) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٣٠).
(5) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٢٦).
(6) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٢).
(7) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤١)، والمذيل على الروضتين (٢/ ٣٦).
(8) ترجم له الإمام الذهبي، وذكر بأنه برع في الوعظ، وكان حلو الإيراد، وله قبول =

قائلًا له: سبحان الله، أنتَ صاحبُ العزاء، أيش كان حاجة إلى كلامك مع ابن الحنبلي! فيجيبه السِّبْط: لا بُدَّ من الكلام. فيقول المعظم: إذا كان ولا بُدَّ فليكن في اليوم الثالث، ولا يتكلَّم معك أحد. وهكذا كان.

وفي ذلك اليوم يفوِّضُ إليه المعظم تربة بدر الدِّين حسن[١]، على نهر ثورا عند جسر كحيل في طريق جبل قاسيون[٢]، ويكتبُ له بها منشورًا[٣]، فتصير مُذْ ذاك اليوم مسكنًا له[٤].

وكان أبو شامة من بعدُ، وهو في طريقه إلى الصَّالحية، يمر بالتربة البدرية، فيراه جالسًا في شباكها، أو في الصُّفَّة الخارجة في النهر، ومعه كتابٌ يطالع فيه أو ينسخ منه[٥].

= زائد، ومن تآليفه «تاريخ الوُعَّاظ». ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٦ ـ ٧)، و(ص ١٤٥) من هذا الكتاب.

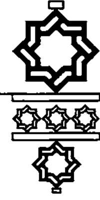
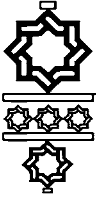
(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٢).
وبدر الدين حسن هو أحد أولاد الداية الخمسة، وهم: سابق الدين عثمان، وشمس الدين علي، وبهاء الدين عمر، وأكبرهم مجد الدين أبو بكر، وهو رضيع السلطان نور الدين محمود بن زنكي، وتربى معه. وقد غدا هؤلاء الإخوة من كبار أمرائه. ينظر: «كتاب الروضتين» (٢/ ٤٥، ٣٢٧)، و«المذيل على الروضتين» (١/ ٣٠٧). ووهم العلامة الشيخ عبد القادر بن بدران في نسبتها إلى بدر الدين لؤلؤ؛ صاحب الموصل. ينظر: «منادمة الأطلال» (١٥٢ ـ ١٥٣).

(٢) المذيل على الروضتين (١/ ٣٠٧).
وموقعها الآن شرقي الجسر الأبيض، في ساحة حطين، وهي ما يعرف عند الناس بدوَّار الميسات، وما زال ذاك الجسر قائمًا.

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٢).

(٤) المذيل على الروضتين (١/ ٣٠٧).
وذكر الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه «خطط دمشق» (٧٢): أن أبا شامة سكن فيها كذلك. وهو وهم منه، فلم يسكن أبو شامة من المدارس إلا المدرسة العادلية الكبرى. ينظر كتابي: «أبو شامة مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين» (٣٨، ٤٧، ١٨٧).

(٥) المذيل على الروضتين (١/ ٣٠٧)، وكتابي «أبو شامة مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين» (٣٨).

مآخِذُه على صديقه المعظَّم عيسى بن العادل

- ١ -

كان تطهير جميع الولايات من الخمور والخواطئ، والقمار والمخانيث، والمكوس والمظالم، من أهمِّ إنجازات العادل التي نوَّه بها سبط ابنُ الجوزي، وأثنى عليها[١]. ولم ينقضِ على وفاته سوى اثنتين وعشرين يومًا؛ أي: في أول شهر رجب من سنة ٦١٥هـ/ ٢٣ أيلول ١٢١٨م، حتى أعاد المعظَّم المكوس والخمور، وما كان أبوه أبطله. وفُوجئ سبط ابن الجوزي بصنيع صديقه، فأظهر انزعاجه منه، وقال له مُعاتبًا: «قد خَلَفْتَ سيفَ الدِّين غازي ابن أخي نور الدِّين، فإنَّه كذا فَعَلَ لما مات نور الدِّين»[٢]. فاعتذر له المعظَّم بقِلَّة المال، ودَفْعِ الفرنج[٣].

وهذه هي مرَّته الأولى التي يوجِّه فيها سبط ابن الجوزي نقدًا لسياسته.

ولم يكتفِ المعظم بإباحة شرب الخمور، بل أراد من القاضي الحنفي شرف الدِّين إسماعيل بن إبراهيم الشَّيْباني[٤] أن يُفتي بإباحة الأنبذة ممَّا يُعمل من الرُّمَّان ونحوه. فامتنعَ عن ذلك شرفُ الدِّين قائلًا: لا أفتح هذا الباب على أبي حنيفة، وأنا على مذهب محمد في تحريمها. فغضب عليه

---

(١) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).
(٢) ينظر: «كتاب الروضتين» (٢/ ٣٢٧).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٣)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٠٨).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٢٥).

المعظَّم، ونزع من يده المدرسة التي كان يسكُنها[1].

ويستحسنُ سبط ابنُ الجوزي موقفَ شيخه[2] شرف الدِّين، بقوله: «ولم يتأثر شرفُ الدِّين، وأقام في بيته يتردَّدُ إليه للقراءة الصَّغير والكبير، ولا يغشى أحدًا من خلق الله، مقتنعًا باليسير»[3].

ولا شكَّ أنَّ سبط ابن الجوزي كان في حَيْرة من أمر المعظَّم، كيف يغضبُ على رجلٍ مثل شرف الدِّين على علمه ووَرَعِه، ويقرِّبُ إليه رجلًا على النَّقيض منه، ففي ديوان إنشائه كان يخدُمُ الشَّاعر المعروف محمد بن نَصْر بن عُنَيْن، وكان سبط ابن الجوزي يكرهُه، ولا يرتاحُ إليه، ويعدُّه من أكبر سيِّئات المعظَّم؛ لأنَّ مجالسه كانت معمورةً بقبائحه وهَنَاته، ووصفه من بعدُ بقوله: «كان خبيثَ اللِّسان، هجَّاء، فاسقًا، متهتِّكًا»[4].

* * *

ولم يعذر سبط ابن الجوزي صديقه المعظَّم في هدمه سور القدس. وكان المعظَّم عقب سُقوط برج السِّلْسلة بيد الصَّليبيين يوم الجمعة **٢٩** جمادى الأولى **٦١٥هـ/ ٢٤** آب **١٢١٨م**[5]، قد خافهم أن يستغلُّوا انشغال المُسلمين بأمر دِمْياط لمهاجمة بيت المقدس، فقرَّر هدم سوره وأبراجه لعَجْزه عن الدِّفاع عنه. وكان القُدْس يومئذٍ على أتمِّ حالٍ من العمارة وكثرة السكان. فشرع في هدم السُّور ـ على ما ذكر سبط ابن الجوزي ـ في أول يوم من المحرم سنة **٦١٦هـ/ ١٩** آذار **١٢١٩م**، ويصوِّر لنا ما حلَّ بالقُدْس يومئذ، فيقول: «ووقع في البلد ضجةٌ عظيمة مثل يوم القيامة، وخرج النِّساء المخدَّرات والبنات، والشيوخ والعجائز، والشُّبَّان والصِّبيان إلى الصَّخْرة والأقصى، فقطَّعوا شعورهم، ومزَّقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصَّخرة ومِحْراب الأقصى من الشُّعور، وخرجوا هاربين، وتركوا أموالهم وأثقالهم، وما شكُّوا

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١٦). (٢) ينظر: (ص ٧٢) من هذا الكتاب.

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١٦ ـ ٣١٧). (٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٣٨).

(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٧١)، والحملة الصليبية الخامسة (٢٠٣).

أنَّ الفرنج تصبِّحُهم، وامتلأتْ بهم الطُّرُقات، فبعضُهم إلى مِصْر، وبعضُهم إلى الكَرَك، وبعضهم إلى دمشق. وكانت البنات المخدَّرات يمزِّقن ثيابهن، ويربِطْنَها على أرجلهنَّ من الحَفَا. ومات خلقٌ كثير من الجوع والعطش»[1].

ثم يعقب على ما جرى بقوله، مُفْصحًا عن رأيه: «وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها.. وذمَّ النَّاس المعظَّم، ولم يعذره أحد»[2].

* * *

ولعلَّ أشدَّ ما أزعجه من المعظم، ما فعله مع قاضي القُضاة زكي الدِّين أبي العبَّاس الطَّاهر بن محيي الدِّين ابن الزَّكي. فقد كان في قلبه منه حزازاتٌ يمنعُه من إظهارها حياؤه من والده العادل، وخوفه من الشَّناعات. فكان يشكوه إلى سبط ابن الجوزي مرارًا، ويقول له: إنَّه لا ينفِّذ الأحكام، ولا يقيمُ معالمَ الإسلام. فلمَّا مات العادل وَجَدَ المعظَّم فُرْصة للنَّيْل من هذا القاضي، فأمره[3] يوم الأربعاء ٢٧ ربيع الأول سنة ٦١٦هـ/ ١٢ حزيران ١٢١٩م، وهو في مجلس الحُكْم في داره بباب البريد[4]، أنْ يلبس القَبَاء، وينزعَ عِمامته ويضع الكلوتة على رأسه، وهو لباس والي الشُّرطة يومئذٍ، إشارة إلى أنَّه يفعل فِعْله، وهو زِيٌّ شنيع في حقِّ مثله. ففعل القاضي ما أُمر به، ولزم بيته بعدها حُزْنًا وكمدًا، ثم ما لبث أن مرض مرضة رمى كبدَه منها قِطَعًا، مات على إثرها[5].

ويصرِّح سبط ابن الجوزي بما في هذه الفَعْلة في حقِّ قاضٍ من قُبْح، فيقول: «والقَتْل أهونُ ممَّا جرى عليه.. وكانت حركة شنيعة وواقعة قبيحة لم يجرِ في الإسلام أقبحَ منها، وكانت من غَلَطات المعظَّم».

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٧)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣١٣).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

(٤) المذيل على الروضتين (١/ ٣١٦).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣١٧ ـ ٣١٨).

بل إن سبط ابن الجوزي يجهرُ برأيه فيما فعل المعظَّم، ودون مواربة يعدُّه قاتلًا لهذا القاضي، قائلًا له: ما فعلتَ إلا بصاحب الشَّرع، ولقد وجبتْ عليك دِيَة القاضي. ويقفُ المعظَّم أمامه عاجزًا عن الدِّفاع عن نفسه، فيقول كالمعتذر: هو الذي أحوجني، ولقد ندمتُ. فيردُّ عليه سبط ابن الجوزي بمرارةٍ وألم على ادِّعائه الندم، قائلًا: بعد أن سارتْ بفِعْلك الرُّكبان، وتحدَّث النَّاس في البُلْدان![1].

ـ ٢ ـ

ولم تَحُلْ مآخذه هذه على المعظَّم دون بَذْله الولاءَ له، فبعد سقوط دمياط بيد الصَّليبيين يوم الثلاثاء **٢٥** شعبان **٦١٦**هـ/ **٥** تشرين الثاني **١٢١٩**م[2]، ورجوع المعظم من مِصْر، لاستجلاب العساكر من الشرق[3]، كتب المعظَّم كتابًا بخطِّه ـ وهو في طريقه إلى نابُلُس ـ إلى صديقه بدمشق سِبْط ابن الجوزي، يقول له فيه: «قد علم الأخُ العزيز بأنْ قد جرى على دِمْياط ما جرى، وأريد أن تحرِّض النَّاس على الجهاد، وتعرِّفهم ما جرى على إخوانهم أهلِ دمياط من الكَفَرة أهل العِناد. وإني كشفتُ ضياع الشَّام فوجدتُها ألفي قرية، منها ألفٌ وستُّ مئة أملاكٌ لأهلها، وأربع مئة سُلْطانية، وكم مقدارُ ما تقوم هذه الأربع مئة من العساكر! وأريد أن يخرج الدَّماشقة ليذبُّوا عن أملاكهم؛ الأصاغر منهم والأكابر. ويكون لقاؤنا وهم بصُحْبتك إلى نابُلُس».

ويخفُّ سبط ابنِ الجوزي إلى جامع دمشق، ويقرأُ على أهلها كتابَ المعظَّم، ودعوته لهم للجهاد. وتأخذهم الحَمِيَّة، ويجيبون بالسَّمْع والطَّاعة. بيد أن أكابر دمشق يعتورهم الفتور، ويقولون: نمتثل أمرَه بحسب

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣١٩)، وينظر كتابي «أبو شامة مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين» (٣٩ ـ ٤٠).

(٢) المذيل على الروضتين (١/ ٣١٥).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٨)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣١٦).

الاستطاعة. وكأنَّهم ائتمروا فيما بينهم على القُعود. فما إنْ يحلَّ موعدُ الخروج حتى يثبِّط بعضُهم بعضًا، مُؤثرين الدَّعَة والسَّلامة، قائلين: لكل مقامٍ مقال، وللحَرْب رجالٌ[1].

ويستبطئ المعظَّمُ النَّاس، فيكتبُ لسبط ابن الجوزي كتابًا آخر بخطِّه، يقول فيه: «قد عرفتُ عزيمة الأخ التي جرَّدها في سبيل الله ابتغاءً لرضاه، وشكرتُ ما يقصد من المساعي في ذات الله ويتوخَّاه، فليقدِّم حضوره إلى أخيه، ومحبِّه المشار إليه، ليقوم من خدمته بما يجبُ عليه»[2].

فيمتثلُ سبط ابنُ الجوزي أمرَه، ويخرج إلى السَّاحل. وكان المعظم نازلًا على قَيْسارية يحاصرُها[3]، فيلتقيه هناك، ويقيمُ معه حتى يفتحها المعظَّم عَنْوة، ثم يسير معه إلى الثغر، فيفتحه ويهدمه، ويعود إلى دمشق بعد أن أخرب بلاد الفرنج[4].

وعقوبة على تقاعُدِ أكابر أهل دمشق عن الجهاد، يأخذ المعظم الخُمْس والثُّمْن منهم[5].

وتوافي أشهرُ الحجِّ من ذلك العام، فيعزم سبط ابن الجوزي على أداء مناسكه، فيتجهَّز، وحين يأزَفُ وقتُ الرَّحيل ينضمُّ إلى قافلة الحج الشَّامي، وأميرها شقيفات؛ مملوك المعظَّم[6].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٩).

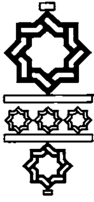
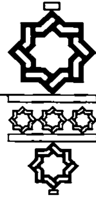
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٩).

(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٩٣).

(٤) هذه رواية سبط ابن الجوزي، ولم يحدِّد تواريخ لذلك. والذي ذكره رنسيمان في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» (٣/ ٢٩٣) أن المعظم هاجم قيسارية في المحرم سنة ٦١٧هـ/ آذار ١٢٢٠م، ثم تحرك لمحاصرة عثليث، وهي معقل من معاقل الداوية، وأقام على حصارها حتى شهر رمضان ٦١٧هـ/ تشرين الثاني ١٢٢٠م، ثم عاد إلى دمشق. وهذه الرواية إن صحت، لا تتفق وحضور سبط ابن الجوزي لوقائعها مع ذهابه للحجِّ في سنة ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م، كما سيأتي!

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٣٩)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (١/ ٣١٦).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٠)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣١٩، ٣٢٠).

سِفَارتُه بين الأخوين المعظَّم والأشرف وهزيمة الصَّليبيين في مِصْر

ـ ١ ـ

عقب رجوعه من الحجِّ راح سبط ابن الجوزي يأوي في أويقات فراغه إلى مسكنه في التُّرْبة البَدْرية، منكبًّا على مطالعاته وتآليفه[1]، ومستقبلًا زوَّاره من العلماء والفقهاء والأمراء، وممَّن كان يزوره في تلك الأيام المحدِّث الفقيه تقي الدِّين عثمان بن عبد الرحمٰن، المعروف بابن الصَّلاح[2]، صاحب كتاب «علوم الحديث»، الذي ذاع صيتُه في الآفاق، واقترن باسْمِه[3].

كان ابن الصَّلاح يدرِّس بالمدرسة الصَّلاحية ببيت المقدس، وقد غادره عند خراب سوره، وقدم دمشق مع القادمين إليها[4]. ويبدو أنه انتظر أشهرًا، وهو يؤمِّل أن يوليَهُ المعظَّم إحدى مدارسها، وكان المعظم يكرهه، فجاء إلى سبط ابن الجوزي يلتمس مساعدته، فاستجاب له. وما زال بالمعظَّم حتى استصلحه له، على حدِّ تعبيره[5]، وولاه التدريس

(١) المذيل على الروضتين (١/ ٣٠٧). (٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٣).

(٣) وابن الصلاح من علماء ذلك العصر الكبار. ينظر: ما وصفه به الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، وكتابي «أبو شامة مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين» (٣٥).

(٤) طبقات علماء الحديث (٤/ ٢١٥)، وينظر: (ص ١٠٥ ـ ١٠٦) من هذا الكتاب.

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٣).

بالمدرسة الرَّواحية[1].

وكما توسَّط سبط ابن الجوزي لابن الصَّلاح، حاول أن يستصلح المعظَّم لمحمد بن أبي الفضل بن زيد الدَّوْلعي الشَّافعي؛ خطيب جامع دمشق بعد عمِّه عبد الملك بن زيد. وكان المعظم قد منعه من الفتوى، فسأله السبط: لم مَنَعْتَه؟. فأجابه المعظم: ما منعته، وإنما منعه شيوخ مذهبه وأكابرهم، كتبوا إليَّ يقولون: هذا رجلٌ جاهل، غليظُ الطَّبْع، وفتاويه كلُّها خطأ، ولا يحلُّ لك أن تمكِّنه من الفتوى في الفروج والأموال[2].

ويبدو أن شفاعة سبط ابن الجوزي عند المعظَّم لم تكن تتعدَّى تلك الوَسَاطات للعلماء، أما ما يتعلق منها بالسِّياسة وشؤون الحكم فكان يتجنَّبها، فنراه لا يتدخَّل أبدًا حين عَزَلَ المعظم صديقه الأمير المبارز المعتمد إبراهيم بن موسى عن شِحْنة دمشق، لبُغْضه له، بعد أن تولَّاها نحو خمسين سنة، وأنزله من قلعة دمشق إلى داره، وحَجَرَ عليه، وبالغ في ذلك.

وكان للمبارز المعتمد منزلة كبرى عند سِبْط ابن الجوزي، ولم ينسَ أياديه عليه مُذْ تعرَّف إليه، ولطالما لَهِجَ لسانه بالثَّناء عليه، بقوله: «كان مُحْسنًا إليَّ، ومتفضِّلًا عليَّ، خدمَني بنفسه وجاهه وماله، وجَمَعَ لي بين خيري الدُّنيا بتفضُّله وإفضاله». ولذلك واصَلَ زيارته له في داره كل ليلة جُمُعة حتى وفاته، ولم ينقطع عنه أحيانًا إلا بسبب منع زيارته، وغَلْق بابِ داره في بعض الأوقات[3].

* * *

وممن كان يزور سبط ابنَ الجوزي الأميرُ مبارز الدِّين سُنْقُر الحلبي الصَّلاحي؛ وكان من كبار أمراء السُّلطان صلاح الدِّين بن أيوب، وله معه مواقفُ مشهورة[4].

---

(١) ينظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٤٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ١٤١).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٢٦، ٣٥٠).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٤٦، ٢٨١ ـ ٢٨٢).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٥).

كان مبارز الدِّين سُنْقُر يقيمُ في دار شبل الدولة الحُسامي، القريب من التُّرْبة البَدْرية، وقد قدم من مارِدِين سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م بعد أن وعده المعظم عيسى خديعةً له بتوليته نابُلُس[١]. وكان الأشرف موسى قد نقم عليه لميله للأفضل علي بن صلاح الدِّين[٢].

ووصل مبارز الدِّين إلى دمشق، ومعه جُمْلة من المال والخيل المنسوبة العربية، والجِمال والبغال، والسِّلاح والمماليك شيءٌ كثير. وخرج المعظم للقائه، ونزل في دار شِبْل الدولة. ثم أعرض عنه المعظَّم، وراح يُماطله بما وَعَدَه به حتى تفرَّق عنه أصحابُه، وتبدَّد ماله. فصار يقضي أيامه مغمومًا مهمومًا.

فكان الأمير في ساعات غمِّه يزور جاره سبط ابن الجوزي[٣]، يبثُّه همَّه، ويحدِّثه أحيانًا عن بعض أخبار السُّلطان صلاح الدِّين[٤]، وأولاده[٥]. ويشكو له إعراض المعظَّم عنه، وكيف خدعه، وسبط ابن الجوزي يسلِّيه ويهوِّن عليه.

ودخل عليه مرَّة، وهو يقرأ في كتاب عن ملوك اليمن، فسأله المبارز: أيش تقرأ؟ فقال السبط: أخبار ملوك اليمن. فقال المبارز: اقرأ لي. فقرأ له: فلانٌ الملك عاش ألف سنة، ومات بالغَمِّ، وفلان عاش مئة سنة ومات بالغم، فقال المبارز: وأنا أموتُ بالغم[٦].

* * *

وكان المعظَّمُ في تلك الأيام مغمومًا كذلك، ولكن لاستيلاءِ الصَّليبيين على دِمْياط، ويخشى من استيلائهم بعدها على مِصْر كلِّها، ولذا كان يفكِّرُ في دخول طرابلس، ومهاجمتهم في عُقْر دارهم، لتشتيت جهودِهم عنها.

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٤).
(٢) مفرج الكروب (٤/ ٢٣).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٤).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٢).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٦٨).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٤).

ولتنفيذ خُطَّته تلك ذهب إلى أخيه الأشرف موسى في حرَّان، حاثًّا له على توحيد جهودهما، وما زال به حتى استجاب له، واجتمعتِ العساكرُ في حرَّان، فسار بهم المعظَّم، وقطع الفرات، ونزل على حِمْص. وسار الأشرفُ على إثره، ونزل في سَلَمْيَة.

ويخرج سبط ابنُ الجوزي من دمشق على نيَّة الغَزَاة، ويجتمع بالمعظَّم على حِمْص في ربيع الآخر سنة ٦١٨هـ/ حزيران **١٢٢١**م. ويبثُّه المعظَّمُ همومه، قائلًا له: قد سحبتُ الأشرف إلى ها هنا بأسناني، وهو كارِهٌ، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مِصْر، وهو صديقك، فأشتهي تقوم تروح إليه، فقد سألني عنك مرارًا. ثم كتب المعظَّمُ إلى الأشرف كتابًا بخطِّه نحو ثمانين سطرًا. فأخذ سبط ابن الجوزي الكتاب، ومضى به إلى سَلَمْيَة.

ولندع سبط ابن الجوزي يصفُ لنا وقائع تلك السِّفارة، ولقاءه بالأشرف، وما كان منه، فيقول: «وبلغ الأشرف وصولي، فخرج من الخيمة، والتقاني، وعاتبني على انقطاعي عنه، وجرى بيني وبينه فضولٌ، وقلت له: المُسْلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الدِّيار المِصْرية ملكوا إلى حَضْرَموت، وعفُّوا آثار مكة والمدينة والشَّام، وأنت تلعب! قُم السَّاعة وارحل. فقال: ارموا الخيام والدِّهْليز. وسبقتُه إلى حِمْص، والمعظَّم عينه إلى الطريق، فلما قيل له: وصل فلان. ركب والتقاني، وقال: ما نمتُ البارحة، ولا أكلتُ اليوم شيئًا. فقلت: غدًا يصبِّح أخوك على حمص. فلمَّا كان من الغد أقبلتِ الأطلاب[1]، وجاء طُلْب الأشرف، والله ما رأيتُ أجمل منه ولا أحسن رجالًا، ولا أكمل عُدَّة. وسُرَّ المعظَّم سرورًا عظيمًا، وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فاتَّفقوا على الدُّخول في السَّحَر إلى طرابلس يشوِّشُون على الفرنج، وكانوا على حال، فأنطق الله الأشرف على غير قصد، وقال للمعظم: يا خوند، عِوَض ما ندخل السَّاحل، ونُضعف خيلنا

---

(١) الأطلاب جمع، مفردها طُلْب: وهي من لغة الكرد، وتعني الكتيبة، قلَّ عددُها أو كثر، يقودها رئيس أعلى. ينظر: «تكملة المعاجم العربية» (٧/ ٦٣).

وعساكرنا، ونضيِّع الزمان، ما نروح إلى دِمْياط ونستريح؟ فقال له المعظم: قول رماة البُنْدق؟[1] قال: نعمْ. فقبَّل المعظَّم قدمه، ونامَ الأشرف، فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضَّاري يصيح: الرَّحيل الرَّحيل إلى دمياط. وما كان يظن أن الأشرف يسمحُ بذلك. وساق المعظَّم إلى دمشق، وتبعته العساكر. ونام الأشرف في خيمته إلى قريب الظُّهْر، وانتبه، فدخل الحمَّام، فلم يرَ حول خيمته أحدًا، فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر، فسكت، وساق إلى دمشق، فنزل القُصير يوم الثلاثاء **٤** جمادى الأولى/ **٢٦** حزيران، فأقام إلى سَلْخه، وعَرَضَ العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظَّم في الطَّيَّارة بالقلعة، وساروا إلى مِصْر غُرَّة جُمادى الآخرة/ **٢٣** تموز»[2].

ويبدو أن سبط ابن الجوزي ـ وقد خرج من دمشق على نيَّة الغَزَاة ـ لم يفسخ ما عزم عليه، وسافر معهما إلى مِصْر، وإنْ لم يصرِّح بذلك[3].

ـ ٢ ـ

وكان الصَّليبيون قد حشدوا قواتهم لمهاجمة القاهرة، وتقدَّموا يوم السبت **٢٥** جُمادى الأولى **٦١٨**هـ/ **١٧** تموز **١٢٢١**م، من دمياط جنوبًا، ووصلوا إلى فارسكور في اليوم التالي[4].

ونادى الكاملُ بالنَّفير العام، وألا يبقى أحدٌ إلَّا خرج لقتال الفرنج[5]. واتَّجه بقواته شمالًا، فعبر نحو بحر أشمُوم، وتقدم إلى شارمساح، غير أنه

---

(١) أي قول أهل الفتوَّة، وكانوا يرمون بالبندق. ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ١٩٤، ٢٠٢).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨).

(٣) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٩٢)، و«الحملة الصليبية الخامسة» (٤٠).

(٤) مفرج الكروب (٤/ ٩٤)، والحملة الصليبية الخامسة (٣١٧).

(٥) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٣٨).

آثر الرجوع ثانية إلى معسكره الحصين في المنصورة. ومن ثَمَّ وجد الصَّليبيون الطريق أمامهم مفتوحًا، ولم يعترض مسيرهم سوى مناوشات يسيرة، فوصلوا إلى شارمساح، واستولوا عليها يوم السبت ٢ جمادى الآخرة/ ٢٤ تموز، وكانت خرابًا(١).

ثم تابعوا مسيرهم، فخرجوا من شارمساح، ووصلوا في اليوم نفسه؛ أي: ٢ جمادى الآخرة/ ٢٤ تموز(٢)، إلى طرف جزيرة دمياط(٣)، فأقاموا معسكرهم هناك دون مقاومة تُذكر(٤)، وأصبحوا بذلك في مواجهة القوات الإسلامية، لا يفصل بينهما إلا بحر أشمُوم(٥)، وهم موقنون أشدَّ اليقين أن مِصْر كلَّها قد غدت في قبضتهم(٦).

وانشغل الصَّليبيون بتحصين معسكرهم الجديد كعادتهم، فأحاطوه بالخنادق والأسوار، وقبعوا فيه ما يقرب من شهر، كانوا خلاله يرمون العساكر الإسلامية بالمَنْجنيق والجُروخ، معتقدين أنهم منتصرون لا محالة(٧). ولغرورهم هذا لم يصحبوا معهم من المؤن إلا ما يكفيهم لأيامٍ فحسب، لاعتقادهم أنهم لن يلاقوا مقاومة في طريقهم إلى القاهرة، وسيتزوَّدون بالمؤن من القرى التي يسيطرون عليها في طريقهم(٨).

في تلك الأثناء وصل الأشرف موسى إلى مِصْر في ٢٣ جمادى الآخرة ٦١٨هـ/ ١٤ آب ١٢٢١م(٩).

وخفَّ الكامل لاستقبال أخيه الأشرف، مستبشرًا به(١٠)، واستقر الرَّأي

---

(١) الحملة الصليبية الخامسة (٣١٧). (٢) الحملة الصليبية الخامسة (٣١٩).
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٩٤). (٤) الحملة الصليبية الخامسة (٣١٩).
(٥) مفرج الكروب (٤/ ٩٤)، وتاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٩٨)، والحملة الصليبية الخامسة (٣٢٢).
(٦) الكامل (١٢/ ٣٢٨). (٧) الحملة الصليبية الخامسة (٣٢٥).
(٨) الكامل (١٢/ ٣٢٩). (٩) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٣٩).
(١٠) مفرج الكروب (٤/ ٩٤)، والكامل (١٢/ ٣٢٨).

بينهما على التقدُّم إلى خليج بحر المحلَّة[1]، في البرِّ الغربي[2]، لضرب مؤخرة السُّفن الصَّليبية، ولقطع خطوط المواصلات البحرية التي تعتمد عليها القوات الصَّليبية في دمياط[3]. وهكذا سارت السُّفن الإسلامية، ومعها حرَّاقة كبيرة، عليها الأمير بدر الدِّين حسُّون، إلى رأس بحر المحلَّة[4]، المواجه لشارمساح، وهناك اشتبكتْ مع السُّفن الصَّليبية، واستولت عليه[5].

وفي الوقت نفسه تقدَّمت شواني المُسْلمين في فرع دمياط، واشتبكتْ مع السُّفن الصَّليبية المتقدِّمة، الرَّاسية بحِذاء المعسكر الصَّليبي؛ شماليِّ المنصورة، وتمكَّنتْ من أسر ثلاث قطع من السُّفن الصَّليبية، بمن فيها من الرِّجال والمُؤَن والسِّلاح والأموال[6]، ففرح المسلمون بذلك، واستبشروا، وقويت نفوسُهم[7].

ثم وجَّه إليهم الكامل ضربته القاضية[8]، إذ أوعز إلى جماعةٍ من عسكر المُسْلمين، فعبروا بحر المحلَّة إلى برِّ دِمْياط، حيثُ يُعسكر الصَّليبيون، وفتحوا بَثْقًا عظيمًا في النِّيل، الذي كان في فورة زيادته، فغمَرَ الماءُ أكثر تلك الأرض، وصار حائلًا بين الصَّليبيين وبين دمياط، ولم يتبقَّ للصَّليبيين من طريق يسلكونها غير الشَّريط الضَّيِّق المحاذي للنِّيل، ويمتدُّ من معسكرهم حتى دمياط، عندئذٍ أمر الكامل بنَصْب جسورٍ عند أشمُوم طناح، فعبرتِ العساكر عليها، وملكوا هذا الشَّريط الضَّيِّق، قاطعين على الصَّليبيين طريق العودة إلى دمياط، وهكذا سُدَّت جميعُ الطُّرق في وجوه الصَّليبيين، وغدوا محصورين من الجهات كافة[9]، وبذلك سيطر المُسْلمون على أرض

---

(١) الكامل (١٢/ ٣٢٩).
(٢) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٣).
(٣) الحملة الصليبية الخامسة (٣٢٦).
(٤) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٣٩).
(٥) السلوك (ج١/ق١/ ٢٤٣)، والحملة الصليبية الخامسة (٣٢٦).
(٦) الحملة الصليبية الخامسة (٣٢٦).
(٧) مفرج الكروب (٤/ ٩٥)، والكامل (١٢/ ٣٢٩).
(٨) الحملة الصليبية الخامسة (٣٢٩).
(٩) مفرج الكروب (٤/ ٩٦)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٣).

المعركة سيطرة تامة[١].

وبينا الصَّليبيون على تلك الحال، وصل إليهم مركبٌ عظيم يسمَّى مرمَّة، وحوله عِدَّة حرَّاقات يحمُونه، وهي مشحونةٌ بالمِيْرة والسِّلاح، وما يحتاجون إليه، فوقعتْ عليه شواني المُسْلمين، وقاتلوا عليه قتالًا شديدًا حتى ظفروا بالمركب وما معه من الحرَّاقات، فاستولوا عليها، فلمَّا رأى الصَّليبيون ذلك سُقِط في أيديهم[٢]. وأدركوا حينئذٍ مع صباح يوم **٢٧** جمادى الآخرة ٦١٨هـ/ ١٨ آب ١٢٢١م[٣]، أن جيش المسلمين قد تفوق عليهم، واكتمل تطويقهم، ولم يعد لديهم ما يكفيهم من المؤن إلا لأيام، وأن طريق الرُّجوع إلى دمياط قد قُطعت بعدما تمكَّنتِ البحرية الإسلامية من إغراق سُفنهم التي حاولت العودة أو الاستيلاء عليها[٤].

وتشاورتِ القيادة الصَّليبية فيما يجبُ عمله، وقد أحيط بهم[٥]، فلم يكن أمامهم إلا طريقان لا ثالث لهما: إما الاستسلام للمسلمين، ووقوعهم أسرى في أيديهم. وإما القيام بمحاولة يائسة للتراجع برًّا نحو دِمْياط، والتحصُّن بها[٦]. واستقرَّ رأيهم على التراجع، وهو عندهم أهونُ الشَّرَّين[٧].

ففي الصَّباح الباكر من يوم الخميس ٦ رجب ٦١٨هـ/ ٢٦ آب ١٢٢١م، بدأ جيش الصَّليبيين في التراجع[٨]، ولم يكن انسحابه منظَّمًا، إذ رفض كثيرٌ من الجنود أن يُريقوا نبيذهم على الأرض، وآثروا أن يشربوه، فثَمِلُوا، وكانوا فاقدين لوعيهم حين صدرت إليهم الأوامرُ بالمسير. ثم إنَّ

---

(١) الحملة الصليبية الخامسة (٣٣٠).
(٢) مفرج الكروب (٤/ ٩٦)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٣).
(٣) الحملة الصليبية الخامسة (٣٢٨).
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٩٨)، والحملة الصليبية الخامسة (٣٢٨).
(٥) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٤).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ٩٧).
(٧) الحملة الصليبية الخامسة (٣٣٠).
(٨) الحملة الصليبية الخامسة (٣٣١).

الفُرْسان التيوتون أشعلوا النِّيران، حماقةً منهم، بكلِّ ما لم يستطيعوا حمله من خيام ومجانيق وأثقال بالمعسكر، فدلُّوا بذلك المسلمين على انسحابهم[1]. وكان النِّيل يزدادُ ارتفاعًا من الفيضان، فأصدر الكاملُ أوامره بفتح قناطر الشَّاطئ الشَّرقي للنِّيل، فتدفقتِ المياه إلى الأراضي المنخفضة المتاخمة للنَّهر، فأوحلتْ، وصار الصَّليبيون يشقُّون طريقهم وسط البِرَك والخنادق المُوحِلَة، والفُرْسان المُسلمون من خلفهم يطاردونهم[2]، فتعثَّروا في تراجعهم وتثاقلوا، فعندما حلَّ يوم الجُمُعة ٧ رجب/ ٢٧ آب لم يكونوا قد تراجعوا إلا مسافة قصيرة، والمياه محيطةٌ بهم من كلِّ جانب، والعساكر الإسلامية سدَّتْ عليهم طريقهم الوحيدة إلى دمياط[3].

ويبدو أنَّ المعظَّم عيسى تصادَفَ وصولُه في هذا الوقت إلى مِصْر، وقد أُخبر، وهو في الطَّريق، أن الصَّليبيين يتراجعون إلى دِمْياط، فاتَّجه على الفور نحوها، يسابِقُهم إليها[4].

وحاول الملك جان دي بريين إنقاذ القوات الصَّليبية ممَّا حاق بها، فحثَّ جنودَه على المقاومة والصُّمود، وجمع بعض الفرسان الرُّهبان لدَفْعِ المُسْلمين، فنَشِبَتْ معركة استمرَّت حتى فجر يوم السبت ٨ رجب/ ٢٨آب، قُتل فيها ألوفُ الصَّليبيين.

ومع شروق الشَّمس كانت سِهام المُسْلمين ما تزال تنهالُ عليهم من كلِّ صوب، وقد عَجَزَت خيولهم من الطَّمي والمياه الغامرة عن الحركة، فغدا الصَّليبيون كالضَّفادع في الماء، أو كالسَّمك في الشِّباك، على حدِّ تعبير أحدهم، وقد هدَّهم الجوع والإرهاق، وحينئذٍ أدركوا ألا نجاة لهم ممَّا هم فيه، فألقوا السِّلاح، ولم يعد يُسمع منهم غير البكاء والنَّحيب

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

(٢) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٢٩٩).

(٣) الحملة الصليبية الخامسة (٣٣١ ـ ٣٣٢).

(٤) الكامل (١٢/ ٣٢٨).

والأنين[١]. ورأوا أن لا حلَّ إلا بعَرْض الانسحاب بأمانٍ لقواتهم كلها لقاء تسليم دمياط للمُسْلمين[٢]. وبعد استطلاع آراء القادة العسكريين اتفقوا على إنفاذ رسول للكامل لعرض الأمر عليه[٣].

وتشاور الكامل مع أهل بيته، فأشار عليه بعضُهم ألا يؤمِّنهم، بل يأخذهم أخذًا باليد، وقد صاروا في قبضته، وبذلك يأخذ منهم دمياط، وجميعَ ما بقي لهم من البلاد السَّاحلية في الشَّام.

ولم يرَ الكامل هذا برأي، فقال: إنَّ هؤلاء ليسوا جميع الفرنج، وإذا أبدناهم لا نقدِرُ على أخذ دمياط إلا بمطاولةٍ وحروبٍ كثيرة[٤]، ولا سيَّما أنَّها ذاتُ أسوار منيعة، والفرنج زادوا في تحصينها عندما استولوا عليها، ولا يُؤْمن مع طول محاصرتها أن يَفِدَ ملوكُ الفرنج نجدةً لمن فيها[٥]، وحينئذٍ سيقدم إلينا منهم أضعاف هؤلاء، وتعود الحربُ جَذَعَة، والعساكر قد ضَجِرَتْ من الحرب وكلَّت[٦].

فاتفقتِ الآراء على بَذْل الأمان لهم، وتسلُّم دمياط منهم[٧]. وبينما كانت المُراسلات متردِّدة بين الطَّرفين قدم المعظمُ من جهة دمياط، فازداد موقفُ المسلمين قوة، وموقف الصَّليبيين خِذْلانًا ووَهْنًا[٨]. ودامتِ المفاوضاتُ بينهم حتى يوم الإثنين ١٠ رجب ٦١٨هـ/ ٣٠ آب ١٢٢١م[٩]. وتمَّ الاتفاق على انسحاب قوات الصَّليبيين بأمانٍ لقاء تسليم دمياط[١٠]، وتبادُلِ الأسرى، وعَقْد هُدْنة مُدَّتُها ثماني سنين[١١]، يكون خلالها لأي ملك

---

(١) الحملة الصليبية الخامسة (٣٣٢ ـ ٣٣٣).
(٢) مفرج الكروب (٤/ ٩٧).
(٣) الحملة الصليبية الخامسة (٣٣٣).
(٤) مفرج الكروب (٤/ ٩٧).
(٥) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٤).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ٩٧).
(٧) مفرج الكروب (٤/ ٩٨).
(٨) الكامل (١٢/ ٣٣٠).
(٩) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٠١).
(١٠) مفرج الكروب (٤/ ٩٧).
(١١) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٥)، وتنتهي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م.

أوروبيٍّ الحقُّ في خَرْقها[١]. على أن يأخذ الكاملُ رهائن من ملوكهم لا من أمرائهم إلى حين تسليم دمياط[٢].

وفي يوم الأربعاء ١٢ رجب/ ١ أيلول، وهو اليوم الرَّابع لاستسلام الصَّليبيين، أمَرَ الكامل بإقامة السُّدود، فانحسرتْ مياه الفيضان عن معسكرهم، المحصور بين النِّيل وبحر أشمُوم، وبذلك تمكَّن الصَّليبيون من السير شمالًا حتى وصلوا إلى قرب العادلية، وهناك أقام لهم الكامل جسرًا ليعبروا إلى جِيْزة دمياط، متجنِّبًا بذلك دخولهم إليها. وبعد تكامل خروجهم من معسكرهم الغارق بالأوحال سُلِّمت دمياط للمسلمين، بعد أذان العَصْر من يوم الأربعاء ١٩ رجب ٦١٨هـ/ ٨ أيلول ١٢٢١م[٣]. وعَهِدَ الكاملُ باستلامها إلى الأمير شجاع الدِّين جلدك المُظفَّري، وولاه إيَّاها[٤].

وفي اليوم الذي سُلِّمت فيه دمياط جلس الكاملُ محمد بظاهر البرمون مجلسًا فخمًا، في خيمة كبيرة عالية، ومدَّ سِماطًا عظيمًا، وأحضر ملوك الصَّليبيين، ووقف المعظم عيسى والأشرف موسى والملوك في خِدْمته، فهالَ الصَّليبيين ما شاهدوه من عظمة وبهاء[٥]، وقام الشَّاعر الحِلِّي، فأنشد بين يديه:

هنيئًا فإنَّ السَّعْدَ راحَ مُخَلَّدا   وقد أنجز الرحمٰنُ بالنَّصْرِ مَوْعدا
حبانا إلٰهُ الخَلْقِ فتحًا بدا لنا   مُبينًا وإنعامًا وعزًّا مُؤَبَّدا

إلى أن يقول:

أعُبَّادَ عيسى إنَّ عيسى وحِزْبَه   وموسى جميعًا يخدِمُون محمَّدا[٦]

---

(١) الحملة الصليبية الخامسة (٣٣٤). (٢) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٤).
(٣) الحملة الصليبية الخامسة (٣٤٣ ـ ٣٤٤)، والمذيل على الروضتين (٢/ ٤١)، ومفرج الكروب (٤/ ٩٩).
(٤) مفرج الكروب (٤/ ٩٩).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٥٨)، ومفرج الكروب (٤/ ٩٨ ـ ٩٩)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٥).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

وأشار عند قوله عيسى إلى المعظَّم، وعند قوله موسى إلى الأشرف، وعند قوله محمدًا إلى الكامل، وهذا من أحسن شيء اتُّفق، على حدِّ تعبير أبي شامة[١].

وفي اليوم نفسه أُطلقت الرَّهائن، وتمَّ جلاء القوات الصَّليبية عن مِصْر، فرجع بعضُها إلى أورُبة، وبعضها الآخر إلى عكا[٢].

ودخل المسلمون دمياط، ورأوا تحصين الصَّليبيين لها تحصينًا عظيمًا، فغدت لا تُرام، ولا يُوصل إليها[٣]. ثم دخلها من بعدُ الكامل بعساكره[٤]، وفي خدمته إخوتُه وملوكُ بيته، وكان لدخوله مسرَّة عظيمة، وابتهاجٌ زائد، ثم رجع الكامل إلى القاهرة، فدخلها في **١٢** رمضان **٦١٨**هـ/ **٣٠** تشرين الأول **١٢٢١**م[٥].

ولم ينس الكامل وقوف أخيه المعظم إلى جانبه في هذه المحنة العظيمة، ولعله في هذا الموطن قال لسبط ابن الجوزي مادحًا له: ومَنْ حَفِظَ عليَّ البلاد وأحياني بعد الموت غيرُه![٦].

وعمَّتِ البشائر برجوع دمياط إلى المُسْلمين[٧].



---

(١) المذيل على الروضتين (١/ ٣٤٦).

(٢) الحملة الصليبية الخامسة (٣٤٤).

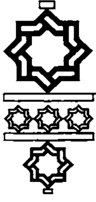
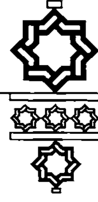
(٣) الكامل (١٢/ ٣٣١).

(٤) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٥).

(٥) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٤٦).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٢).

(٧) مفرج الكروب (٤/ ١٠٥)، والكامل (١٢/ ٣٣١).

وتنافرتْ قلوبُ الإخوة

- ١ -

بعد هذا الانتصار العظيم في مِصْر على الصَّليبيين، رجع الأشرف موسى إلى بلاده في الشَّرق[١]، ورجع أخوه المعظم عيسى إلى دمشق[٢]. وكان المعظَّم مزهوًّا بهذا الانتصار، لاعتقاده أنَّ له اليدَ الطُّولى في إنجازه[٣]، ومن ثم تشوَّفت نفسه إلى توسيع مملكته بالشَّام بضمِّ حمص وحماة إليها[٤]، ولعله ظنَّ أن أخويه لمنزلته عندهما[٥] لن يمانعا في ذلك، فبات ينتظر الوقت المناسب لتحقيق ما عزم عليه.

وقد بدا له أن الفرصة سنحت لتحقيق مآربه حين عنَّ للأشرف سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م أن يرجع إلى مصر متنزِّهًا، ويقيم عند أخيه الكامل[٦]، فتوجَّه المعظَّمُ إلى حماة بعساكره في ذي الحجة سنة ٦١٩هـ/ كانون الثاني ١٢٢٣م لمحاصرتها[٧]، تاركًا صديقه سبط ابن الجوزي في دمشق يداوي ظهره إثر سقوطه عن هجينٍ له نَفَرَ به في مشهد القدم، وهو يتهيَّأ للمسير مع القافلة إلى الحجِّ[٨].

---

(١) الكامل (١٢/ ٤٦٣)، ومفرج الكروب (٤/ ١٠٥).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٥٩).
(٣) الكامل (١٢/ ٤٧٢)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٤٢)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٠).
(٤) مفرج الكروب (٤/ ١٢٨).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٢).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ١١٦).
(٧) مفرج الكروب (٤/ ١١٧).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦١).

ووصلت أخبارُ حصار المعظَّم لحماة إلى أخويه الكامل والأشرف في مِصْر، فغضب الأشرف، وخاف أن يهدِّد المعظم بلاده في الشَّرق، فقال للكامل: إنْ تركنا المعظَّم يحاصر حماة ويأخذها تعدَّى إلى غيرها، وأطمعتْه نفسه بالاستيلاء على البلاد كلِّها، والمصلحة الإنكار عليه، وتهديدُه وتخويفه من مَغَبَّة فِعْله، والتقدُّم إليه بالرُّجوع إلى بلاده.

فأرسل الكاملُ إلى المعظم بالرَّحيل عن حماة، فأُسْقِط بيده، ولم يكن أمامه إلا السَّمْع والطَّاعة لأخيه السُّلطان[1]. فصالح صاحبَها النَّاصر قليج أرسلان على مضض، ورحل مُغْضَبًا حانقًا على أخويه.

وابتدأتِ الوَحْشة بين المعظم وأخويه الكامل والأشرف[2]، وأَسْلَمَتْه هذه الوَحْشة ـ وقد رأى اتفاقهما عليه ـ إلى التوهُّم منهما، وأنهما يخطِّطان لقصد بلاده وانتزاعها منه[3]، فازداد نفورًا منهما[4].

* * *

في غمرة تلك الأحداث يتزوَّج سبط ابن الجوزي سنة **٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م**، وهو في نحو التَّاسعة والثَّلاثين من عمره، من زينب ابنة قاضي حماة أبي القاسم الحسين بن حمزة بن الحسين. ولا ندري هل هي أولى زوجاته، أم أنَّه خصَّها بالذِّكْر لمنزلة أبيها؟ فقد كان ـ كما وصفه ـ رجلًا فاضلًا سَمْحًا، كريمًا، لا تنزل قِدْرُه عن النَّار، يُضيف الخاصَّ والعام، وما اجتاز بحماة أحدٌ من الملوك والأكابر إلا وأضافه، وكان السُّلطان صلاح الدِّين بن أيوب يحبُّه ويحترمه. وكان لا يقبل بِرَّ أحدٍ، لا من صلاح الدِّين ولا من غيره. فلما مات سنة **٥٨٧هـ/ ١١٩١م**، ترك ابنته زينب وهي صغيرةٌ، فتزوَّجها حين بلغتْ رجلٌ من أهل حماة، ثم مات عنها، فتزوَّجها سبط ابن الجوزي في ذلك العام[5].

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ١٢٧).
(٢) مفرج الكروب (٤/ ١٢٨).
(٣) مفرج الكروب (٤/ ١٣٧).
(٤) الكامل (١٢/ ٤٦٣).
(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٣٩١).

وكانت زينب صالحة دَيِّنة، متفقِّهة، سمعتِ الحديث من بعض مُسْندي عصرها. وورثت عن أبيها الكَرَم، إضافة إلى مهارتها في عمل ألوان الطبايخ والحلاوات، فصار أصدقاؤه من الملوك يرغبون في صَنْعتها، ويُعجبهم طعامُها[١].

* * *

وأما المعظَّم فقد راح في تلك الأثناء يسعى للتحالف مع أعداء أخويه[٢]، وهو المحصور بينهما: الأشرف في الشَّمال والشَّرق، والكامل في مِصْر، وظهر له ذلك الحليف في أقصى الشَّرق.

كان السُّلطان جلال الدِّين مَنْكَبُرْتي قد عاد إلى بلاده من الهند بعد أن قضى فيها نحو ثلاث سنين هاربًا من التَّاتار[٣]، ووصل إلى كَرْمان سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م[٤]، ثم أعاد السيطرة على معظم بلاده[٥] بعد أن خفَّت عنها هجماتُ التاتار[٦].

ولم يكن جلال الدِّين، طوال سنوات محنته، لينسى عداوته للخليفة النَّاصر لدين الله، فهو في رأيه السَّببُ في هلاك أبيه السُّلطان علاء الدِّين محمد بن تُكُش، ومجيء التَّاتار إلى بلاده[٧]. ومن ثم كان عازمًا على قَصْد بغداد في أول سانحةٍ تسنحُ له[٨].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٠).
(٢) الكامل (١٢/ ٤٦٤).
(٣) ينظر: «نزهة المقلتين» (١٢٧، ١٣٥).
(٤) سيرة السلطان جلال الدين (١٧٤).
(٥) تاريخ جهانكشاي (٢/ ٥٢).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ١٣٤).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٧٣).
وفصَّلتُ في كتابي «ما بعد صلاح الدين» أسباب اجتياح التاتار للدولة الخوارزمية، وما ارتكبه السُّلطان علاء الدين محمد بن تُكُش من أخطاء في سياسته. أرجو أن ينشر قريبًا، إن شاء الله تعالى.
(٨) تاريخ جهانكشاي (٢/ ٥٧).

فلما استولى على أَذْرَبِيجان سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م[(١)]، وجَّه من هناك القاضي مجير الدِّين عمر بن سعد الخُوارَزْمي رسولًا إلى الأشرف والمعظم والكامل، يبلغهم تملكه أَذْرَبِيجان، وعزمه على غزو بلاد الكُرْج، ورغبته في موالاتهم[(٢)].

واهتبل المعظَّم هذه السِّفارة، فأرسل إلى جلال الدِّين الملق الصُّوفي رسولًا إليه[(٣)]، صُحْبة القاضي مجير الدِّين[(٤)]، يخطبُ ودَّه[(٥)].

ويموت الخليفة النَّاصر لدين الله[(٦)] في آخر ليلة من شهر رمضان سنة ٦٢٢هـ/ ٥ تشرين الأول ١٢٢٥م، وهو يرى تنامي قوة عدوِّه اللَّدود جلال الدِّين، ويلي الخلافة بعده ابنه الظَّاهر بأمر الله[(٧)].

---

(١) الكامل (١٢/ ٤٣٢).

(٢) سيرة السلطان جلال الدين (١٩٤)، ونزهة المقلتين (١٤٧ ـ ١٤٨، ١٥٠)، وينظر: «السلوك» (ج١/ ق١/ ٢٥٢).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٧١).

(٤) سيرة السلطان جلال الدين (٢٠٩)، ونزهة المقلتين (١٥٩).

(٥) يبدو من سياق الأحداث أن هذه هي سفارة المعظم الأولى إلى جلال الدين، بعد استيلائه على أذربيجان، إذ غدا قوة يمكن الاعتماد عليها.

أما ما ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) ـ وتابعه عليه أبو شامة في «المذيل على الروضتين» (١/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠) ـ من أن المعظم أرسل الصدر البكري؛ محتسب دمشق إلى جلال الدين سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، ليتفق معه على أخويه: الأشرف والكامل، فهو خبر لا يصح؛ لأن جلال الدين كان في تلك السنة لا يزال في الهند، ولم يخرج منها إلا سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، كما سلف (ص١٢٣) من هذا الكتاب.

(٦) هو أبو العباس أحمد بن الخليفة المستضيء بأمر الله الحسن بن يوسف، ولد سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، وبويع بالخلافة سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م، فأقام في الخلافة حتى وفاته نحو سبع وأربعين سنة، وقد استقصيت مصادر ترجمته في تحقيقي لكتاب «المذيل على الروضتين» (١/ ٣٧٩).

(٧) الكامل (١٢/ ٤٣٨، ٤٤١)، ومفرج الكروب (٤/ ١٥٨، ١٧١).

في تلك الأيام كان سِبْط ابن الجوزي في جامع الحنابلة بالصَّالحية يقرأ كتاب «غريب الحديث» لابن قتيبة على الشَّيخ بهاء الدِّين عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن أحمد المقدسي[١]؛ ابن عمِّ الحافظ الضِّياء[٢]، بعد قدومه من نابُلُس[٣]. وربما شاركته في القراءة عليه والسَّماع منه زوجته زينب بنت أبي القاسم[٤]. ويسمع كذلك من أبي المجد محمد بن الحسين بن أبي المكارم أحمد القَزْويني «شرح السُّنَّة» و«معالم التَّنْزيل» للحسين بن مسعود البَغَوي[٥].

ـ ٢ ـ

وفي بغداد تزداد منزلة خاله محيي الدِّين يوسُف ابن الجوزي علوًّا، فيرسله الخليفة الظَّاهر بأمر الله سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م رسولًا للمعظم، وهي سِفَارته الأولى إليه، ليُثْنيه عن تحالفه مع جلال الدِّين عدوِّ الخِلافة[٦]، وقد أمره أن يخاطب المعظَّم بشهريار الشَّام[٧]. وينقل لنا سبط ابن الجوزي ما دار بينهما من حوار بهذا الشأن، كما حدَّثه به المعظَّم في خلوةٍ من خَلَواته معه، وكأنَّه يعتذر له عن قبول هذه الوساطة. قائلًا له: «قال خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي إلى إخوتك، ونُصلح بينكم. فقلت له: إذا رجعتُ عن الخوارزمي وقصدني إخوتي، تُنْجدوني؟ قال: نعم. قلتُ: ما لكم عادة تُنجدون أحدًا، هذه كُتُبُ النَّاصر عندنا، ونحن على دمياط، ونحن نستصرخُ به، فيجيء الجواب بأنْ قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة، ولم

---

(١) مرآة الزمان (٤/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥).
وروى عنه أحاديث كذلك (١/ ٢٠٨، ٢/ ١٩٩)، وترجم له (٢٢/ ٢٨٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٧٠).
(٣) توفي بهاء الدين سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، وكان قد قدم دمشق قبل وفاته بيسير. ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٢٧١).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٠).
(٥) تذكرة الخواص (٣١٣)، وتنظر ترجمته في: «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٧٢٢ ـ ٧٢٣).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٧٨، ٢٧٩).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٢).

يفعلوا. وقلتُ له: مَثَلي معكم كمَثَل رجلٍ كان يخرجُ من وقت السَّحر من داره يُصلِّي في المسجد، وبيده عُكَّاز خوفًا من الكلاب التي للمحلَّة، فقال له بعضُ أصدقائه: أنت شيخٌ كبير، وهذا العُكَّاز يثقلك، وأنا أعلِّمُك شيئًا يُغنيك عن حَمْله، قال: وما هو؟ قال: تقرأ سورة يس عند خروجك من الدَّار، وما يقربك كلب. وأقام مُدَّة، فرأى الشيخَ في بعض الليالي حاملَ العُكَّاز، فقال له: ما قد علمتك ما يُغنيك عن حمله؟ فقال: هذا العُكَّاز لكلب لا يعرف القرآن! وقد اتفق إخوتي عليَّ، وقد أنزلتُ الخوارزمي على خِلاط، إنْ قصدني الأشرف مَنَعَه، وإنْ قصدني الكامل فيَّ له»[1].

وكان محيي الدِّين يوسف قد قدم بخِلْعة الخليفة، وكان رسولُ جلال الدِّين قد سبقه بيومين، ومعه خِلْعةٌ وفرس وحربتان. فقال يوسُف لابن أخته: أبصر أيش يعمل، إن لبس خلعة الخوارزمي قبل خِلْعة الخليفة كان وَهْنًا علينا. فكتب سبط ابن الجوزي ورقة للمعظَّم، يعرِّفه فيها ما يجب من طاعة الإمام، ويقول له: إنَّ خالي سألني في هذه القضية، فبيِّض وجه هذه الشَّفاعة. فكتب المعظم إليه: السَّمع والطاعة، مهما أمرتَ ما أخالف.

وفعلًا لبس المعظم خِلْعة الخليفة قبل خلعة جلال الدِّين، فسار إليه سبط ابن الجوزي بعد يومين ليَشْكُره، وكان المعظَّم عند مشهد القدم، فبينا هو عنده إذ قدم خاله محيي الدِّين يوسف، فسلَّم عليه، فقال المعظم للسِّبْط: تعال معي، فلي إليك شُغل، وهذا خالك أريد أن أُضيفه. ورجعوا جميعًا حتى إذا وصلوا إلى قلعة دمشق، قال المعظم للسبط: فبالله ادخل معنا، واقعدْ ساعة. فدخل سبط ابن الجوزي، وعمل المعظم سِماطًا عظيمًا، فلما أكل خاله وانصرف، وتفرَّق الناس، وأُذِّن للظُّهر، قال للمعظم: أيش قعودي؟ فقال المعظَّم: وأيش تَمَّ من الحوائج؟ قال السِّبط: فأنت من مشهد القدم تقول تقدَّم، وتقول السَّاعة: وأيش تَمَّ من الحوائج!

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

فقال له المعظم: هذا وأنت بغدادي! ما أردتُ إلا أن يرى خالك منزلتك عندي، فيحكي للخليفة ذلك. فدَمَعَتْ عينا سبط ابن الجوزي، وقال له: حرامٌ عليَّ صُحْبة غيرك[١].

ولم يكن سبط ابن الجوزي يرى تحالفه مع جلال الدِّين، وكان يقول للمعظم ناصحًا له: «الله الله لا تغترَّ بالخوارزمي فما يدومُ، والخِلافة في بني العباس باقية، ومعاداةُ الخُلَفاء ما هي هيِّنة»[٢].

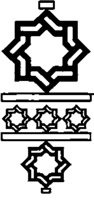
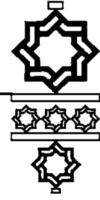
* * *

ويُتوفَّى الأمير شِبْلُ الدَّولة كافور بن عبد الله الحُسامي؛ صديق سبط ابن الجوزي في رجب من هذه السنة؛ أي: سنة **٦٢٣**هـ/ تموز **١٢٢٦**م، ويوقف داره[٣]، وهي قُبالة التُّرْبة البدرية[٤]، مدرسةً لأصحاب أبي حنيفة، ويُدفن في تربة إلى جانبها[٥]. فيفوِّض المعظم إلى سبط ابن الجوزي تدريسها، ويحضُرُ درسه عند افتتاحها أعيانُ دمشق، لا يتخلف منهم أحد[٦]، وممن كان يحضر دروسه فيها المحدِّث الفقيه ابن الصَّلاح[٧].



---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٩).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ١١٧)، وينظر: (ص ١٠٣، ١١١) من هذا الكتاب.
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٧٩).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٣).

وفاة المعظم والصراع على دمشق

ـ ١ ـ

ولصَرْف المعظَّم عن تحالفه مع السُّلطان جلال الدِّين مَنْكَبُرْتي، رأى الكامل أن يلجأ إلى خُطَّة قد تكون أنجعَ في فَصْم عُرى هذا التَّحالف الذي اقترب خطره من مصر[١]، وينذر بزوال حُكْم البيت الأيوبي، وذلك بإشغال المعظَّم بخطرٍ يتهدَّدُه، ويُشعره بالحاجة إلى إخوته والاستعانة بهم، وهل غيرُ الخطر الصَّليبي يفعلُ ذلك؟ فأرسل الكاملُ الأميرَ فخر الدِّين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور فريدريك الثَّاني، يدعوه للقدوم إلى عكَّا، ويَعِدُه بإعطائه بيت المقدس، وهو تابعٌ للمعظَّم، وبعضَ البلاد السَّاحلية التي فتحها عمُّه السُّلطان صلاح الدِّين بن أيوب[٢].

وحين بلغ المعظَّم خبرُ هذه السِّفارة، قرَّر عندئذٍ أن يقطع كلَّ صِلةٍ له بالبيت الأيوبي، ويفزع إلى حليفه جلال الدِّين، مستنجدًا به على أخيه الكامل، ويَعِدُه أن يدخل في طاعته، فيخطب له، ويضرب السِّكَّة باسمه. ووافق جلال الدِّين على هذه التَّبعية، وسيَّر إليه خِلْعة، فلبسها المعظم، وشقَّ بها سِكَك دمشق، معلنًا انتماءَه الجديد، وقَطْعَ خُطْبة الكامل[٣].

* * *

(١) كانت ولاية دمشق زمن المعظم تمتد من جنوبي حمص، وحتى عريش مصر، تنظر: الحاشية رقم ١ (ص ٩٠) من هذا الكتاب.

(٢) مفرج الكروب (٤/٢٠٦ ـ ٢٠٧، ٢٣٤)، والسلوك (ج١/ق١/٢٥٨ ـ ٢٥٩).

(٣) السلوك (ج١/ق١/٢٥٩).

وكانت هُدْنة الكامل مع الصَّليبيين تنتهي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م[١]؛ أي: بعد نحو سنتين من الآن، وكانتِ الأخبار تصلُ إليه من هناك، كما تصلُ إلى المعظَّم[٢]، متحدِّثة عن إعداد حملة صليبية جديدة، يقودُها الإمبراطور فردريك الثَّاني[٣].

فمنذ هزيمة الصَّليبيين في دِمْياط سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، قام الملك جان دي بريين بزيارة إلى أورُبة، ملتمسًا مساعدتها، وباحثًا عن زوج لابنته يولاند التي ورثت عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة والدتها[٤]، وقد اختير الإمبراطور فردريك الثاني زوجًا لها، وعُقد قرانهما سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م[٥]، فأصبح فردريك بذلك إمبراطورًا على ما يُسمَّى مملكة بيت المقدس[٦]. وبارك البابا هونوريوس الثَّالث هذا الزَّواج، آملًا من ورائه أن يفي الإمبراطور أخيرًا بوعوده، ويتوجَّه إلى الشَّرق بحملته الصَّليبية[٧].

ومع أن الإمبراطور فردريك الثاني استقبل سِفارة الكامل أحسنَ استقبال، إلا أنَّه لم يبذل وعودًا في قَبُولها، إذ كان منهمكًا في إعداد حملة صليبية قوية. ولكي يبقي بابَ المفاوضات مفتوحًا، أرسل رسولًا إلى القاهرة[٨]، ومعه هدية وتُحَفٌ غريبة، فتلقَّاه الكامل بالقرب منها، وأكرمه إكرامًا زائدًا، واهتمَّ بتجهيز هدية سَنِيَّة للإمبراطور، وعيَّن للمسير بها الأمير جمال الدِّين ابن مُنْقذ الشَّيْزَري[٩].

ثم قدم رسول الإمبراطور هذا إلى دمشق، للاجتماع بالمعظَّم، وليتعرَّف إلى رأيه فيما عَرَضه أخوه الكامل؛ لأنَّ بيت المقدس تابعٌ له،

---

(١) السلوك (ج/١ق/١ ٢٤٥)، وينظر: (ص ١١٨) من هذا الكتاب.
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٨).
(٣) الحملة الصليبية الخامسة (٣٦٢).
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٠٩).
(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣١١ ـ ٣١٢).
(٦) العلاقات السياسية (٢٨٩).
(٧) الحملة الصليبية الخامسة (٣٦٢).
(٨) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٢٧).
(٩) السلوك (ج/١ق/١ ٢٦٠).

فأغلظ له المعظَّم في الجواب، قائلًا، وهو يُعرِّض بأخيه الكامل: قل لصاحبك، ما أنا مثل الغير، ما له عندي سوى السَّيف[1].

وراح يجهِّز عساكره إلى نابُلُس، خوفًا من اتِّفاق الكامل مع الإمبراطور[2]، وفي أثناء ذلك وقع مريضًا بالدُّوسنطاريا[3] في منتصف شوَّال سنة ٦٢٤هـ/٢٨ أيلول ١٢٢٧م[4]، ثم ما لبث أن توفي في صبيحة يوم الجمعة الفاتح من ذي الحِجَّة سنة ٦٢٤هـ/١٢ تشرين الثاني ١٢٢٧م[5]، عن نحو سبعٍ وأربعين سنة[6].

وكان يقول في مرضه: لي عند الله تعالى في أمر دِمْياط ما أرجو أن يرحمني به[7].

وبكلماتٍ تقطُرُ بالألم يصوِّر لنا صديقه سبط ابن الجوزي ساعاته الأخيرة، بقوله: «وآخر عَهْدي به ليلة الجُمُعة تاسع عشرين ذي القعدة، دخلتُ عليه آخر النَّهار، وعنده ولدُه الملك النَّاصر داود، وكريم الدِّين الخِلاطي، ويعقوب الحكيم، وقد تغيَّرت أحواله، وطلع الموت في محاسن وجهه المليح، فبكيتُ، فقال: حاشاك، حاشاك. وتحته طرَّاحة خفيفة، ومِخَدَّة ولِحاف، وعلى رأسه كُوفية، وعند رأسه صينية فيها ترابٌ، فقلتُ

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٤)، والمذيل على الروضتين (١/ ٣٩٦).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٩).

(٣) الكامل (١٢/ ٤٧١)، ومفرج الكروب (٤/ ٢٠٨).

وقال سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٨٩): «وكثرت الأقوال أنه سُقي السُّم، واتهم به جماعة، وربك الخبير».

قلت: والأرجح أنه مات بالدوسنطاريا كما ذكر ابن الأثير وابن واصل؛ لأن سبط ابن الجوزي نفسه ذكر في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٧٤) أن المعظم مرض في أواخر رمضان سنة ٦٢٢هـ/تشرين الأول ١٢٢٥م مرضًا عظيمًا أَشْفَى منه، ثم أبلَّ، ولم يزل ينتقض عليه حتى مات.

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٩).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٠).

(٦) مفرج الكروب (٤/ ٢٠٨).

(٧) الكامل (١٢/ ٤٧٢).

لكريم الدِّين: ما هذه؟ قال: يتيمَّم لكلِّ صلاة. وكان المعظم يقول: والله ما فاتتني صلاةٌ قطُّ»(١).

ثم يحدِّثه كريم الدِّين الخِلاطي عن تلك السَّاعات التي أعقبتِ انصرافه، فيقول: بات تلك الليلة ساهرًا، فغفت عينُه قبل الفجر، وكان قد قام قيامًا عظيمًا، ففتح عينيه وقد كادتِ الشَّمس أن تطلع، فلم يقدر على التيمُّم، فصلَّى بالإيماء. وكان يقول: الموت خيرٌ من الحاجة إلى النَّاس، ويقول: قد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودُخان جهنم في مَنْخري عبدٍ أبدًا**»(٢)، وكم في مَنْخري من تُرابٍ في سبيل الله(٣).

ويفقد سبط ابن الجوزي بوفاة المعظم عيسى أعزَّ أصدقائه من الملوك، ويتجلَّى حُزْنه عليه بما أغدق عليه من صفاتٍ، فقد «كان شُجاعًا، مِقْدامًا، كثيرَ الحياء، متواضعًا، مليحَ الصُّورة، ضحوكًا، غيورًا، جَوَادًا، حَسَنَ السِّيرة والعِشْرة، محافظًا على الصُّحْبة والمودَّة»(٤).

وينتشر خبر وفاته بدمشق، ويحزن عليه أهلها لحبِّهم له، فقد كان مُحْسنًا إليهم، ذابًّا عن حريمهم، رفيقًا بهم، يعرف صغيرهم وكبيرهم. ويصوِّر لنا سبط ابن الجوزي حزن أهل دمشق عليه بقوله: «وجرى على الرَّعية في وفاته ما لم يجرِ عليهم عند موت أحدٍ من المُلوك. ورأيتُ بنات البيوت اللواتي لم يخرجن قطُّ من خدورهنَّ من أوائل الليل يأتينَ إلى تحت القلعة، وقد شقَقْنَ ثيابهن ونشَرْنَ شعورهنَّ، يلطِمْنَ عليه، ثم يمشين في الأسواق، ويلطِمْنَ إلى الصَّباح، أقمن على ذلك شهرًا. وكذا في الميادين».

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٩).

(٢) بنحو هذا اللفظ أخرجه أحمد في «المسند» (٧٤٨٠)، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده.

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

ويقام العزاء له في جامع دمشق ثلاثة أيام، ويتكلَّم سبط ابن الجوزي أول يوم في عَزَائه، فيتهدَّج صوته، ويغلبه البُكاء على فِرَاقه[1].

ولعله عناه حين أجاز يومًا بيت أبي العتاهية:

وإنِّي لمشتاقٌ إلى ظلِّ صاحبٍ   يروقُ ويصفو إنْ كَدِرْتُ عليهِ

فيقول السِّبْط:

يوافِقُني في كلِّ أمرٍ أرومُه   ويغفرُ ذنبي إنْ أسأتُ إليهِ[2]

وكان المعظَّم قد وصَّى أن يُحمل إلى جبل قاسيون، ويُدفن على باب تُرْبة والدته تحت الشَّجرة، فلم تُنفَّذ وصيَّته، ودُفن في قلعة دمشق[3].

ـ ٢ ـ

لم تُثْنِ الكاملَ وفاةُ أخيه المعظَّم عن انتزاع دمشق من ابنه النَّاصر داود الذي ولي بعده، إذ كان عليه أن يحصد أخطاء سياسات أبيه، وتحالفه مع جلال الدِّين. وإلى أن تواتي الكاملُ اللحظة المناسبة لذلك، أرسل إليه في ٨ صفر سنة ٦٢٥هـ/ ١٨ كانون الثاني ١٢٢٨م منشور الولاية له[4].

وربما في خُطْوة يمهِّدُ بها لذلك أرسل الكاملُ إلى النَّاصر داود يرغب إليه أن يتنازل له عن قلعة الشَّوْبك، ليجعلها خزانة له. فقابل النَّاصر داود هذه الرَّغبة بالرَّفض، وجاهر بالجَفاء، وهذا ما كان الكامل يتوقعه، فشرع حينئذٍ في انتزاع دمشق منه[5]. وتجهَّز لمحاربته في شهر رجب سنة ٦٢٥هـ/

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٠).   (٢) مرآة الزمان (١٤/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٣) ثم أخرج من القلعة يوم الثلاثاء، مستهل المحرم سنة ٦٢٧هـ/ ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٢٢٩م، ودفن تحت قبة مدرسته المعظمية، وكان قد بناها غربي جبل قاسيون سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، وفيها قبر والدته وأخيه المغيث، وقد درست.
ينظر مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤)، والمذيل على الروضتين (١/ ١٧٣)، ووفيات الأعيان (٣/ ٤٩٥)، ومفرج الكروب (٤/ ٢١٨، ٦/ ٧٩)، والقلائد الجوهرية (١/ ٢١٩، ٢٢٩)، ومنادمة الأطلال (٢٠١).

(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٥).   (٥) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٥).

أيار ١٢٢٨م، واستنابَ على مصر ابنه الصَّالح نجم الدِّين أيوب، ومعه لتدبير أمورها الأمير يوسف بن شيخ الشُّيوخ[(١)].

وخرج الكامل بعساكره من القاهرة يوم الأحد **١٩** شعبان سنة **٦٢٥هـ/ ٢٥** تموز **١٢٢٨**م، فوصل إلى تلِّ العجول، وأقام معسكره فيه[(٢)]، وبعث وُلاته إلى نابُلُس والقُدْس والخليل، وهي تابعة للناصر داود[(٣)]، فولَّاهم عليها[(٤)].

وانزعج النَّاصر داود من استيلاء عمِّه الكامل على بلاده[(٥)]، وخاف أن يقصده، ويأخذ دمشق منه[(٦)]، فحلَّف عساكره، واستعدَّ للحرب. وقدم لمؤازرته عمُّه الصَّالح إسماعيل بن العادل، والأمير عز الدِّين أيبك المعظَّمي، فقويتْ بهما نفسه[(٧)].

ورأى النَّاصر داود أن يستعين بعمِّه الأشرف موسى كذلك، فأشار عليه الأمير عز الدِّين أيبك بمداراة الكامل، وقال له: لا تبعث إلى الأشرف، وداوِ الأخطر. فلم يلتفتِ النَّاصر إلى قوله[(٨)]، وأرسل إلى عمِّه الأشرف يستنجدُ به، ويطلب حضوره إلى دمشق[(٩)]. فوجدها الأشرف فرصة لا تفوَّت، وطالما تشوَّف إليها، لما في قلبه من محبَّة لدمشق، ومَيْلٍ إلى تملُّكها، وكان يعملُ على ذلك سرًّا[(١٠)]. فأسرع إلى دمشق مع قِلَّةٍ من عساكره[(١١)]، تاركًا جيشه في الشَّرق خوفًا من جلال الدِّين[(١٢)]. ووصل إليها في العَشْر الأخير من رمضان سنة **٦٢٥هـ/** آب **١٢٢٨**م[(١٣)]، فزُيِّنت دمشق

---

(١) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٣).
(٢) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٣).
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٧).
(٤) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٨).
(٥) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٧).
(٦) الكامل (١٢/ ٤٨٠).
(٧) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٤).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٦).
(٩) الكامل (١٢/ ٤٨٠).
(١٠) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٩)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٤).
(١١) الكامل (١٢/ ٤٨٠).
(١٢) مفرج الكروب (٤/ ٢٣٩).
(١٣) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٩).

لقدومه، وضُربت بها البشائر، ونُصبت القِباب، وخرج النَّاصر داود لاستقباله[1].

وكان الكامل قد سار إلى بيت المقدس، ثم قدم إلى نابُلُس[2]، ونزل بدار المعظَّم فيها[3]، وشَحَن تلك البلاد بالعساكر[4]. فلمَّا بلغه قدومُ أخيه الأشرف موسى إلى دمشق، رحل من نابُلُس، وعاد إلى معسكره في تلِّ العجول[5].

* * *

ويصل الإمبراطور فردريك الثَّاني بعد أيام إلى عكَّا في ٥ شوال سنة ٦٢٥هـ/ ٧ أيلول سنة ١٢٢٨م[6]. ويرسلُ فور وصوله رسولًا إلى الكامل، وهو في تلِّ العجول، يقول له: كان الجيِّد والمصلحة للمُسْلمين أن يبذلوا كلَّ شيء، ولا أجيء إليهم، والآن فقد بذلتم لنائبي في زمان حصار دمياط السَّاحل كلَّه، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا. وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم وإعادتها إليكم، ومَنْ نائبي؟ إنْ هو إلا أقلُّ غِلْماني، فلا أقلَّ من إعطائي ما كنتم بذلتموه له. فتحيَّر الكامل[7]، وشعر بالضِّيْق والحرج لاستغنائه عن الإمبراطور الآن؛ لأنَّ السَّبب في استدعائه كان المعظَّم، وقد توفي، ولا يمكنه الآن دفعه ومحاربته، لما تقدَّم بينهما من السِّفارات، فاضطرَّ إلى مراسلته وملاطفته[8]، وعيَّن الأمير فخر الدِّين يوسُف بن شيخ الشُّيوخ سفيرًا بينهما[9].

وأما الأشرف فكان مُنْشرح الصَّدر، فها هو الآن يقيمُ في دمشق، ويتنزَّه في بساتينها، وهي في الصَّيْف في غاية النَّضارة وحُسْن الفواكه،

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٨).
(٢) الكامل (١٢/ ٤٧٩ _ ٤٨٠).
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٨).
(٤) الكامل (١٢/ ٤٨٠).
(٥) الكامل (١٢/ ٤٨٠)، ومفرج الكروب (٤/ ٢٣٠).
(٦) العلاقات السياسية (٣٠١).
(٧) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٦).
(٨) مفرج الكروب (٤/ ٢٣٤).
(٩) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٦).

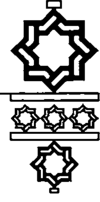
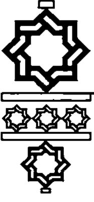
فيزداد تعلُّقه بها، ويتخذ خُطْوة لامتلاكها، فيرسل إلى أخيه الكامل رسولًا من ثِقاته، يشفع في العَلَن للنَّاصر داود، ويطلبُ منه إبقاء دمشق عليه[1]. أما في السِّرِّ فيستعطفُه، ويعرِّفه أنَّه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له، وموافقة لأغراضه[2]. فيلين الكاملُ لرجائه، ويخاطبُ رسولَه بما فيه إطماعٌ له بملك دمشق. فيطمئنُّ الأشرف حينئذٍ لذلك، ويسعى لإخراج النَّاصر من دمشق تمهيدًا لاستيلائِه عليها، فيشير عليه إشارة النَّاصح المُشْفق بأن يمضي في صُحْبته إلى نابُلُس، ويتابع هو طريقه إلى الكامل، ويصلح الأمر معه. وبغَفْلة الواثق يجيبه النَّاصر داود إلى ذلك[3]. ويصلا إلى نابلس، فيقيم الناصر داود بها، ويرحل الأشرف إلى غزة للاجتماع بالكامل[4]. فيصل إليها ليلة عيد الأضحى ١٠ ذي الحجة سنة ٦٢٥هـ/ ١٠ تشرين الثاني سنة ١٢٢٨م[5]، ويخرج الكامل لاستقباله، ويعود به إلى معسكره في تلِّ العجول[6].

وكما هو متوقع، فقد تمَّ الاتفاق أخيرًا بين الكامل والأشرف على انتزاع دمشق من النَّاصر داود، وأن تكون للأشرف وما معها من البلاد إلى عقبة فِيْق[7]. وأن يتنازل للكامل من بلاده في الشَّرق عن حرَّان والرَّقَّة والرُّها وسَرُوج ورأس عين وجملين والمُوَزَّر[8]. ويبلغ النَّاصر داود ما اتفق عليه عمَّاه، فيرحل من نابُلُس عائدًا إلى دمشق قَلِقًا خائفًا، ويستعدُّ للحصار[9].



---

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٢٩).
(٢) الكامل (١٢/ ٤٨٠، ٤٨٢).
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٢٣٠).
(٤) مفرج الكروب (٤/ ٢٣٠).
(٥) الكامل (١٢/ ٤٨٠).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ٢٣٠).
(٧) مفرج الكروب (٤/ ٢٣١).
(٨) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٨).
(٩) مفرج الكروب (٤/ ٢٣٩).

تسليم الكامل القُدْس للصَّليبيين ومعاداة سِبْط ابن الجوزي له وإنكاره عليه

- ١ -

كان على الكامل أن يتمَّ أمر الصُّلح مع الإمبراطور فردريك الثَّاني، ليتفرَّغ من بعدُ للنَّاصر داود. وكان الإمبراطور متمسِّكًا بما عَرَضَه عليه الكامل قبل وفاة المعظم عيسى، من تسليم بيت المقدس إليه، مع بعض البلاد السَّاحلية التي فتحها عمُّه السُّلطان صلاح الدِّين بن أيوب(١). أما الآن، وقد تغيرتِ الأحوال، فإنَّ الكامل لم يعدْ مُلزمًا بما عَرَضه عليه، وفي الوقت نفسه لم يكن راغبًا بالحرب، فهي إن اشتعلتْ قد تتَّسع، وتُفْسد عليه خُطَطه في ترتيب البيت الأيوبي. وأقصى ما يمكن أن يقدِّمه للإمبراطور بيت المقدس دون المسجد الأقصى وقُبَّة الصَّخْرة، على أن يبقى سوره خرابًا، وهو يعلم أن الصَّليبيين لا يمكنهم الامتناع به مع خراب سوره، وأنه يستطيعُ إخراجهم منه بيُسْرٍ حين تستتبُّ له الأمور(٢).

وبعد مفاوضاتٍ طويلة، وتردُّدِ الرُّسل بينهما(٣)، أرسل الإمبراطور مُعْلنًا موافقته على الشُّروط النِّهائية للاتفاق(٤). وفي يوم الأحد **٢٢** ربيع الأول سنة **٦٢٦**هـ/**١٨** شباط سنة **١٢٢٩**م حلف كلٌّ من الإمبراطور والكامل

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧، ٢٤١).

(٢) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٢).

(٣) الكامل (١٢/ ٤٨٣).

(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٣٠).

على ما تمَّ الاتفاق عليه[1].

وينصُّ الاتفاق على أن يأخذ الإمبراطور بيت المقدس وبِيَعَه على ما هو عليه من الخراب[2]، لا يجدِّد فيه عمارة[3]، ولا يجدِّد سوره[4]، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين، لا حُكْمَ فيها للفرنج، وأن الحَرَم بما حواه من الصَّخْرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المُسْلمين، لا يدخله الفرنج إلا للزِّيارة فقط، ويتولَّاه قوَّامٌ من المسلمين، ويقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصَّلاة. وأن تكون القُرى التي بين عكا ويافا، وبين لُدّ والقدس، بأيدي الفرنج دون ما عداها من قرى القدس[5]؛ لأنها طريقهم إلى القدس، خشية أن يغتالهم أحدٌ من المُسْلمين[6].

وعقدت هُدْنة بين الطرفين مُدَّتها عشرُ سنين وخمسة أشهر وأربعون يومًا، تبدأ في **٢٨** ربيع الأول سنة **٦٢٦**هـ/ **٢٤** شباط سنة **١٢٢٩**م[7].

ودافع الكامل عن هذا الاتفاق بقوله: إنَّا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وآدُرٍ خراب، والحَرَم وما فيه من الصَّخرة المقدَّسة وسائر المزارات بأيدي المُسْلمين على حاله، وشعارُ الإسلام قائمٌ على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكِّمٌ على رساتيقه وأعماله[8].

وغداة توقيع الاتفاق، بعث الكاملُ إلى القُدْس من ينادي بخروج المُسْلمين منه، وتسليمه للصَّليبيين. وكان المؤرِّخ ابنُ واصل الحموي مقيمًا فيه وقتئذٍ، وقد وصف لنا وَقْعَ ذلك على المُسْلمين، فقال: «لمَّا نُودي

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٣)، وتاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٣٠)، والعلاقات السياسية (٣١٤).

(٢) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٨). (٣) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٦).

(٤) كان المعظم قد هدم السور سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م. ينظر: (ص ١٠٥) من هذا الكتاب.

(٥) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٨). (٦) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٢).

(٧) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٨).

(٨) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٨).

بالقدس بخروج المسلمين، وتسليم القدس إلى الفرنج، وقع في أهل القدس الضَّجيج والبُكاء، وعَظُمَ ذلك على المسلمين، وحزنوا لخُروج القُدْس من أيديهم، وأنكروا على الكامل هذا الفِعْل واستشنعوه منه، إذ كان فتحُ هذا البلد الشَّريف واستنقاذه من الكُفَّار أعظمَ مآثر عمِّه النَّاصر صلاح الدِّين»[١].

ولم يكتفِ أهلُ القدس بذلك، بل إنَّ الأئمَّة والمؤذِّنين فيه حضروا إلى مخيَّم الكامل في تلِّ العجول، وأذَّنوا على بابه في غير وقت الأذان، تعبيرًا عن رفضهم تسليم القُدْس. فعزَّ عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم من السُّتور والقناديل الفِضَّة والآلات، وزجرهم، وقيل: امضوا إلى حيث شئتم. واشتدَّ الإنكارُ على الكامل، وكثرت الشَّناعات عليه في سائر الأقطار[٢]. فأرسل الكاملُ جمال الدِّين الكاتب الأشرفي إلى البلاد الشَّرقية وإلى الخليفة لتسكين قلوبِ النَّاس، وتهدئة انزعاجهم لتنازله عن القُدْس[٣].

وتمَّ إخلاءُ بيت المقدس من المُسْلمين، وتسليمه للصَّليبيين في أول ربيع الآخر سنة ٦٢٦هـ/ ٢٧ شباط ١٢٢٩م[٤].

ـ ٢ ـ

ولمَّا وصل إلى دمشق الخبرُ بإخلاء بيت المقدس توغَّرت قلوبُ أهلها على الكامل[٥]، وأخذ النَّاصر داود في التَّشْنيع عليه. وأشار على سبط ابن الجوزي أن يجلس بجامع دمشق، ويذكر ما جرى على بيت المقدس[٦]، ويذكر فضائِلَه، وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يحزِّن النَّاس، ويذكر ما في تسليمه إلى الكُفَّار من الصَّغار للمسلمين والعار، قاصدًا من وراء ذلك تنفير الناس من عمِّه، ليناصحوه في قتاله[٧].

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٣).
(٢) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٩).
(٣) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٧١).
(٤) الكامل (١٢/ ٤٨٢)، والمذيل على الروضتين (٢/ ٩).
(٥) المذيل على الروضتين (٢/ ٩).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٦).
(٧) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٥).

وكان عند سبط ابن الجوزي من الغضب والألم لتسليم القدس، ما جعله يستجيبُ على الفور لما طلبه منه الناصر داود، ويحدِّثنا عن مجلسه ذاك، فيقول: «فما أمكنني مخالفته، ورأيتُ من جُمْلة الدِّيانة والحَمِيَّة للإسلام موافقته. فجلستُ بجامع دمشق، وحضر النَّاصر داود على باب مشهد عليٍّ، وكان يومًا مشهودًا، ولم يتخلَّف من أهل دمشق أحد»[1].

ويصدَحُ صوتُ سبط ابن الجوزي في أرجاء الجامع، مستثيرًا عواطف مستمعيه بعباراته، مزوِّقًا كلامه بأسْجَاعه، وقد تعالى بكاؤهم، فكان ممَّا قال: «انقطعتْ عن بيت المقدس وفودُ الزَّائرين، يا وَحْشةَ المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن مِنْ رَكْعة، كم جَرَتْ لهم على تلك المساكن من دَمْعة، تالله لو صارت عيونُهم عيونًا لمَا وَفَتْ، ولو تقطَّعت قلوبُهم أسفًا لما شَفَتْ، أحسنَ الله عزاء المُسْلمين، يا خَجْلة ملوك المسلمين، لمثلِ هذه الحادثة تُسْكبُ العَبَرات، لمثلِها تنقطعُ القلوبُ من الزَّفرات، لمثلها تَعْظُمُ الحَسَرات»[2].

وكان صديقه[3] الرَّئيس الفاضل شهاب الدِّين أبو يوسُف يعقوب بن محمد الشَّيْباني الدِّمَشْقي، المعروف بابن المجاور[4]، قد نظم قصيدة حسنة في رثاء بيت المقدس حين خرب المعظم سُورَه، وهجَّ النَّاس منه[5]، فرأى سبط ابن الجوزي أنَّ الحال يقتضي إنشادها الآن، فممَّا قاله منها:

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٦).

(٢) يبدو أن سبط ابن الجوزي أورد في «مرآته» تلك الكلمة بتمامها، ولم يُبق قطب الدِّين منها في اختصاره إلا تلك الجُمَل، إذ قال عقبها: وذكر كلامًا طويلًا. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٧).

(٤) وهو من بيت رياسة، وزر للأشرف موسى في بلاد الشرق، وتوفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م، تنظر ترجمته في: «صلة التكملة» للحسيني (١/ ١٢٠ ـ ١٢١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٤/ ٤٨٩).

(٥) كتاب الروضتين (٤/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥)، وينظر: (ص ١٠٥) من هذا الكتاب.

أعَيْنَيَّ لا تَرقِّي من العَبَراتِ　　صِلِي بالبُكا الآصالَ بالبُكُراتِ
وأذْرِي دموعًا كالشَّرار يطيره　　لهيبُ الحشا من عاصفِ الزَّفراتِ
لعلَّ سيولَ الدَّمْع يُطفئ فيضُها　　تَوَقُّدَ ما في القلبِ من جمراتِ
ويا فمُ بُحْ بالشَّجْوِ منك لعلَّه　　يُروِّحُ ما ألقى من الكُرُباتِ
على المسجدِ الأقصى الذي جَلَّ قَدْرُه　　على موطنِ الإخْباتِ والصَّلواتِ
على سُلَّم المِعْراجِ والصَّخْرةِ التي　　أنافَتْ بما في الأرض من صَخَراتِ
على القِبْلَة الأولى التي اتَّجَهَتْ لها　　صلاةُ البرايا في اختلافِ جهاتِ

ومنها:

خلا من صلاةٍ لا يَمَلُّ مقيمُها　　تُوَشَّحُ بالآيات والسُّوَرَاتِ
خلا من جسوم بالعبادةِ نُحَّلٍ　　ومن أوجهٍ بالخوف مُمْتقعاتِ
خلا من أنين النَّادمين على الذي　　بدا منهمُ من سالفِ الفرطاتِ
لتبكِ على القدس البلادُ بأسرها　　وتعلنُ بالأحزانِ والتَّرَحاتِ

ويختمها بقوله:

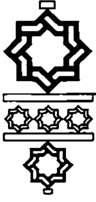
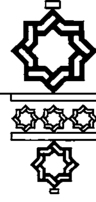
أما عَلِمَتْ أبناءُ أيوبَ أنَّهمْ　　بمَسْعاتِهِ عُدُّوا من السَّرَواتِ
وأنَّ افتتاحَ القُدْس زهرةُ مُلْكهمْ　　وهل ثمرٌ إلا من الزَّهراتِ
فمن لي بنُوَّاحٍ يَنُحْنَ على الذي　　شَجانا بأصواتٍ لهنَّ شُجاةِ
يُرَدِّدْنَ بيتًا للخُزاعيِّ قاله　　يُؤَبِّنَّ فيه خِيْرَةَ الخِيَرَاتِ
مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوةٍ　　ومَنْزِلُ وَحْيٍ مُوْحِشُ العَرَصاتِ[1]

وعلا يومئذٍ ضجيجُ النَّاس وبكاؤهم، ولم يُر في ذلك اليوم إلا باكٍ أو باكية[2].

---

(١) وكذلك يبدو أن سبط ابن الجوزي أورد هذه القصيدة بتمامها في «مرآته»، واختار قطب الدين اليونيني منها أربعًا وثلاثين بيتًا في اختصاره. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨)، وأورد بعض أبياتها كذلك أبو شامة في «كتاب الروضتين» (٤/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

(٢) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٦).

رحيلُ سبط ابن الجوزي عن دمشق بعد تملُّكِ الأشرف لها

- ١ -

وسارع الأشرفُ عقيب الاتِّفاق مع الصَّليبيين بالمسير مع العساكر في ربيع الآخر سنة ٦٢٦هـ/آذار ١٢٢٩م لحصار دمشق، ونزل وراء مسجد القدم[١]، ثم أحاط بها، محاصرًا لها[٢]. وقَطَعَ عنها أنهارها: باناس، والقنوات، ثم يزيد وثورا. ونُهبت البساتين، وأُحرقت الجواسق، وتأذَّتِ الأشجارُ من العَطَش[٣]. فخرج إليه عسكرُ دمشق، وقاتلوه أشدَّ قتال، وساعدهم في قتالهم أهلُ دمشق لمحبَّتهم للنَّاصر داود حتى أعادوا الماء[٤].

فراح الأشرف يستحثُّ أخاه الكامل على الحضور[٥]، للتَّضييق على دمشق. فما إنِ اطمأن الكاملُ إلى رحيل الإمبراطور من عكَّا، حتى اتَّجه بعساكره من تلِّ العجول نحو دمشق[٦]، فوصل إليها في ٩ جمادى الآخرة سنة ٦٢٦هـ/ ٥ أيار ١٢٢٩م، ونزل بالقُرْب من مسجد القدم، وأمر بإجراء نهري يزيد وثورا لأجل سقي الأراضي[٧]، وقطع عنها نهري باناس والقنوات[٨]، فاشتدَّ الحصار، وعَظُمَ الخَطْب على أهل دمشق[٩]، لانقطاع

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ١٠).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٩).
(٣) المذيل على الروضتين (٢/ ١٠).
(٤) مفرج الكروب (٤/ ٢٣٩)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٦٨).
(٥) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٧٢).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٢).
(٧) المذيل على الروضتين (٢/ ١٠).
(٨) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).
(٩) الكامل (١٢/ ٤٨٤).

الماءِ عنهم، ومع ذلك لم يستسلموا، فكانوا لمحبَّتهم للنَّاصر داود وأبيه المعظَّم، يخرجون مع العسكر، ويقاتلون أشدَّ قتال[1].

وكَثُرَتِ القتلى والجرحى بين الفريقين، ووقع حريقٌ ونهب من ناحية باب توما، وخربت بعض قرى الغوطة، ونزح عنها أهلها، منها جوبر وجَدَيا وزَمْلُكا وسَقْبا، فانقطع الجَلَبُ عن دمشق من غوطتها، وأُحرقت في المَيْدان الأخضر مدرسة أسد الدِّين شِيركُوه، وخانقاه خاتون، وما يليها من الخانات والدُّور، وخربت خانقاه الطَّواويس[2].

وانحاز سبط ابن الجوزي في هذا الصِّراع بين ملوك بني أيوب للنَّاصر داود، حتى إنَّه أفتى بوجوبِ قِتال الأشرف والكامل على المِنْبر. وبلغتهما فُتْياه، فأرْعدا وأبرقا، وتواعدا عليه وتهدَّدا، على حدِّ تعبيره. فلم يبالِ بغضبهما، وسلَّم أمره لله، قائلًا: «فتوكلتُ على الله، ومن يتوكلْ على الله فهو حَسْبُه، واعتمدتُ عليه، ومن يعتمدْ عليه يَصْفُ له شربُه»[3].

وكان من أشدِّ الأمور على النَّاصر داود قِلَّة المال في خزائنه، فقد أودع أمواله بالكَرَك، ولثقته بعمِّه الأشرف لم يُحضر منها شيئًا[4]، فنَفِدَ ما عنده، واضطرَّ إلى ضرب ما عنده من الأواني الفضِّيَّة والذَّهبية دراهم ودنانير، وأنفقها كلَّها حتى لم يبقَ لديه منها شيءٌ.

وطالتْ مُدَّة الحصار[5]، وكان أقسى حصارٍ تشهده دمشق[6]، وأصاب بعضَ عسكرها اليأس، فراحوا يلوذون بالكامل[7]، حينئذٍ أدرك النَّاصر أنه لا قِبَلَ له بعمِّه الكامل، وأنَّ الأصلح له الخروج إليه، ليرى فيه رأيه[8].

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٣).
(٢) المذيل على الروضتين (٢/ ١١، ١٢).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٩).
(٤) الكامل (١٢/ ٤٨٤).
(٥) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٣).
(٦) المذيل على الروضتين (٢/ ١١).
(٧) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٣).
(٨) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٦).

فخرج إليه ليلة الأربعاء ١٤ رجب سنة ٦٢٦هـ/ ٩ حزيران ١٢٢٩م[١]، مع نفرٍ يسير من أصحابه. ولما بلغ الكاملَ مجيئه خرج إليه وتلقَّاه، وأكرمه إكرامًا عظيمًا، وتحدَّث معه وباسطه، وطيَّب قلبه بعد أن عاتبه عِتابًا كبيرًا، ثم أمره بالرُّجوع إلى قلعة دمشق، فعاد إليها.

وفي يوم الجُمُعة دخل القلعة الأمير فخر الدِّين يوسُف بن شيخ الشيوخ، فصلى الجمعة بجامع القلعة، ثم خرج ومعه النَّاصر داود إلى الكامل، فتمَّ الصُّلْح بينهما، فأبقى عليه الكَرَك والشَّوبك وأعمالهما، والصَّلْت والبَلْقاء والأغوار جميعها، ونابُلُس وأعمال القُدْس وبيت جبريل، وبقي للكامل الخليل وغزَّة وطبرية وعَسْقلان والرَّملة ولُدّ وسائر السَّاحل الذي بأيدي المسلمين. وأقرَّ الكاملُ الأميرَ عزَّ الدِّين أيبك المعظَّمي على صَرْخد. ثم إن النَّاصر داود اضطرَّ للتنازل عن الشَّوْبك للكامل[٢]، وكان قد أظهر الحزن عليه، فقال له الكامل: أنا ما لي حصنٌ يحمي رأسي، وَهَبْ أنك وهبتني إياه. فسكتَ على مضض[٣].

ورجع النَّاصر داود إلى القلعة[٤]، وفُتحتْ أبوابُ دمشق يوم الإثنين مستهلَّ شعبان ٦٢٦هـ/ ٢٥ حزيران ١٢٢٩م[٥]، وهو أوان إقبال المِشْمِش والفواكه. ومع أنَّ أهل دمشق انفرج عنهم ما كانوا يعانونه من الضِّيق لانعدام الخَضْروات والفواكه والثَّلج عنهم، وانقطاع الماء، فقد وقع في قلوبهم من الحُزْن والأسف ما لا مزيدَ عليه، فتعالى بكاؤهم ونحيبهم، وهم يشاهدون دخول العسكر المِصْري من جميع الأبواب حتى امتلأت مدينتُهم بهم، فكأنَّ كلَّ واحدٍ منهم لحُزْنه قد فُجع بموت ولدٍ أو والد[٦].

ورحل النَّاصر داود يوم الجمعة ١٢ شعبان/ ٦ تموز[٧] بأهله وإخوته

---

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ١٢).
(٢) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٦).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠١).
(٤) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٧).
(٥) المذيل على الروضتين (٢/ ١٢).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٧).
(٧) المذيل على الروضتين (٢/ ١٢).

ومن يتعلَّق به من دمشق إلى الكَرَك[١]. ودخلها الكامل وإخوته يوم الثلاثاء ١٦ شعبان/ ١٠ تموز، فزار قبر والده في المدرسة العادلية الكبرى[٢]، ثم خرج إلى مقامه بجوسق العادل، ثم دخل قلعة دمشق هو والأشرف يوم الخميس ١٨ شعبان/ ١٢ تموز[٣].

ولما تسلم الكامل دمشق سلَّمها إلى أخيه الأشرف[٤]، فأقام بها[٥]. ورحل الكامل في **١٩** رمضان **٦٢٦**هـ/ **١١** آب **١٢٢٩**م[٦] إلى حماة[٧]، ثم تابع طريقه إلى الدِّيار الجَزَرية[٨].

وكان الحاجبُ حسام الدِّين علي ـ نائبُ الأشرف في خِلاط ـ قد أرسل إلى الأشرف، حين بلغه اتفاقه مع أخيه الكامل، يُنْكر عليه التخلِّي عن بعض بلاده في الشَّرق مقابل دمشق. فوقع كتابُه بيد الكامل، وكان غاضبًا منه لأمورٍ بدرتْ منه، فكتبَ الكامل كتابًا إلى عز الدِّين أيبك الأشرفي بخلاط يأمره بقتله، ودفعَ الكتاب إلى الأشرف ليعلِّم عليه بخاتمه؛ فلم يمكنه الامتناع، وعلَّم على الكتاب قائلًا: «مسكين الحاجب عليّ كتب الكاملُ كتابًا لهلاكه، وعلَّمْتُ عليه»[٩].

ولا يفوِّت سبط ابن الجوزي هذه الفُرْصة، لينفِّس عمَّا في قلبه تجاه صديقه القديم، فيكتبُ مشنِّعًا عليه فِعْله: «سبحان الله، كيف سمحتْ نفسُ الأشرف بهلاك رجل مُسْلم قد خدمه مُدَّة سنين، وحفظ بلاده من السَّلاطين، وكسر جيوش المخالفين! وكان الأشرف يكون تارة بمِصْر، وتارة بالشَّام، والحاجب عليٌّ يسوسُ المُلْك بتدبيره على أحسن نظام، وما خان

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٥٨).
(٢) تنظر: (ص ١٠٢) من هذا الكتاب.
(٣) المذيل على الروضتين (٢/ ١٣).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٠)، ومفرج الكروب (٤/ ٢٥٧).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠١).
(٦) المذيل على الروضتين (٢/ ١٣).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠١).
(٨) الكامل (١٢/ ٤٨٤).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٧).

الحاجبُ في دِرْهم ولا دينار، ولا قصَّر في خِدْمةٍ آناءَ اللَّيل وأطراف النَّهار، ولكنْ حُبُّه لدمشق هو الذي هوَّن عليه هلاكَ الحاجب، وأنساه خدمة المُشْفق الصَّاحب»[1].

ـ ٢ ـ

وينزوي سبط ابن الجوزي في زاويته بالتُّرْبة البدرية، لا يكادُ يبرحها، متجنِّبًا اللِّقاء بحاكم دمشق الجديد الملك الأشرف موسى، حياءً منه، لأياديه التي سلفتْ لديه أيام مُقامه عنده في بلاده[2].

وكان الأشرفُ كذلك متجافيًا عنه، لتأليبه النَّاس في جامع دمشق، وتشنيعه على تسليم القُدْس للصَّليبيين[3].

وسُرَّ لهذا الجفاء بينهما الفقيه الواعظ ناصحُ الدِّين عبد الرَّحمٰن بن نجم الحنبلي، إذ طالما كان متشوفًا لمنزلة سبط ابن الجوزي في الوعظ، فصَعِدَ إلى قلعة دمشق، وسأل الأشرف أن يجلس في جامع دمشق، قائلًا له: أريد أذكر فضائل السُّلطان، وما أوْلى النَّاسَ من العدل.

ولندعْ سبط ابن الجوزي يحدِّثنا عمَّا جرى، مظهرًا شيئًا من التَّشفي من خصمه العتيد، فيقول:

«وكان مقصودُه أن يأتيَ بعكس ما أتيتُ به ليتقدَّم عند الأشرف، ثم قال: وأريد السُّلطان يحضُرُ عندي. فقال: أنا اشتغالي كثير، بلى السُّلطان الصَّالح إسماعيل يحضر عندك وعماد الدِّين بن موسك. وجلس بباب المشهد في المكان الذي يجلس فيه الصَّالح والعماد في القُبَّة، وشرع في الكلام وبالغ، وقال وأطال، ولم يخشعْ قلبٌ، ولم تدمع عين، ووقع في شَمْل المجلس الشَّتات والبَيْن. وكان من عادتي يوم الخميس أن لا أنزل حتى تصلَ الشَّمْس

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٨).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٢)، وينظر: (ص ٨٦) من هذا الكتاب

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٢)، وينظر: (ص ١٣٨ ـ ١٣٩) من هذا الكتاب.

إلى المِنْبر، وقد أَلِفَ النَّاسُ ذلك، فهُمْ به أخبر، فقال عماد الدِّين للصَّالح: متى تنزل إلى موضعها؟ فقال الصَّالح: الشمس تُرْديه. وقاموا، وحكوا للأشرف صورة المجلس، فأعجبه جوابُ الصَّالح، وقال: والله صدقتَ»[١].

* * *

وبقي الأشرف على جفائه له، واستمرَّ سبط ابن الجوزي في عُزْلته، حتى إنه لم يشهد تشييع صديقه الملك المعظَّم حين أخرجوا تابوته من القلعة في مستهلِّ المحرَّم سنة ٦٢٧هـ/ تشرين الثاني ١٢٢٩م ليدفنوه في تربته، وكان تشييعه على حالٍ غيرِ مرضيٍّ على ما بلغه، فلم يُوقد بين يدي نعشه ـ كما جرتِ العادة ـ سوى نصف شمعة. ولم يحضر عزاءه في جامع دمشق[٢].

ولما أهلَّ شهر رجب سنة ٦٢٧هـ/ ١٦ أيار ١٢٣٠م، وهو موعدُ بَدْء جلوسه في جامع دمشق للوعظ من كلِّ عام، في كل سبت حتى نهاية شهر رمضان[٣]، بادر إلى جامع دمشق، وراح النَّاس كعادتهم يتسابقون إلى مجلسه، بيد أن ما بينه وبين الأشرف من الوَحْشة كان يمنعه من الدُّعاء له[٤].

ويتفق خروج الأشرف من دمشق، متحالفًا مع السُّلطان علاء الدِّين كَيْقُباذ؛ سُلْطان سلاجقة الرُّوم، لقتال السُّلطان جلال الدِّين مَنْكَبُرْتي بعد تعاظم نفوذه[٥]. وقد استخلف عليها أخاه الصَّالح إسماعيل بن العادل[٦].

ويصلُ الأشرف إلى سِيواس، ويجتمعُ فيها بالسُّلطان علاء الدِّين كَيْقُباذ[٧]، ثم يسيران حتى يصلا إلى صحراء آقْشِهر[٨]. فيركب إليهما

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٢).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٩٠)، ووفيات الأعيان (٣/ ٤٩٥)، وتنظر: (ص ١٣٢) من هذا الكتاب.

(٣) المذيل على الروضتين (١/ ١٦١).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٥).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٣).

(٦) المذيل على الروضتين (٢/ ١٩).

(٧) الكامل (١٢/ ٤٨٩)، ومرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٣).

(٨) مختصر سلجوق نامه (٢٠٦).

السُّلطان جلال الدِّين، طاويًا المنازل طيًّا، لا يلوي على شيء[1] حتى يقربَ من أَرْزَنْجان قُبيل وصولهم إليها، فيقيمُ هناك[2]. ويحجُز بين الجيشين جبلٌ وإلى جانبه وادٍ عظيم[3].

ومع الصَّباح الباكر من يوم السبت ٢٨ رمضان سنة ٦٢٧هـ/ ٩ آب ١٢٣٠م[4]، والضَّباب يغشى المكان، قطع جلالُ الدِّين إليهم الوادي، ووقف على رأس جبل[5]، وأشرف على عساكر علاء الدِّين والأشرف[6]، فهالته كثرتهم، ولا سيَّما حين رأى عسكر الأشرف، فقد شاهد من تجمُّلهم وفراهة دوابِّهم وحُسْن سلاحهم ما ملأ صدره هيبةً منهم[7].

وأنشبَ القتال الأميرُ عز الدِّين عمر بن علي، مقدَّم جيش الأشرف، وهو من أمراء حلب المشهود لهم بالشَّجاعة[8]، وتمكَّن جيشُ علاء الدِّين والأشرف، وقد باشر القتال بنفسه[9] أن يُنزل عساكر جلال الدِّين عن الجبل، وتوالتِ الحملاتُ عليهم، فلم يثبتوا[10]، فأمر جلال الدِّين بقتل من فرَّ من جيشه كي يثبت الباقي[11]، فوقعوا بين قتيلٍ وأسير[12]، ثم وَلَّوْا منهزمين، لا يلوي الأخُ على أخيه[13]، وألجأهم ريحٌ عاصف[14]، وخوفُ الموت[15] إلى وادٍ ضيِّق[16]، وقد أعمى الضَّباب أبصارهم، فتردَّى

---

(١) سيرة السلطان جلال الدين (٣٣٠).
(٢) الكامل (١٢/ ٤٩٠)، ومختصر سلجوق نامه (٢٠٦).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٤).
(٤) الكامل (١٢/ ٤٨٩)، ومرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٤)، ومختصر سلجوق نامه (٢١٢).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٤).
(٦) مختصر سلجوق نامه (٢١٣).
(٧) الكامل (٢١/ ٤٩٠)، ومفرج الكروب (٤/ ٢٩٩).
(٨) الكامل (١٢/ ٤٩٠).
(٩) مختصر سلجوق نامه (٢١٣).
(١٠) سيرة السلطان جلال الدين (٣٣١).
(١١) مختصر سلجوق نامه (٢١٠).
(١٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٤).
(١٣) الكامل (١٢/ ٤٩٠).
(١٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٢٠ ـ ٢١)، ومفرج الكروب (٤/ ٣٠٠).
(١٥) مختصر سلجوق نامه (٢١٥).
(١٦) مختصر سلجوق نامه (٢١٣).

معظمُهم في قعر الوادي[1] متهافتين من حرِّ الطلب[2]، فهلكوا[3]. وانطلق جلال الدِّين هاربًا مع ما بقي من عساكره نحو خِلاط[4].

* * *

في يوم المعركة هذا، وهو السَّبت الأخير من رمضان ـ وفيه يختم سبط ابن الجوزي مجالس وعظه في جامع دمشق ـ حضر الصَّالح إسماعيل؛ نائب الأشرف، فقال لنجم الدِّين بن سلَّام: قل للشيخ يدعو للسُّلطان بالنَّصْر. فأشار نجم الدِّين إليه، فدعا السِّبْط له، وأمَّن الجماعة. وهنا وقع أمرٌ من العجائب، على حدِّ تعبيره، فلنستمع إليه، وهو يحدِّثنا عنه بقوله: «فثار في ساعة الدُّعاء ضبابٌ عظيم، وغَشِيَ أهلَ المجلس ما غيَّبهم، وغبتُ أنا أيضًا، فلمَّا أفقتُ، قلت: نُصِرَ الأشرف اليوم. فتعجَّب الجماعة، فوصل الخبر بعد عشرة أيام بالواقعة على ما ذكرنا، وأن الضَّباب الذي كان عندنا كان عندهم، وأنَّهم نُصروا في السَّاعة التي دعونا فيها»[5].

ولم ينتظر سبط ابن الجوزي إياب الأشرف إلى دمشق ظافرًا، فقد آثر الرَّحيل عنها إلى الكَرَك، ليقيم عند النَّاصر داود؛ ابنِ صديقه الأثير[6].



---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٤)، والمذيل على الروضتين (٢/ ٢٠).

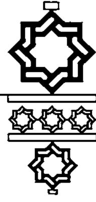
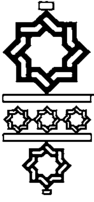
(٢) سيرة السلطان جلال الدين (٣٣١)، ونزهة المقلتين (١٩٣).

(٣) مفرج الكروب (٤/ ٢٩٩).

(٤) الكامل (١٢/ ٤٩٠).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٠٥).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤)، ويفهم مما ذكره في هذا الموضع أنه غادر دمشق سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، وهو وهم، لا يتفق مع ما ساقه من قبل من جلوسه في جامع دمشق، ودعائه للأشرف!

رجوعه إلى دمشق
وعودة ودِّه القديم مع الأشرف

- ١ -

لم تكنِ الكَرَك، وهي البلدة الصَّغيرة، تصلُح لإقامة واعظٍ كبير كسبط ابن الجوزي، فراح يتردَّد بينها وبين القُدْس ونابُلُس، واستمرَّ على ذلك نحو ستِّ سنين(١).

وكان يقيمُ بالكَرَك الشَّيخ شمس الدِّين عبد الحميد بن عيسى الخُسْرُوشاهي، ملازمًا للنَّاصر داود، وهو تلميذُ المفسِّر أبي المعالي محمد بن عمر، المعروف بفخر الدِّين الرَّازي، فكان سبط ابن الجوزي يجالِسُه، فيحدِّثه عبد الحميد عن فضائل شيخه فخر الدِّين، وحُسْن عشرته، واعتنائه بالمِلَّة الإسلامية، نافيًا عنه ما أشاعه خصومُه من انحرافات. وقد أُعجب سبط ابن الجوزي بعبد الحميد وتواضعه، وحُسْن سَمْته، فوصفه فيما بعد بقوله: «كان صديقُنا الخُسْرُوشاهي من كبار الأماثل، جمع أشتات الفضائل، عاقلًا، رئيسًا، دَيِّنًا، صالحًا، متمسكًا بالدِّين، سالكًا طريق السَّلف الصَّالحين»(٢).

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤).
وذكر في موضع آخر أنه سكن القدس عشر سنين، ولعل مراده ـ والله أعلم ـ مجموع سني إقامته بالقدس طوال حياته، فربما يصح ذلك على وجه التقريب. ينظر: «مرآة الزمان» (١٨/ ١٧١).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ١٧٠، ٤٢٦)، والمذيل على الروضتين (٢/ ١٠٤).

بيد أنَّ إقامته الطويلة كانت إذ ذاك بالقُدس، وكان يتفق له في أثناء إقامته فيها دخول كنيسة القيامة ـ التي يُقال لها كذلك كنيسة القُمامة ـ ولا سيما في يوم الفِصْح، ويحضر سبتَ النُّور، وكان يسمَّى عيد النور، وقد شُغل زمنًا في البحث عن مصدر ذلك النُّور الذي ينبعث فجأة في الكنيسة تلك الليلة، حتى وقف أخيرًا على سرِّه، وقد باحَ لنا بما رآه، فقال: «في وسط القُمامة قُبَّة فيها قبرٌ يعتقد النَّصارى أن المسيح عليه السلام صُلب ودُفن فيه، ثم ارتفع إلى السَّماء، فإذا كانت ليلة السبت في السَّحَر دخلوا إلى هذه القُبَّة، فغسلوا قناديلها، ولهم فيها طاقاتٌ مدفونة في الرُّخام، وفي الطاقات قناديلُ قد أُوقدتْ من السَّحَر، وللقُبَّة شبابيك، فإذا كان وقت الظُّهْر اجتمع أهلُ دين النَّصرانية من كلِّ فجٍّ عميق، وجاء الأقساء فدخلوا القُبَّة، وطاف النَّصارى من وقت الظُّهْر حولها يتوقعون نزولَ النُّور، فإذا قارَبَ غروبُ الشَّمْس تقول الأقساء: إن المسيح ساخطٌ عليكم. فيضجُّون ويبكون، ويرمون على القبر الذَّهب والفِضَّة والثِّياب، فتحصل لهم جملة كبيرة، ويردِّد القِسِّيس هذا القول وهم يبكون ويضجُّون ويرمون ما معهم، فإذا غربت الشمس أظلمَ المكان، فيغافِلُهم بعضُ الأقساء، ويفتح طاقة من زاوية القُبَّة بحيثُ لا يراه أحد، ويُوقد شمعة من بعض القناديل، ويصيح: قد نزل النُّور، ورضي المسيح. وتخرج الشَّمعة من بعض الشَّبابيك، فيضجُّون ضجَّة عظيمة، ويقولون: نزل النُّور. ويوقدون الفوانيس، ويحملون هذه النار إلى عكًّا وصور وجميع بلد الفرنج حتى رومية والجزائر، وقُسْطنطينية وغيرها، تعظيمًا لها»[1].

وحدَّثه ذات يوم بعضُ المجاورين بالقُدْس: أنَّ صلاح الدِّين لمَّا فتح القدس وجاء يوم الفِصْح، دخل القُبَّة التي فيها القبر، وقال: أريدُ أنْ أشاهد نزول النُّور. فقال له البَطْرَك: تريد أن تضيِّع علينا وعليك أموالًا عظيمة

(١) مرآة الزمان (١٨/ ١٧١ ـ ١٧٢).

بقعودك عندنا، فإن أردتَ المال فقُمْ عنا! فقام، فما بلغ باب القُبَّة حتى صاحوا: نزل النُّور[1].

ولا ندري صِحَّة ما رواه لنا سبط ابنُ الجوزي عن جماعة من أصحاب صلاح الدِّين، من أنه عزم على تخريب كنيسة القُمامة، وتعفية أثرها، قائلًا لأعيان دولته: نُحضر البَطْرَك والأقسَّاء والنَّصارى، ونحفر مكان القبر حتى يطلعَ الماء، ونرمي التُّراب في البحر، ونقول: هذا ترابُ قبر إلهكم، لتنقطع أطماعُهم عن زيارته، ونستريح منهم. فقالوا له: إنَّ أطماعهم لا تنقطع بهذا، وليس مرادُهم مكان القبر، إنما هم يعتقدون في نفس القُدْس، وقُمامة عندهم أفضلُ من غيرها، وربما أخربوا الجامع الذي بالقُسْطنطينية والمساجد التي في بلادهم، وقتلوا من عندهم من المُسْلمين. ثم إنَّهم يصانعونك على القدس لأجل قُمامة، فإذا فعلتَ ذلك زال ما يصالحونك لأجله، ثم تبطل عليك أموال عظيمة، فتنضر وهم لا ينضرون. فسكتَ عن خرابها[2].

ـ ٢ ـ

وفي غياب سبط ابن الجوزي عن دمشق يتطلَّع الشيخ المحدِّث تقي الدِّين أبو عمرو بن الصَّلاح إلى محلِّه في الوعظ، ويبلغ ذلك الملك الأشرف موسى، فيقول له: لا تفعل، فإنَّك لا تقدر أن تكون مثل شمس الدِّين ابن الجوزي، ودونه فما يُرضى لك. فيترك ذلك[3].

ويستمرُّ سبط ابن الجوزي على تنقُّله ما بين الكَرَك والقُدْس حتى يقرِّر العودة فجأة إلى دمشق في منتصف سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م[4]، كما قرَّر من قبلُ

---

(١) مرآة الزمان (١٨/ ١٧٢).
(٢) المصدر السالف.
(٣) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨).
(٤) ذكر سبط ابن الجوزي أن عودته إلى دمشق كانت سنة ٦٣٣هـ، وهو وهم منه على عادته في ذلك، فقد ذكر القرشي أنه كان في دمشق في شعبان سنة ٦٣٢هـ، وهي =

مغادرتها. ويطوي عنا سببَ عودته إليها، مجتزئًا بالقول: «ثم جَرَتْ أسبابٌ أوجبتْ قدومي إلى دمشق»[1].

ويبدو أن سبط ابن الجوزي قد اضطرَّ إلى العودة إليها. ولعلَّ من أهمِّ أسبابها عزم من كان يقيمُ بكنَفِه، وهو النَّاصر داود؛ صاحبُ الكَرَك على السَّفر إلى بغداد، واعتصامه بالخليفة المستنصر بالله، لخوفه من قصد عمِّه الكامل له، بعد فساد العلاقة بينهما[2].

وهي أسبابٌ تنفي دعوة الأشرف له، ولذلك ظلَّ سبط ابن الجوزي حانقًا عليه، لإهماله له، على ما كان بينهما من مودَّة، فلزم بيته بعد عودته، ولم يسعَ إلى لقائه، والتقرُّب إليه. وقد عبَّر عما يعانيه من ضِيق في تلك الأيام بأبياتٍ نظمها، وراح يرويها لمن يزوره من العلماء، وهي:

عليكَ اعتمادي يا مفرِّجَ كُرْبتي ... ويا مُؤْنسي في وَحْدتي عند شِدَّتي
ويا من نقضتُ العهدَ بيني وبينه ... مِرارًا فلم يُظهر عليَّ فضيحتي
أغثني فإنِّي قد عصيتُك جاهلًا ... أغثني فقد طالتْ بذنبي بَلِيَّتي
فلو أنَّ لي عينًا تسحُّ بأدْمُعٍ ... لنُحْتُ على نفسي وطالتْ نياحتي
ولكنْ ذنوبي أرهبتني جراحُها ... فقلَّتْ دموعي من شَقائي وقسوتي
فأصبحتُ مأسورًا بذنبي مقيَّدًا ... فوا سوءَ حالي من بلائي وغَفْلتي[3]

ويبدو أنَّ يد الزَّمن قد محتْ ما في قلب الأشرف من جفاءٍ له، ورأى من حُسْن السِّياسة كذلك أن يستميله إلى جانبه، لما له من منزلة في قلوب الدِّمشقيين، فأظهر السُّرورَ بقدومه، وخفَّ إلى زيارته، وأحسن إليه، وحرص أشدَّ الحرص على إرضائه. ولم يكن إرضاؤه سهلًا، فقد استعصم

= السنة التي عزم فيها الناصر داود على السفر إلى بغداد، مما اضطره ـ كما أرى ـ إلى العودة إلى دمشق، والله أعلم. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٥٤)، و«مفرج الكروب» (٥/ ٨٧)، و«الجواهر المضية» (٣/ ٦٣٥).

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤).

(٢) مفرج الكروب (٥/ ٨٧، ١٠٠).

(٣) الجواهر المضية (٣/ ٦٣٥).

سبط ابن الجوزي بعزَّة العالم، وتمادى في تأبِّيه عليه وامتناعه. حتى إنَّ الأشرف، زيادة في إكرامه، فصَّل له خِلْعة سنية ليلبسها، فامتنع من لبسها، فأصرَّ عليه الأشرف أن يلبسها ولو ساعة، ليعلم الناس أنه قد رضي، وزال ما كان بينهما من وَحْشة. ثم بعث له بغلته الخاص، وعشرة آلاف درهم[1].

وكان الأشرف قد شرع سنة **٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م** ببناء مسجدٍ بعد هَدْمه خان الزَّنْجاري؛ وكان خانًا مشهورًا بالفجور والخواطئ وشُرب الخمر[2]، وفيه جميعُ أسباب الملاذ، ويجري فيه ما لا يُحدُّ ولا يوصف. وكان قيل للأشرف عنه: إن مثل هذا لا يليقُ أن يكون في بلاد المُسْلمين[3]. فتمَّ جامعًا كبيرًا حسنًا[4]، فسمَّاه الناس «جامع التوبة»، كأنه تاب إلى الله تعالى، وأناب ممَّا كان فيه[5].

وبعد عَصْر يوم عَرَفة[6] سنة **٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م**، جلس فيه سبط ابن الجوزي للوعظ، وحضر مجلسه الأشرف موسى[7]، وبكى بكاءً شديدًا تأثرًا بما يسمع، وأعتق مماليكه وجواريه[8]. ثم التفتَ إلى سبط ابن الجوزي حين انتهى المجلس، قائلًا له: قد رجع الحقُّ إلى نِصابه، ومثلُك يصلحُ أن يكون في خرائب نابلس والقدس والكَرَك! والله إنَّ دمشق تغارُ عليك أن تكون في غيرِها[9].

وهكذا عاد الوُدُّ القديم بين الصَّديقين، فصار الأشرف يزوره في بيته[10]، ويستفتيه فيما يُشْكل عليه من أحكام[11]، ويستعين به في التقرُّب من بعض العلماء.

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٣٥).
(٣) وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٤).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٣٤).
(٥) وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٤).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥١).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥١).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٧).
(١١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣١٨).

من ذلك ما وقع للأشرف مع الشيخ عز الدِّين بن عبد السَّلام في مسألة كلام الله تعالى، والخلاف فيها مشهور بين الأشاعرة والحنابلة، وكان الأشرف يميل إلى رأيهم، ويتعصَّب له. فلمَّا زال ما بينهما صار الأشرف يطلبُ أن يُقرأ عليه تصانيف الشيخ عز الدِّين الصِّغار، مثل رسالته «مقاصد الصَّلاة».

وذات يوم دخل سبط ابنُ الجوزي عليه، فناوله الأشرف «مقاصد الصلاة»، وقال له: اقرأها. فقرأها بين يديه واستحسنها، وقال: لم يصنِّف أحدٌ مثلها. فقال له الأشرف: طرِّز مجلسك الآتي بذكرها، وحرِّضِ النَّاس عليها. فلمَّا كان مجلس وعظه صَعِدَ سبط ابن الجوزي المنبر، وحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على نبيه ﷺ، وقال: اعلموا أنَّ أفضل العبادات البدنية الصَّلاة، وهي صِلةٌ بين العبد وربِّه، فعليكم بمقاصد الصَّلاة، تصنيف ابن عبد السَّلام، فاسمعوها وعُوها واحفظوها، وعلِّمُوها أولادَكم، ومَنْ يعزُّ عليكم. فكان لكلامه وقعٌ عظيم، وكُتب منها من النُّسَخ ما لا يُحصى عدده[1].

وتمضي الأيام به في صُحْبة الأشرف، وهو في أرغد عيش، وأحسن حال، وأهنأ بال، على حدِّ تعبيره[2].

* * *

ولم تدم طويلًا هناءة باله، ورغد عيشه، إذ ألَّم بالأشرف مرضٌ في رجب سنة **٦٣٤**هـ/آذار **١٢٣٧**م، فصار سبط ابن الجوزي من عُوَّاده كلَّ يوم[3].

وطال مرض الأشرف[4] واشتدَّ، وأخذت قواه في الضَّعْف والانحلال[5]، حتى إنَّه أحسَّ بدنو أجله، فقال له سبط ابن الجوزي ذات

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٢١٨، ٢٢٩ ـ ٢٣٧، ٢٣٩).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤).
(٣) المصدر السالف.
(٤) مفرج الكروب (٥/ ١٢٨).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ١٣٧).

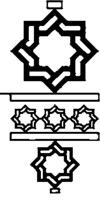
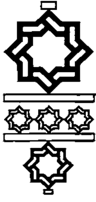
يوم: استعدَّ للقاء الله، فما يضرُّك. فأجابه الأشرف: لا والله، بل ينفعني[1]. ثم التفت إلى وزيره جمال الدين بن جرير، قائلًا له: يا جمال الدِّين، في أيش تكفنوني؟ فقال: حاشاك من ذلك. فقال: دعني من هذا، فما بقي فيَّ قوة تحملني أكثر من نهار غد، وتواروني[2]. ثم طلب منه أن يكفِّنوه بثياب المشايخ الصَّالحين الذين التقاهم، وكان يحفظها لمثل هذا اليوم. وكان آخر كلامه: لا إله إلا الله. وفاضت روحُه إلى بارئها نهار يوم الخميس ٤ المحرم سنة ٦٣٥هـ/ ٢٨ آب١٢٣٧م، عن نحو ستين سنة[3].



(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٦).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٥)، والمذيل على الروضتين (٢/ ٤٠)، ومفرج الكروب (٥/ ١٣٨، ١٤٥)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٦).
ودفن بقلعة دمشق إلى أن بنيت تربته الأشرفية شمالي كلاسة جامع دمشق، فنقل إليها في جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ/ كانون الثاني ١٢٣٨م، ولم يبق منها الآن إلا قبره.
ينظر: «مرآة الزمان» (٢١/ ٢١٤، ٢٢/ ٣٥٣، ٣٥٥)، و«مفرج الكروب» (٥/ ١٤٣، ١٤٥)، و«المذيل على الروضتين» (٢/ ٤٠ ـ ٤١)، واستقصيت فيه مصادر ترجمته، و«منادمة الأطلال» (٢٤، ٣٢، ٣٧٠، ٣٧٢).

إقامته بالقُدْس بُعيد وفاة الأشرف واضطراب الأوضاع في دمشق

ـ ١ ـ

وهكذا يجدُ سبط ابن الجوزي نفسه عقيب وفاة الأشرف ألَّا مكان له بدمشق، فيفارقها[١] إلى القُدْس[٢]، نائيًا بنفسه عما قد يقع فيها من الاضطرابات.

فقد كان يخيم على دمشق في تلك الأيام ترقبٌ وحذر ممَّا سيقع، إذ إنَّ علاقة الأشرف بأخيه الكامل قد ساءت قُبيل وفاته، لأمورٍ نقمها عليه[٣]. وعيَّن أخاه الصَّالح إسماعيل بن العادل وليًّا لعهده[٤]. فهل سيقبل الكامل، وهو كبيرُ البيت الأيوبي، بقاء دمشق خارج سُلْطانه؟

وما كان يُخشى منه سرعان ما وقع، فما إنْ بلغ الكامل وفاةُ الأشرف حتى شرع على الفور في إعداد العُدَّة للمسير إلى دمشق للاستيلاء عليها. وشرع الصالح إسماعيل كذلك يستعدُّ لحصارها المُرْتقب[٥].

ومع صباح يوم الخميس **٢٣** صفر سنة **٦٣٥**هـ/ **١٥** تشرين الأول **١٢٣٧**م، خرج الكامل بعساكره من القاهرة، بعد أن استناب عليها ابنه العادل[٦].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٢٥).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٨).
(٣) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٤١)، ومفرج الكروب (٥/ ١٢٢ ـ ١٢٣، ١٤٤، ١٤٧).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ١٤٧).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٦)، ومفرج الكروب (٥/ ١٥١).
(٦) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٧).

ويبدو أن الشِّتاء أعاق عساكر الكامل، فلم تصل إلى دمشق إلا بعد نحو شهرٍ من خروجها، وذلك في **٢٣** ربيع الأول سنة **٦٣٥**هـ/ **١٢** تشرين الثاني **١٢٣٧**م، وكانت قد تحصَّنت[(١)]، وسُدَّت أبوابُها إلا بابَ الفَرَج وباب النَّصْر، ونُصبت عليها المجانيق[(٢)]، وجاءتها النَّجدات[(٣)]. فأحدقت العساكر المِصْرية بها، ونزل الكامل عند مسجد القدم، وردَّ ماء بردى إلى ثورا، فقطع المياه عن دمشق[(٤)]، وضايقها حتى غلتِ الأسعار، وألحَّ على أهلها بالقتال[(٥)].

وخاف الصَّالح إسماعيل أن يُستولى على أحيائها خارج السور، فخرج من غد ذلك اليوم بالحَرَّاقة والنَّفَّاطين، فأحرق العُقيبة، وما فيها من الخانات والأسواق والدُّور[(٦)] والطَّواحين، وأحرق قصر حَجَّاج والشَّاغور، وخرب ظاهر دمشق خرابًا لم يُعهد مثله، حتى إن بعض أهلها احترقوا في دورهم[(٧)].

ولما اشتدَّ الحصار على دمشق في قوة الشِّتاء والبرد[(٨)]، أذعن الصَّالح إسماعيل بتسليمها إلى أخيه الكامل على أن يعوِّض عنها بَعْلبك والبِقاع مضافًا إلى بُصْرى والسَّواد، فأجابه الكامل إلى ذلك. وكان السَّفير بينهما خالَ سبط ابن الجوزي الصَّاحب محيي الدِّين يوسُف؛ رسول الخليفة المستنصر بالله، وقد قدم من بغداد ليوفِّق بينهما، ويزيل ما وقع من الخلاف[(٩)].

وتسلَّم الكامل دمشق في يوم الأربعاء **١٠** جمادى الأولى سنة **٦٣٥**هـ/ **٢٩** كانون الأول **١٢٣٧**م[(١٠)]، وسار الصَّالح إسماعيل إلى بَعْلبك.

---

(١) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٧).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٦).
(٣) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٧).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٦).
(٥) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٧، ٢٩٨).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ١٥١).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٦).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ١٥٢).
(٩) مفرج الكروب (٥/ ١٥٢)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٨).
(١٠) المذيل على الروضتين (٢/ ٤١)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٨).

ودخل الكامل قلعتها في ١٩ جمادى الأولى/ ٧ كانون الثاني[(١)].

ولم يمتَّعِ الكاملُ بانتصاره إذ بُعيد دخوله قلعتها بمدَّة يسيرة[(٢)] أصابه زُكام، ثم عَرَتْه حُمَّى[(٣)]، أدَّت إلى وفاته في بيتٍ صغير بدار الفِضَّة في القلعة[(٤)] ليلة الخميس ٢٢ رجب سنة ٦٣٥هـ/ ١٠ آذار ١٢٣٨م، عن نحو اثنتين وستين سنة[(٥)]، ولمَّا يمضِ على وفاة أخيه الأشرف إلا نحو ستة أشهر، وعلى تملُّكه دمشق إلا نحو شهرين ونصف[(٦)]، ولم يعلم أحدٌ بموته، ولا حضره أحدٌ من شِدَّة هيبته، وإنما دخلوا عليه، فوجدوه مَيْتًا.

فكتمُوا وفاته حتى دُفن بالقلعة، ولم يعلنوها إلا يوم الجُمُعة، فاعترى أهلَ دمشق لموته المفاجئ دهشةٌ وحيرة، ولكراهيتهم له لم يحزن عليه أحد[(٧)].

* * *

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ١٥٢)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٨).

(٢) مفرج الكروب (٥/ ١٥٣).

(٣) السلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٩).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٧)، والسلوك (ج١/ ق١/ ٢٩٩).

(٥) ولد الكامل على الصحيح سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، وهو أكبر أولاد العادل بعد أخيه ممدود. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٤٦)، و«النجوم الزاهرة» (٦/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨).

(٦) المذيل على الروضتين (٢/ ٤٣).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٧).

ثم نقل من القلعة ليلة الجمعة ٢١ ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ/ ٢١ تشرين الأول ١٢٣٩م إلى تربة بنيت له، شرقي الخانقاه السميساطية، وتعرف بالتربة الكاملية الجوانية، ولها شباك يطل على رواق جامع دمشق عند زاويته الشرقية الشمالية، قرب مشهد الحسين رضي الله تعالى عنه. وما زال قبره فيها حتى الآن، ولا يفصله عن قبر أخيه الأشرف، خارج الجامع، إلا مسافة يسيرة.

ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٦٧)، و«مفرج الكروب» (٥/ ١٧١)، و«منادمة الأطلال» (٣٤٨)، و«المذيل على الروضتين» (٢/ ٤٣)، وقد استقصيت فيه مصادر ترجمته.

واجتمع كبار أمراء الكامل ليلة الجمعة في قلعة دمشق[١]، واتفق رأيهم على تحليف الأجناد لابنه الملك العادل بن الكامل[٢]، وكان في نحو الثَّامنة عشرة من عمره[٣]، وأن يولوا على دمشق نائبًا عنه[٤]. بيد أنهم اختلفوا فيمن يولونه عليها[٥]، إذ لا يمكن حفظها إلا برجلٍ من بيت بني أيوب[٦]، وكانوا متردِّدين بين النَّاصر داود والجواد يونس بن ممدود بن العادل أبي بكر بن أيوب[٧]. ثم مالوا إلى تولية الجواد يونس[٨]، خوفًا من استقلال النَّاصر داود بحُكْمها إن هو تولاها[٩]. فأرسلوا إليه، وهو في دار سامة، يطلبون منه الخروج من دمشق[١٠].

واستقرَّ الأمر للجواد يونس في دمشق نائبًا عن العادل بن الكامل. ورجعت أكثرُ العساكر المصرية إلى القاهرة[١١].

- ٢ -

وما إن اطمأن الجواد يونس إلى تملكه دمشق، حتى أظهر ما كان يُضمره من التفرُّد بها، فأبقى للعادل بن الكامل الخُطْبة فحسب، وأمر أن يُخطب له بعده[١٢]. وانفجر غضب العادل في مصر من استقلال ابن عمِّه بملك دمشق، وعصيانه بها[١٣]، وصار يعمل على خَلْعه[١٤]. وبعث إليه لتلك الغاية عمادَ الدِّين بن شيخ الشيوخ، فخرج من القاهرة في ربيع الأول

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٨).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ١٧٢).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٦٧).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ١٧٢).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٩).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ١٧٢).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٨).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٨).
(٩) مفرج الكروب (٥/ ١٧٣).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٤٨).
(١١) مفرج الكروب (٥/ ١٧٣ ـ ١٧٤).
(١٢) مفرج الكروب (٥/ ١٩٢، ١٩٥).
(١٣) مفرج الكروب (٥/ ١٩٨).
(١٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٠)، ومفرج الكروب (٥/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

سنة ٦٣٦هـ/ تشرين الأول ١٢٣٨م[١]، محمولًا على مِحَفَّة لمرضٍ ألَمَّ به[٢]. ولما وصل إلى المُصلَّى قرب دمشق سارع الجواد إلى لقائِه[٣].

ثم ما لبث العماد أن تحدَّث مع الجواد في المسير إلى العادل[٤]، على أن يعوَّض عن دمشق الإسكندرية[٥]. فأجابه الجواد بجواب ممغلط، على حدِّ تعبير ابن واصل[٦]، وسوَّفه وماطله حتى فَطِنَ العمادُ بامتناعه، فأحضر حينئذٍ الولاة والنُّواب والدَّواوين بدمشق وأعمالها، وقال: قد عزل السُّلطان العادلُ الجوادَ عن نيابة دمشق، فلا تدفعوا إليه مالًا، ولا تقبلوا له قولًا[٧]، وأنا نائبُ السُّلطان[٨]. فعزَّ ذلك على الجواد، فقبض على عماد الدِّين[٩]، ورسم عليه أن يقيم بالدار، ومنعه من الرُّكوب[١٠].

وضاق على الجواد ما هو فيه، وكان سريعَ الضِّيق[١١]، ضعيفَ الرأي[١٢]، واستبدَّ به القلق[١٣]، مستشعرًا عجزه عن القيام بمملكة الشَّام[١٤]، مع تصميم العادل على انتزاعها منه، ولا طاقة له بقِتاله، فرأى أن يتخفَّف من عِبْءِ حُكْم دمشق بحكم مدينة لا ينافسه عليها العادل، فسيَّر الشيخ كمالَ الدِّين بن طلحة إلى الصَّالح نجم الدِّين أيوب بن الكامل، وكانت له بلاد الشَّرق، يطلب منه أن يعوِّضه عن دمشق سِنْجار والرَّقَّة وعانة، ويسلم دمشق إليه[١٥]، معلِّلًا قراره لمن حوله بقوله: أيش أعمل بالمُلْك؟ باز وكلب أحبُّ إليَّ من هذا[١٦]. وكان الجواد على ما يبدو مُولعًا بالصَّيْد.

---

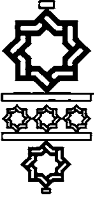
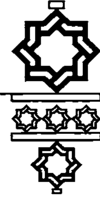
(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٠).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦١).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).
(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٦).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦١).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ١٩٩).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٦).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٠).
(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٦).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦١).
(١١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨).
(١٢) مفرج الكروب (٥/ ١٩٢).
(١٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٤).
(١٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨).
(١٥) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٠).
(١٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨).

فسُرَّ الصَّالح أيوب بذلك(١)، وأجابه إلى ما طلب، وحلف له، وراح يتجهَّز إلى دمشق(٢).

ثم رأى الجواد أن يبادر إلى قتل العماد كيلا يُفسد عليه اتِّفاقه مع الصَّالح أيوب(٣). فبعث إليه بعد أيام يقول له: إنْ شئتَ أن تركب وتتنزَّه، فاركبْ إلى ظاهر البلد. فاعتقد العمادُ أنَّ ذلك بوادر رضا، فأمر بتجهيز حصان له، وما إن خرج من باب دار المسرَّة في القلعة(٤) حتى قابله رجل دسَّه الجواد إليه(٥)، وبيده قِصَّة، فاستغاث، فأراد حاجبه أن يأخذها منه، فقال: لي مع الصَّاحب شغل. فقال عماد الدِّين: دعوه. فتقدَّم إليه، وناوله القِصَّة، وضربه بسكِّين على خاصرته بدَّد مصارينه، وجاء آخر، فضربه بسكِّين على ظهره، فكانتِ القاضية، فردُّوه إلى الدَّار مَيْتًا(٦). وكان ذلك يوم الثلاثاء **٢٦** جمادى الأولى سنة **٦٣٦**هـ/ **٤** كانون الثاني **١٢٣٩**م(٧). وأظهر الجواد التألُّم لمقتله(٨).



(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٤).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٠).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٠).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٢)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٤٧).
(٧) وكان له يوم مات نحو ست وخمسين سنة، فقد ولد سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م. ينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٤٧)، و«السلوك» (ج١/ ق٢/ ٢٧٧)، واستقصيتُ مصادر ترجمته في تحقيقي لكتاب «المذيل». ووهم سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٦١) في شهر مقتله، فذكر أنه في ربيع الأول.
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٢٠١).

قدوم الصَّالح أيوب بن الكامل إلى دمشق وتملُّكها

ـ ١ ـ

وأتمَّ الصَّالح نجم الدِّين أيوب ترتيب بلاد الشَّرق، فأقام ابنَه المعظَّم غياث الدِّين تورانشاه عليها، وألزمه المُقام بحصن كيفا[١]. ثم سار إلى دمشق، ومعه كاتبُ إنشائه الشَّاعر بهاء الدِّين زهير، وناظر جيشه الشَّاعر جمال الدِّين يحيى بن مطروح[٢]، وجاريته التركية شجر الدُّرِّ، وكان شديد المحبَّة لها[٣]، لا يفارقها سفرًا ولا حضرًا[٤]. فقطع الجواد حينئذٍ الخُطْبة للعادل، وخطب للصَّالح أيوب، وضرب السِّكَّة باسمه[٥].

ووصل الصَّالح نجم الدِّين أيوب إلى دمشق في مستهلِّ جُمادى الآخرة[٦] سنة ٦٣٦هـ/كانون الثاني ١٢٣٩م، وقد زُيِّنتْ لقدومه، وخرج الجواد لاستقباله، فدخل قلعة دمشق مع الجواد، ثم انتقل الجواد إلى دار السَّعادة عند باب النَّصْر[٧].

---

(١) السلوك (ج١/ق٢/ ٢٧٩).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٩).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٩٤، ٢٠١).
(٤) السلوك (ج١/ق٢/ ٣٦١).
(٥) السلوك (ج١/ق٢/ ٢٧٩).
(٦) وهم سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٥٨) في قوله: «ودخل الصَّالح دمشق غرة جمادى الأولى»، وتابعه على وهمه المقريزي في «السلوك» (ج١/ق٢/ ٢٧٩). والصواب ما ذكره أبو شامة في «المذيل على الروضتين» (٢/ ٤٧) ـ وكان إذ ذاك في دمشق ـ وابن واصل في «مفرج الكروب» (٥/ ٢٠٣).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، ومرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨)، والمذيل على الروضتين (٢/ ٤٧).

وما إن استقرَّ الصَّالح أيوب بالقلعة حتى ندم الجواد على ما فعل، فقد استقلَّ الجماعةَ الذين جاؤوا مع الصَّالح أيوب، وكان عسكر دمشق أكثر منهم، وخاف ألا يفي الصَّالحُ بما شرطه له[1]، فاستدعى المقدَّمين والجُنْد واستحلفهم[2] لنفسه ليثب على دمشق، ويُخرج الصَّالح من القلعة[3]. فجمع الصَّالح أصحابه عنده في القلعة، وأراد أن يحرق دار السَّعادة، حيث يقيمُ الجواد[4]، وكادت تقع فتنةٌ عظيمة، فقام المظفر؛ صاحبُ حماة في إطفائها، فنزل من القلعة إلى دار السَّعادة، واجتمع مع الجواد، وعاتبه على ما فعل، وضمن له عن الصالح القيام بما شرط له، فطاب قلب الجواد بذلك، وخرج حينئذٍ[5] إلى النَّيْرَب، واجتمع أهلُ دمشق على باب النَّصر، يشيِّعونه بالدُّعاء عليه، ويسبُّونه في وجهه[6]. وكان قد سلَّط عليهم خادمًا لزوجته يقال له النَّاصح[7]، فأخذ أموالهم وصادرهم، وعلقهم وضربهم[8].

فبعث إليه الصَّالح أن يردَّ أموال النَّاس إليهم[9]، فما التفتَ، وسافر[10] إلى سِنْجار[11]، فكانت مُدَّة ملكه لدمشق نحو أحد عشر شهرًا[12].

ـ ٢ ـ

وانزعج العادل في مِصْر، وخاف خوفًا شديدًا، لقدوم أخيه الصَّالح أيوب إلى دمشق، وتملكه لها، وعلم أنَّه لا بُدَّ قاصده؛ لِمَا يعرفُه من ميلِ عسكر مصر إليه. فهو عندهم الأكبر سِنًّا، والأحسنُ سيرة، والأعظم هيبة،

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٤).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٤).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٤).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٤).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨).
(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٩).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٨).
(١١) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٥).
(١٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٤).

والأجدرُ بالقيام بأعباء الملك[1]، على خلاف أخيه العادل في تبديده الأموال، وإقباله على الملاذِّ واللهو واللعب، وإبعاده أهل الرَّأي والمعرفة ممن كان أبوه الكامل يعتمدُ عليهم في أموره[2].

وما خاف منه العادل سرعان ما وقع، فقد تواترتْ كتبُ أمراء مِصْر إلى الصَّالح أيوب تستدعيه إلى القاهرة، وتَعِدُه القيام بنُصْرته[3]، ويعلمونه أنه متى دخل صحراء سيناء سارعتِ العساكرُ كلُّها إليه[4].

وجاءه رسولٌ من ابن عمِّه النَّاصر داود؛ صاحب الكَرَك يبذل له مساعدته ومعاضدته على العادل، بشرط أن يسلِّم إليه دمشق، ويعيد إليه جميعَ البلاد التي كانت بيد أبيه المعظَّم. فوعده الصَّالح بذلك إذا ملك مصر، فأبى النَّاصر داود إلا أن ينجز له ما طلب في الحال، فلم يتفق بينهما أمر[5].

وحده عمُّه الصَّالح إسماعيل؛ صاحب بَعْلبك لزم الصَّمْت، ولم يُبد موقفًا منه، حتى إذا أرسل إليه الصَّالح أيوب يخطُبُ ودَّه، أجابه إلى ذلك، وقدم إلى دمشق، وأظهر له الموالاة والمصافاة، وحلف له، ثم رجع في يومه إلى بعلبك[6].

وورد إلى الصالح أيوب، وهو في دمشق، أن جماعة من أمراء عسكر مصر، خرجوا من القاهرة مع أتباعهم، متوجِّهين إليه، فلما وصلوا إلى غزة نزلوا بها[7].

فخرج من دمشق بعساكره يوم الأربعاء **٢٨** رمضان سنة **٦٣٦**هـ/ **٤** أيار **١٢٣٩**م، ومعه نحو خمسة آلاف فارس، وفيهم ولدُه الأكبر المغيث عمر، وعمَّاه مجيرُ الدِّين يعقوب، وتقي الدِّين عباس ابنا العادل، فوصل إلى خربة

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٧).

(٢) مفرج الكروب (٥/ ١٧٤).

(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٠).

(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٦).

(٥) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٧).

(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٠٦).

(٧) مفرج الكروب (٥/ ٢١٠ ـ ٢١١).

اللصوص، وأقام بها[١] على عزم المسير إلى ديار مصر[٢].

وكاتب عمَّه الصَّالح إسماعيل؛ صاحب بَعْلبك أن يصل إليه بنفسه، ليمضي معه إلى مِصْر، فتعلَّل واعتذر، وسيَّر ولده المنصور نور الدِّين محمود نائبًا عنه، ووعده الوصول إلى خدمته بعد ذلك، وشرع يعمل في الباطن لانتزاع دمشق منه[٣].

وكان النَّاصر داود ـ حين لم يقع الاتفاق بينه وبين ابن عمِّه الصَّالح أيوب ـ قد سار إلى مصر[٤]، فخرج العادل إلى لقائه في ٨ شوال سنة ٦٣٦هـ/ ١٤ أيار ١٢٣٩م[٥]، فالتقاه بأحسن ملقى، وأكرمه، وأنزله بدار الوِزَارة، واتَّفقا على محاربة الصَّالح أيوب، ووعده العادل أن يستخلص دمشق وبلادها له[٦].

فما إنْ علم الصَّالح أيوب بمسير النَّاصر داود إلى مِصْر، حتى رحل إلى نابُلُس[٧]، فاستولى عليها وعلى سائر بلاد النَّاصر داود[٨]، وأرسل ولاته إلى أعمال القدس والأغوار والخليل وبيت جبريل والسَّاحل، وصولًا إلى العريش[٩].

وأقام بنابُلُس في دار المعظَّم عيسى[١٠]، وأقطعها من قدم عليه من أمراء مصر وأعمالها ليتقوَّوْا بمغلِّها[١١]. وكان هؤلاء الأمراء يردِّدون على مسامعه ليل نهار أنه إذا توجَّه إلى القاهرة لا يردُّه عنها رادٌّ، وأن جميع

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢١١ ـ ٢١٢).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٩).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٢١٦).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢١٤).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٥).
وسياق الأخبار مضطرب عند المقريزي، ربما لاضطراب أوراق نُسَخ «السلوك»، وقد استفدت منه ما يتفق وسياق الأحداث.
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢١٤).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٢١٣).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٩).
(٩) مفرج الكروب (٥/ ٢١٥).
(١٠) مفرج الكروب (٥/ ٢١٣).
(١١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٣).

عساكرها حين وصوله يدخلون في طاعته، ويتخلَّوْن عن أخيه العادل. بل إن كُتُب أمراء مصر وجواسيسهم تواترتْ عليه، يستدعونه إليها في السِّرِّ، وممَّن كتب إليه الأمير فخر الدِّين يوسف بن شيخ الشيوخ، وهو من أجلِّ أمرائها وأعظمهم، يستحثُّه على سرعة القدوم. وبرغم ذلك كلِّه فقد توقف الصَّالح أيوب عن المسير إلى مصر حتى تتبيَّن له الأمور، خوفًا من أن يكون ما يُكاتب به لاستدراجه إلى مصر، وهو يعلم أن عسكره القليل لا طاقة له بحرب عسكرها[1].

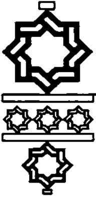
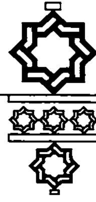
ولتكثير عدد جنوده راح يواصل كُتُبه إلى عمِّه الصَّالح إسماعيل ليسير إليه، فيَعِدُه إسماعيلُ أنه واصلٌ إلى خدمته[2]، بينما كانت دسائسه تحاكُ في دمشق لاستيلائه عليها، والأموال تفرَّق على مقدَّميها وأعيانها[3].

وفي انتظار وصول عمِّه إليه تقدَّم الصَّالح أيوب إلى جماعةٍ من أمراء المصريين وجماعة من عسكر دمشق أن يتقدَّموا إلى غزَّة، فرحلوا إليها، ونزلوا بظاهرها. وأخذ هو في تهيئة أسباب المسير إلى مصر، وتقدَّم إلى الأمراء بأن يعملوا الأزواد استعدادًا لدخول صحراء سيناء[4].

وكان العادل بن الكامل قد خرج بعساكر مِصْر من القاهرة يوم الثلاثاء آخر ذي الحِجَّة سنة ٦٣٦هـ/ ٢ آب ١٢٣٩م، ونزل بِلْبِيس[5]، وهو خائفٌ من أخيه الصَّالح أيوب، ولكنَّه يُظهر قصد الشَّام وانتزاعها منه[6]. ولم يقم بها إلا أيامًا قلائل حتى تغيَّر على النَّاصر داود، ففارقه الناصر على غير رِضًا عائدًا إلى الكَرَك[7].



(١) مفرج الكروب (٥/ ٢١٣ _ ٢١٥).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٣).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٩، ٣٦٣).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢١٥ _ ٢١٦).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٧٩، ٢٨٣).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢١٨).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٩).

استيلاءُ الصَّالح إسماعيل بن العادل على دمشق وسجن الصَّالح أيوب بالكَرَك

- ١ -

وفي الوقت الذي كان فيه الصَّالح إسماعيل يكتب للصَّالح أيوب بأنَّه قادمٌ إليه، كان يُكاتب العادل في مصر، ويُخبره بما هو عازمٌ عليه من أخذ دمشق من الصالح أيوب، وأنه إذا ملك دمشق كان نائبَه فيها، ويخطُبُ له، ويضرب السِّكَّة باسمه. وكُتُبه متواترة كذلك إلى المجاهد أسد الدِّين؛ صاحب حمص في تقرير ما عزم عليه[1]. وأمواله وخِلَعُه تصل إلى دار نجم الدِّين ابن سلَّام، لتفرَّق في دمشق على مقدَّميها. ولا يصدِّق سبط ابن الجوزي، وهو البعيد في القدس، بمشاركة صديقه نجم الدِّين بهذا الغدر، فيقول مشكِّكًا: «على ما قالوا»[2].

ولمَّا استبطأ الصَّالح أيوب وصولَ عمِّه الصَّالح إسماعيل، سيَّر إليه الحكيم سعد الدِّين الدِّمَشْقي، لحثِّه على سرعة القدوم إلى نابُلُس، وأصحَبَ سعدَ الدِّين قفصًا فيه حَمَام ليطالعه بالأخبار يومًا بيوم. وحين وصل سعد الدِّين إلى بَعْلبك، أنزله الصَّالح إسماعيل عنده. وبدهاء ومكر أبدلَ حَمَام قلعة بعلبك بحَمَام سعد الدِّين، وهو لا يشعر بذلك.

وشرع على الفور في جمع الرِّجال والاحتشاد والاحتفال لقَصْد دمشق، ويشاهد سعدُ الدِّين ما يقوم به الصَّالح إسماعيل، فيكتب في البطائق إلى الصالح أيوب بما يشاهده من غدر الصالح إسماعيل وسعيه في قصد

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٢٠).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٣).

دمشق، ويعلِّق البطائق في أجنحة الحَمَام، فيقع الحمام في بُرْج قلعة بَعْلبك، وهناك تُغيَّر البطائق، ويكتبُ بدلًا منها على لسان سعد الدِّين بأن المولى الصَّالح إسماعيل مهتمٌّ بالمسير إلى المعسكر المنصور بنابُلُس بنفسه، وما يتأخر قدومه عن السُّلطان. ويصل الحَمَامُ إلى الصَّالح أيوب، فيطيب نفسًا بذلك، وينتظر مطمئنًا وصول عمِّه الصَّالح إسماعيل.

ويتمُّ للصَّالح إسماعيل بهذا التَّدْبير الماكر ما أراده من جمع الرِّجال والاحتشاد لقصد دمشق، وانقطاع الأخبار بذلك عن الصَّالح أيوب.

ثم يبعث إلى ولده المنصور نور الدِّين محمود يستدعيه من نابُلُس، موهمًا الصَّالح أيوب أنَّه إنما يطلبه ليجعله نائبًا عنه في بَعْلبك قبل مسيره إليه. فيتوجَّه نورُ الدِّين بأصحابه إلى والده، ويسيِّر الصَّالح أيوب ابنه مغيث الدِّين عمر إلى دمشق ليحفظها، ويقيم بقلعتها[1].

ويخرج الصَّالح إسماعيل من بَعْلبك بعساكره، متخذًا طريق نابُلُس، ويبيتُ بالمجدل، ويكتبُ بطاقة إلى الصَّالح أيوب أنَّه في طريقه إليه. حتى إذا كان وقت السَّحَر ينعطفُ على الفور نحو دمشق[2].

ويصلُ إلى الصَّالح أيوب خبرُ مسير عمِّه الصَّالح إسماعيل إلى دمشق[3]، فيستبدُّ به غضبٌ مكتوم لخِدَاعه له، فما كان يخطر له على بال أنَّ عمَّه سينكث بأَيْمانه، وينقض عهوده ومواثيقه[4]، فيكتم الخبر[5]، ويتقدَّم إلى أستاذ داره الأمير حسام الدِّين بن أبي علي الهَذَباني أن يسارع إلى دمشق لحِفْظها قبل أن يصل عمُّه إليها. فيسير إليها مُسْرعًا، وما إن يصل إلى الكُسْوة حتى يرد إليه الخبر بمنازلة الصَّالح إسماعيل دمشق، فيعلم أنه لم يبق له من سبيلٍ إلى دخولها، فيتركها لمصيرها، ويعود أدراجه خائبًا إلى الصَّالح أيوب[6].

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٧).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٧).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٣١).

وكان الصَّالح إسماعيل قد وصل إلى دمشق من جهة عقبة دَمَّر، ووقف منتظرًا وصول المجاهد أسد الدِّين؛ صاحب حمص الذي كان هو الآخر في طريقه إلى دمشق، وأصبح قريبًا من وادي مَنِين، ويلتقي الاثنان على دمشق[١]. ولم يشعر أهلُ دمشق إلا وهما على أبوابها بُكْرة نهار[٢] يوم الثلاثاء **٢٧** صفر سنة **٦٣٧**هـ/ **٢٨** أيلول **١٢٣٩**م[٣] في جمعٍ عظيم من الخيالة والرَّجَّالة، وليس فيها من يدافع عنها. فيتسلَّق جماعةٌ من أصحاب الصَّالح إسماعيل خان المقدَّم قرب باب الفراديس، فينزلوا منه، ويكسروا قُفْل الباب، ويساعدهم على ذلك جماعة ممن تآمروا معهما، ويدخل الصَّالح إسماعيل والمجاهد دمشق، ويطيِّب الصالح إسماعيل قلوبَ أهل دمشق الحيارى المذهولين، قائلًا لهم: ادعوا للسُّلطان الملك العادل، فأنا نائبُه وغلامُه. ثم يمضي مطمئنًّا إلى داره بدرب الشَّعَّارين، وينزل المجاهد في داره قرب جامع دمشق[٤].

وأول من يدخل على الصَّالح إسماعيل في داره نجمُ الدِّين بن سلَّام، فيهنئه ويرقص بين يديه، ويقول له: إلى بيتك جئت[٥].

ويمتنع المغيث عمر بن الصَّالح أيوب في قلعة دمشق، مع جماعةٍ قليلة[٦]، فيزحف إليها الصالح إسماعيل صباح يوم الأربعاء **٢٨** صفر/ **٢٩** أيلول من ناحية باب الفرج، وينقبها[٧]، وتخرب بذلك دار الحديث الأشرفية، وغيرها من الدُّور والحوانيت تحت القلعة[٨]، ويضطرُّ المغيث عمر في آخر النهار[٩] إلى تسليمها له بالأمان، فيصعد إليها الصَّالح إسماعيل، ويعتقل المغيث عمر في بُرْج من أبراجها[١٠]، ويستولي على ما

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٢٩).
(٣) المذيل على الروضتين (٢/ ٥٠).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢٢٩).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٢٩).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤).
(٨) المذيل على الروضتين (٢/ ٥٠).
(٩) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٢).
(١٠) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٠).

فيها، ولم يكن بها ذخائرُ ولا عُدَّة[1].

ويفوِّض الصَّالح إسماعيل أمور مملكة دمشق إلى وزيره أمين الدَّولة أبي الحسن بن غَزَال السَّامري، وكان يهوديًّا، وأسلم في صباه[2].

وفي دمشق كان يقيمُ وقتئذٍ الواعظ العماد الواسطي، المتَّهم بشُرْب الخمر[3]، وكان من المشبِّهة، فقد ذَكَرَ مرة على المنبر أن الله خلق آدم بيديه، وأومأ إلى يدي نفسه. وكان يعظ في الأعزية، فيُستثقل ولا يُلتفت إليه، فيتعصَّب له الوزير أمين الدَّولة السَّامري، ويقيمه في الوعظ مقام سبط ابن الجوزي، ويعينه على ذلك نجمُ الدِّين ابن سلَّام. ويأسى سبط ابن الجوزي لما آل إليه الحال في دمشق، ولا يخفي شماتته بكراهية أهلها لهذا الواعظ الدَّخيل، فيقول: «وظهر في تلك الأيام من النِّفاق ما كان يبدو من المنافقين زمن النبي ﷺ، وردَّ الله كيدَهم في نحورهم، وانعكستْ عليهم الأمور، وكان الدَّماشقة إذا جلس في الجامع يصيحون من جوانب الجامع: لا عاش المشبِّهون!»[4].

ـ ٢ ـ

وكان الصَّالح أيوب، بُعيد مسير الأمير حسام الدِّين بن أبي علي، قد رحل من نابلس بمن معه من العساكر، فلمَّا وصل إلى بَيْسان من الغور بلغه خبر دخول عمِّه الصَّالح إسماعيل دمشق، ثم ما لبث أن رجع إليه الأمير حسام الدِّين عائدًا من الكُسْوة، فأمر بتحليف الجُنْد، وهو يظنُّ أن قلعة دمشق ستبقى عَصِيَّة عليه، فإذا سارع إلى دمشق استطاع دفع المجاهد والصالح إسماعيل عنها.

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٩)، ومفرج الكروب (٥/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، ٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥)، وعيون الأنباء (٧٢٣).

(٣) وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٤، ٣٣٥).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٢٥).

فرحل على الفور بالعسكر، وقطع نهر الأردن، ونزل على القصر المعروف بقصر معين الدِّين. وهناك تواترت الأخبار بتسلُّم الصَّالح إسماعيل قلعة دمشق[1]، فأُسْقِطَ في يده، وشاع في عسكره أخذ دمشق، وبدأت تتوارد إليهم مكاتباتُ الصَّالح إسماعيل تستميلهم إليه، ففسدت نياتهم[2]، وتناجَوْا فيما بينهم بتعذُّر مقامهم معه، وقد تلاشى أمره، والبلاد قد صارت لغيره[3]، ولن تقوم بعدها له قائمة[4]. ثم إنهم خافوا على أهليهم وأولادهم وقد تركوهم بدمشق[5]، فبعثوا إليه يقولون له: لا يمكننا المُقام معك ها هنا، فإنَّ أهلنا وأولادنا بدمشق، فأذنْ لنا في الرَّحيل إليها. وكان معه من أهل بيته عمَّاه مجيرُ الدِّين يعقوب وتقيُّ الدِّين عبَّاس، فأذِنَ لهم. فضربوا كوساتهم ورحلوا، وهو يشيِّعهم بنظراتٍ حزينة.

بل إن أقرب خُدَّامه إليه نهبَ شيئًا كثيرًا من قُماشه وخزائنه، واستصحب جماعة من مماليكه الأصاغر وغِلْمانه، وهرب مع العسكر بهم. وحتى القاضي بدر الدِّين يوسف بن الحسن؛ قاضي سِنْجار، وهو من أجلِّ أصحابه، جاءه يستأذنه في المضيِّ إلى دمشق، فأذِنَ له.

وهكذا رحل عسكر الصَّالح أيوب كلُّهم، ومن كان معه من الكُتَّاب والمتصرِّفين والغِلْمان إلى دمشق، ولم يبق معه من أمرائه سوى خمسة أو ستة، منهم الأمير حسام الدِّين بن أبي علي الهَذَباني. ومن مماليكه نحو سبعين مملوكًا، وبقي معه كاتبُ إنشائه الشَّاعر بهاء الدِّين زهير[6]، وجاريته شجر الدُّرِّ أم خليل[7].

وأقام الصالح أيوب بمنزلته تلك بقية يومه بعد أن فارقه أصحابُه

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٢).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٨).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٢).
(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٨).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤)، ومفرج الكروب (٥/ ٢٤٠).

وعساكره[١]. وقد اختلفت آراء من حوله، فمنهم من أشار عليه بالمضيِّ إلى الشَّقيف والتحصُّن به. فلم يره الصالح أيوب برأي، خوفًا من أن يقصده فيه عمُّه الصَّالح إسماعيل ويحاصره، ويقبض عليه. ومنهم من أشار عليه بأن يمضي إلى الشَّرق ـ مستغلًّا انشغال عمِّه عنه بملك دمشق ـ فإن له به حصن كيفا، وهو حصنٌ منيع، وقلعة الهيثم وغيرها من معاقل آمِد. وكذلك لم ير الصالح أيوب هذا برأي، فقد خاف أن يتبع ويؤخذ والشُّقَّة بعيدة، وقال: ما أرى إلا التوجُّه إلى نابُلُس، والتجئ إلى ابن عمِّي النَّاصر داود.

فلما جنَّه الليل أمر أن لا تُشعل الفوانيس ولا المشاعل[٢]، ورحل، وقد فتَّ في عضده مفارقة العسكر له، وأيقن بزوال مُلْكه[٣]. حتى إذا أشرقت الشمس، ورأى مماليكه ما هم فيه من القِلة والحالة التي دُفعوا إليها انخرطوا في البكاء والنَّحيب[٤]. وفي الطريق طمع فيه أهل الغور[٥] وطائفة من العُرْبان يريدون أخذه[٦]، فقاتلهم الصَّالح أيوب، وانتصر عليهم، ثم تابع طريقه نحو نابُلُس، ونزل بظاهرها[٧].

وأما عسكره الذين أرسلهم إلى غزَّة، فحين بلغهم ما جرى له، وتحققوا منه، آثر أكثرهم الرُّجوع إلى مصر[٨].

ـ ٣ ـ

وأرسل النَّاصر داود إلى ابن عمِّه الصَّالح أيوب يطيِّبُ قلبه، ويعده النُّصْرة والمساعدة، وزيادة في طمأنته أشار عليه أن يدخل نابُلُس، وينزل في دار المعظَّم عيسى التي نزلها من قبل[٩]، وأَذِنَ له أن يبعث ولاته إلى

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٤).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٥).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٨).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٦).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤).
(٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٨).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٦).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٨).
(٩) مفرج الكروب (٥/ ٢٣٩).

غزَّة والسَّاحل[(١)]. ثم بعث إليه الأميرين عماد الدِّين بن موسك والظَّهير بن سُنْقُر الحلبي في ثلاث مئة فارس، فالتقاهم الصَّالح أيوب، فقالوا له: طيِّب قلبك، إلى بيتك جئت. فقال معتذرًا عما بدر منه في حق النَّاصر: لا ينظر ابن عمي إلى ما فعلتُ، فهذا شأن الملوك، وقد جئت إليه أستجير به. فقالوا: قد أجارك، وما عليك بأس. وأقاموا أيامًا حول داره[(٢)]، يتحيَّنون الفُرْصة للقبض عليه وحده.

وتمكَّنوا من ذلك أخيرًا مساء الجُمُعة **١٢** ربيع الأول سنة **٦٣٧**هـ/ **١٢** تشرين الأول **١٢٣٩**م[(٣)]، بحيلةٍ احتالوها عليه، فقد ضربوا في تلك الليلة بوق النَّفير، ونادوا في أرجاء نابلس مُوهمين أنَّ الفرنج قد أغاروا على بعض النَّواحي، فركب النَّاسُ ومماليكُ الصَّالح أيوب لمطاردتهم، وبقي الصَّالح أيوب وحده دون حامٍ يدافع عنه[(٤)]، فأحاط بداره العسكر، ودخل عليه الظَّهير بن سُنْقُر الحلبي، وقال له: تطلع إلى الكَرَك، فإنَّ ابن عمك له بك اجتماع. وأخذ سيفه[(٥)]، ثم أركبه على بغلة بإهانةٍ وذلة[(٦)]، وساروا به ليلًا نحو الكَرَك، ولم يصحبه في رحلته تلك إلا مملوكٌ واحد من مماليكه هو الأمير ركن الدِّين بيبرس[(٧)]، وجاريته شجر الدُّرِّ[(٨)]، وكانت

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٠).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥).
وأثبتُّ رواية سبط ابن الجوزي؛ لأنه كان متابعًا لما يجري في تلك الأيام. وذكر ابن واصل في «مفرج الكروب» (٥/ ٢٤٠): أن الناصر داود قدم إليه بعسكره إلى نابلس، ولم يجتمع به. وتابعه على ذلك المقريزي في «السلوك» (ج١/ ق٢/ ٢٨٩).

(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٩).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٥)، ومفرج الكروب (٥/ ٢٤٠).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٥). (٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٩).

(٧) وهو غير ركن الدِّين بيبرس البُنْدُقداري الذي أصبح فيما بعد الملك الظاهر، فهذا بيبرس الصَّالحي، وسيأتي خبر اعتقال الصالح أيوب له سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م في قلعة الجبل بالقاهرة، لقالةٍ بلغته عنه، فكان آخر العهد به. ينظر: (ص ٢٠٥) من هذا الكتاب.

(٨) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٠).

حاملًا[١]، حتى إذا وصلوا به إلى الكَرَك اعتقله النَّاصر داود بقلعتها، ووكَّل به مملوكًا له فظًّا غليظًا يحرسه[٢]، وأرسل إليه يقول: إنما فعلتُ هذا احتياطًا عليك، فلا يصل إليك مكروه من أخيك ولا من عمِّك، ولو لم أسيِّرْك إلى الكَرَك لقصداك وأهلكاك[٣].

وخيَّر النَّاصر داود أصحابَ الصَّالح أيوب بين أن يقيموا عنده، وبين أن يسافروا حيث شاؤوا، ووعدهم بإخراجه ذات يوم من الاعتقال، والقيام بنُصْرته حين يمكنه ذلك. فاختار مماليك الصَّالح أيوب المُقام عنده، وحده الأمير حسام الدِّين بن أبي علي طلب إذنًا بالذهاب إلى دمشق، فأذن له[٤]. وما إن وصل إلى دمشق حتى اعتقله الصَّالح إسماعيل في قلعتها مع من اعتقله من أصحاب الصالح أيوب، واستولى على جميع ما كان معه[٥]. وأكثر من حظي منهم بحُسْن استقباله واحترامه بدر الدِّين؛ قاضي سِنْجار، لقدم معرفته به[٦].

وبلغ العادل ما جرى على أخيه الصَّالح أيوب من أخذه ذليلًا، ونَهْبِ أمواله، وسجنه بالكَرَك، وظنَّ أنه قد أَمِنَ جانبه[٧]، فأظهر الفرح والسُّرور، وأمر بضرب البشائر، وتزيين القاهرة[٨]، وعمل سِماطًا عظيمًا تحت القلعة، فيه الطَّعام والشِّواء، وصنع قصورًا من حلوى، وأحواضًا مُلئت بالسُّكَّر والليمون، ودعا العادل أهلَ مصر لحضور هذه الوليمة الضَّخْمة، فحضروا إليها على اختلاف طبقاتهم. وبلغتِ الصَّالح أيوب في معتقله أخبار تلك الأفراح بالقاهرة.

---

(١) وولدت في الكرك، ولدها خليل بن الصالح أيوب، حمل معها من بعد إلى مصر، وتوفي صغيرًا. ينظر: «مفرج الكروب» (٦/ ٢٠١).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٥).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٢٤١).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٢).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٣).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٩ _ ٢٥٠).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٨٩ _ ٢٩٠).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٤).

ثم إنَّ العادل لم يقنع بسجن أخيه، فبعث إلى النَّاصر داود يطلبُ منه أن يبعثه إليه في قفصٍ من حديد، ويبذل له مقابل ذلك أربع مئة ألف دينار، ويعطيه دمشق، وحَلَفَ على ذلك أَيْمانًا عظيمة. وأطلع النَّاصرُ داود الصَّالحَ أيوب على كتاب أخيه، ثم كتب إلى العادل: أما الذهب فهو عندك كثيرٌ، وأما دمشق، فإذا أخذتَها ممن هي معه، وسلَّمْتها إليَّ، سلَّمْتُ أخاك إليك.

فلما ورد هذا الجواب على العادل أمر أن يتجهَّز العسكر ليخرج إلى الشَّام(١).

* * *

وكان الصليبيون قد أخلوا بشرط من شروط الهدنة مع الكامل، وهو أن يبقى القدس خرابًا، ولا يجدد فيه عمارة أصلًا. فبنوا قلعة في غربيِّه، وجعلوا برج داود من أبراجها، وكان هذا البرج قد سَلِمَ من الهدم حين خرب المعظم عيسى أسوار القدس(٢).

فنازل النَّاصر داود هذه القلعة في ١٨ ربيع الثاني **٦٣٧**هـ/ **١٧** تشرين الثاني **١٢٣٩**م، ورمى عليها بالمجانيق، ولم يزل مصابرًا لها(٣) حتى استولى عليها عَنْوة بعد واحدٍ وعشرين يومًا، في **٩** جمادى الأولى سنة **٦٣٧**هـ/ **٦** كانون الأول **١٢٣٩**م، وتأخر استيلاؤه على برج داود إلى **١٥** جمادى الأولى/ **١٢** كانون الأول، فأخذه من الصَّليبيين بالأمان على أنفسهم دون أموالهم(٤). فهدم القلعة والبُرْج، واستولى على القدس، وأخرج من كان فيه من الصَّليبيين(٥)، فساروا نحو السَّاحل(٦). وهكذا عاد القدس مرة أخرى إلى المسلمين بعد أن تنازل عنه للصَّليبيين الكاملُ بن العادل(٧).

---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٠).

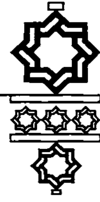
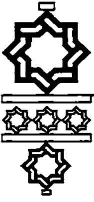
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٦)، وينظر: (ص ١٠٥) من هذا الكتاب.

(٣) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٧)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩١).

(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩١). (٥) مفرج الكروب (٥/ ٢٤٧).

(٦) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٧٦).

(٧) تنظر: (ص ١٣٦ ـ ١٣٨) من هذا الكتاب.

اجتماع سبط ابن الجوزي بالصَّالح أيوب في القُدْس وتملُّك الصَّالح مِصْر

- ١ -

ولبث الصَّالح أيوب في سِجْنه نحو سبعة أشهر[١]، كان النَّاصر داود خلالها يتضاءل أملُه في قدرة العادل على استرجاع دمشق له[٢]. فنفض يده من التَّحالف معه، وعزم على تنفيذ ما خطَّط له طويلًا، فأفرج عن الصَّالح أيوب في ١٧ رمضان سنة ٦٣٧هـ/ ١١ نيسان ١٢٤٠م، واستدعاه إليه وهو بنابُلُس[٣]، فرحل إليه الصَّالح أيوب، وهو في غاية السرور والاستبشار[٤]، ولمَّا وصل إلى نابُلُس، التقاه النَّاصر داود وأجلَّه[٥]، وضرب له دِهْليز السَّلْطنة، فنزل به. واجتمع إليه مماليكُه وأصحابه الذين لم يفارقوه في محنته[٦].

ولما أهلَّ عيدُ الفطر تقدَّم النَّاصر داود إلى خطيب نابُلُس[٧] بقطع الخُطْبة للعادل، وأن يخطب للصَّالح أيوب، ويدعو له. وأظهر أمره وأشاع ذِكْره، فتسامع أصحاب الصَّالح أيوب به، فتواردوا إليه يقصدونه من كلِّ ناحية[٨].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٥).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٣).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢٥٨).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٣).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٥٨).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٣).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٢٥٩)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٣).

ثم سار النَّاصر داود والصَّالح أيوب إلى القُدْس، وتحالفا عند قُبَّة الصَّخرة على أن تكون ديار مِصْر للصَّالح أيوب، والشَّام والشَّرق للنَّاصر داود[١].

وفي القدس التقى سبط ابن الجوزي الصَّالح أيوب[٢]، وكأنَّه تفرَّس فيه قدرته على أخذ مصر، فرغب إليه أن يتعاهد سور القُدْس بالعِمارة، فما زال خرابًا مُنْذ هدمه المعظم سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م[٣]، فوعده الصَّالح أيوب بذلك[٤].

ثم سار الصَّالح أيوب والنَّاصر داود إلى غزَّة[٥].

وعلم العادل بن الكامل والصَّالح إسماعيل والمنصور إبراهيم بن المجاهد؛ صاحب حمص، بإخراج الصَّالح أيوب من الحبس، فاتَّفقوا على محاربة النَّاصر داود وقَصْده، وكان العادل أوَّل من خرج من القاهرة ونزل بِلْبِيس بالعساكر يريد الشَّام[٦]. وأرسل إلى الصَّالح إسماعيل بأن يخرج بالعساكر الدِّمشقية لتلتقي عليهما عساكرُ دمشق ومِصْر، ويقبض عليهما، وينتزع البلاد من يد الناصر داود[٧]. فرحل الصَّالح إسماعيل من دمشق بعساكره إلى الفَوَّار من أرض السَّواد، ومعه المنصور إبراهيم بن المجاهد بعساكره[٨]، وخيَّم به[٩].

وخشي الصَّالح أيوب والنَّاصر داود، وهما بغزَّة، من إطباق عساكر الشَّام ومِصْر عليهما[١٠]، ولم يأتهما كتابٌ من أيِّ أميرٍ من أمراء مصر،

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٥٩، ٥٧١)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٤)، وينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٦٦).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٢).

(٣) ينظر: (ص ١٠٥) من هذا الكتاب.

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٨).

(٥) مفرج الكروب (٥/ ٢٥٩).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٦).

(٧) مفرج الكروب (٥/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٨) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٠).

(٩) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٣).

(١٠) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٤).

وكانا يظنَّان أنَّهما إذا نزلا غزة كاتبهما أمراؤها، وانضمَّ إليهما بعضُ عساكرها، فارتدَّا على آثارهما إلى نابُلُس، وأقاما بها على خوفٍ وفزع[(١)].

وفرح الصَّالح إسماعيل والمنصور إبراهيم برجوعهما إلى نابُلُس، وكانا خائفين أن يكون مضيُّهما إلى غزَّة بمكاتبةٍ وردت إليهما من مصر، فلما رجعا، وتحقَّقا اجتماع العساكر المصرية ببِلْبِيس لحربهما، طمعا فيهما[(٢)].

واشتدَّ خوفُ النَّاصر داود لما جرى، ولم يعد يدري ما يفعل، هل يذهب هو والصالح أيوب إلى الكَرَك ليعتصما بها ويتحصَّنا؟ أم يُعيد الصَّالح أيوب إلى الاعتقال، ويأخذ في مداراة عمِّه الصَّالح إسماعيل وابن عمه العادل[(٣)]؟

وأما الصَّالح أيوب فلم يجد مُتنفَّسًا لِمَا يكابده في صدره من ضيقٍ وكَرْب، إلا أن ينفرد بنفسه، ويصعد إلى جبل الطُّور؛ قِبْلي نابلس، حيث ثمة مزارٌ مشهور، فيصلي فيه، ويبتهل إلى الله سبحانه أن يكشف عنه ما هو فيه. وبينما هو في صلاته وابتهاله، إذ جاءه نجَّابٌ يبشره بقبض الأمراء على أخيه العادل، واستدعائهم له ليملِّكوه مصر. فطفح قلبه بالبِشْر والسُّرور، إذ أتاه من الفَرَج ما لم يكن في حِسْبانه ولا حِسْبان أحدٍ من النَّاس[(٤)].

ـ ٢ ـ

وكان أمراءُ مصر قد ضاقوا ذَرْعًا بالعادل، وانشغاله باللَّهْو واللعب، وتقديمه الصِّبيان والمساخر[(٥)]، ومن لا يصلح للتقدُّم، وإعراضه عن أكابر الدولة وعظمائها[(٦)]، وربما بلغهم أنه يريد التخلص من بعضهم[(٧)]، فاتفقوا

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٠).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢٦١، ٢٦٤).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٤).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٢).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٥).

على القبض عليه[1].

فركبوا ليلة الجمعة ٨ ذي القعدة سنة ٦٣٧هـ/١ حزيران ١٢٤٠م[2]، وأحاطوا بدِهْليز العادل، ورَمَوْه، وانتهبوا ما حوله، وجعلوا العادل في خيمةٍ صغيرة، ووكلوا به من يحفظه[3]. ولم يتحرَّك أحدٌ من الأمراء لنُصْرته[4].

* * *

ولم يتخلَّ الصَّالح أيوب حين جاءته تلك البُشْرى عن حذره، فقد خاف أن تكون خدعة للقبض عليه[5]، فلمَّا تحقَّق هو والنَّاصر داود القبض على العادل سارا مُسْرعَيْن يطويان المراحل، ودخلا صحراء سيناء، وكان يصلُ إليهما في كلِّ منزلة ينزلانها جمعٌ بعد جمع، وأميرٌ بعد أمير حتى وصلا إلى المعسكر ببِلْبِيس، وتسلَّم الصَّالح أيوب أخاه العادل، وصار في قبضته[6].

ويبدو أن النَّاصر داود أحبَّ أن يختبر الصَّالح أيوب، ومدى التزامه بما اتفقا عليه، فطلب منه أن يسلِّم إليه قلعة الشَّوْبك، وكانت أثيرةً لديه[7]، فلم يستجبِ الصَّالح أيوب له. فانزعج النَّاصر داود، وزاد من انزعاجه ما أبداه الصَّالح أيوب من فتورٍ تجاهه، فقد كان يظنُّ أنه سيبعثُ معه على الفور العساكر المِصْرية ليستعيد دمشق وسائر البلاد التي انتزعت من مملكة أبيه المعظَّم[8]. ولعلَّ ندمًا تسلَّل إلى قلبه لتحالفه معه، ففي ليلة جَمَعه الشَّرابُ مع الصَّالح أيوب، فانتشى، فقال للصَّالح أيوب وقد شطح به السُّكْر: أريد أن اجتمع بالعادل. وكان معتقلًا في خيمة إلى جانب خيمة الصَّالح، فأذِنَ له. فمضى النَّاصر داود إلى خيمة العادل، وقال له: تبصر أي شيء فعلتُ، وكيف أوقعتك في هذه الحال؟ وأنا قادرٌ أن أردَّك إلى

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٣).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٦).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٣).
(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٥).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٦).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٥).
(٧) ينظر: (ص ١٣٢، ١٤٣) من هذا الكتاب.
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٢٧١).

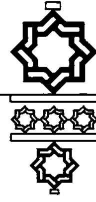
مُلكك. فتغاضى الصَّالح أيوب عمَّا سمع منه، وغاظه فِعْلُه[1].

ورحل الصَّالح أيوب إلى القاهرة، ودخل قلعة الجبل بُكْرة الأحد ٢٤ ذي القعدة سنة ٦٣٧هـ/ ١٧حزيران ١٢٤٠م[2]، واعتقل أخاه العادل ببعض دوره، واستحلف الأمراء[3]. وزُيِّنتِ القاهرة والقلعة، وفرح النَّاس بقدومه لنجابته وشهامته واستحقاقه الملك، ونزل الناصر داود بدار الوِزَارة على عادته[4].

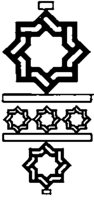
وما إن استقرَّ الصالح أيوب بالقاهرة حتى بدأت تساوره الشُّكوك من أفعال النَّاصر داود، لكثرة اجتماعه سِرًّا ببعض الأمراء[5]، وكان يتأول أَيْمانه التي حلفها له أنه حلفها مُكْرهًا[6] تحت القهر والسَّيف؛ لأنه كان في قبضته. وما تمَّ الاتفاق عليه بينهما مستحيل التنفيذ[7]، ولذلك عزم على التخلُّص من عِبْءِ صُحْبته. ولأنه لا يمكنه اعتقاله لكيلا يُنسب إلى الغَدْر، أرسل إليه شخصًا بهيئة النَّاصح المُشْفق يقول له: إني جئتُ إليك لحقِّ أَنْعُمِك، فاكتمْ عني ما أقوله لك، لئلا يؤذيني ابنُ عمِّك الصَّالح أيوب، فإنَّه قد أمر بالقبض عليك، فخُذْ حِذْرك منه[8]. فدبَّ الرُّعب في قلب الناصر داود وآثر السَّلامة، فطلب الإذن من الصَّالح أيوب[9]، بالرَّحيل إلى الكَرَك[10]، وسار مسرعًا بأصحابه وهو خائفٌ يترقب[11]، حتى رجع إلى بلاده وهو بين الطَّائع والعاصي[12].

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)، وينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٦)، والمذيل على الروضتين (٢/ ٥١).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٧).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٢٧٠)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٨).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٢٥٩).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٦).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٢٧٢).
(٩) مفرج الكروب (٥/ ٢٧١).
(١٠) السلوك (ج١/ ق٢/ ٢٩٩).
(١١) مفرج الكروب (٥/ ٢٧٢).
(١٢) مفرج الكروب (٥/ ٢٧١).



سبط ابن الجوزي في مِصْر



ـ ١ ـ

لا ندري متى سافر سبط ابن الجوزي من القُدْس إلى مصر[1]، هل كان ذلك عقب مسير الصالح أيوب والناصر داود إليها، أم بعد رجوع النَّاصر منها؟ ولكن ما ندريه أنه أقام بالقاهرة بصحبة ملكها الجديد الصَّالح أيوب، حتى غدا من جُلَسائه، وصار يبوحُ له ببعض ما جرى له مع الناصر داود في القُدْس، وفي طريقه إلى مصر. وممَّا قاله له: حلَّفني على شيءٍ ما تقدِرُ عليه ملوكُ الأرض، وهو أن آخذ له دمشق وحِمْص وحماة وحلب والجزيرة والمَوْصل وديار بكر وغيرها، ونصف ديار مصر، ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل والثِّياب وغيرها، فحلفتُ من تحت القَهْر والسَّيْف.

ثم إنَّه لمَّا أخرجني نَدِمَ وعزم على حبسي، فرميتُ روحي على ابن قليج، فقال: ما كان قصدُه إلا أن يتوجَّه إلى دمشق أولًا، فإذا أخذناها عُدْنا إلى مِصْر.

وليلة وصلنا إلى بِلْبِيس شرب، وشَطَحَ إلى العادل، فخرج من الخركاة، وقبَّل الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيتَ ما أشرتُ عليك، ولم تقبل مني؟ فقال العادل: يا خوند، التوبة. فقال: طيِّبْ قلبك، السَّاعة أطلقك. ثم أردف الصَّالح: وجاء، فدخل علينا الخيمة، ووقف، فقلتُ: بسم الله، اجلسْ. فقال: ما أجلسُ حتى تُطْلق العادل. فقلتُ: اقعد. وهو

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٤، ٣٦٦).

يكرِّر الحديث، فسكتَ، ولو أطلقته لضرب رقابنا كلَّنا. ونام، فما صدَّقتُ بنومه، وقمتُ في باقي الليل، أخذتُ العادل في مِحَفَّة، ودخلتُ به القاهرة. ولما دخلنا القاهرة بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إليَّ مع غلماني.

وقال لي مرة: بُس يدي ورجلي. ويُبْدي سبط ابن الجوزي استغرابه ممَّا يقالُ عن ابن صديقه، وهو يعرفه من صِغَره، فيقول للصَّالح أيوب: ما أظنُّه يبدو منه هذا، وهو رجلٌ عاقل! فيقسم له الصَّالح أيوب بالله إنَّ هذا وقع منه(١).

ويحكي له الصَّالح أيوب فيما يحكي عن خديعة عمِّه الصَّالح إسماعيل له في أَخْذِ دمشق منه، وكيف جرت وقائِعُها، وعمَّا قام به نجم الدِّين ابن سلَّام في ذلك، ثم يردِّدُ بغضبٍ قائلًا: إنْ فتح الله على يدي دمشق لأفعلنَّ به وأَصْنَع(٢).

* * *

ويلوذُ سبط ابن الجوزي بالصَّمت، لعجزه عن الدِّفاع عن صديقه نجم الدِّين، وهو الذي عرفه بكرم أخلاقه، وحبِّه للصَّالحين، وفي الوقت نفسه لا يخفي امتعاضه منه لمناصرته الصَّالح إسماعيل على غدره وظلمه، فيقرُّ بأنه «دخل في أشياء لا تليقُ بأبناء جنسه طمعًا بالدُّنْيا»(٣).

وقد كان يبلغه ما يقعُ بدمشق وقتئذٍ من مظالم الصَّالح إسماعيل ووزيره أمين الدَّولة السَّامري(٤)، وحتى من قاضي قُضاته رفيع الدِّين عبد العزيز بن عبد الواحد الجِيْلي، فقد كان فاسد العقيدة، دَهْريًّا، مستهترًا بأمور الشَّريعة، يخرج سكرانًا إلى صلاة الجُمُعة ومجلس الحُكْم، وداره مثل الحانات، والنِّساء بالرِّجال مختلطات(٥).

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٩)، وكان نجم الدين صديقًا لسبط ابن الجوزي، تنظر: (ص ٤٣) من هذا الكتاب.

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٣). (٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٢١).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٥).

ويحرِّك فشوُّ ظلمهم شمسَ الدِّين محمد بن سَعْد المقدسي؛ كاتبَ الصَّالح إسماعيل على نظم قصيدة، ينصح له فيها بعزل وزيره أمين الدولة السَّامري، والقاضي الرَّفيع ونوابهما، آملًا أن يجد منه أذنًا صاغية، ولكن هيهات، ومما قاله له فيها:

يا مالكًا لم أجدْ لي من نصيحته ... بُدًّا وفيها دمي أخشاه مُنْسفكا
اسمعْ نصيحة مَنْ أَوْلَيْتَه نِعَمًا ... يخافُ كُفْرانَها إن كَفَّ أو تَرَكا
واللَّه ما امتدَّ مُلْكُ مدَّ مالِكُه ... على رعيَّته من ظُلْمه شَبَكا
وزيرُه ابنُ غَزَالٍ والرَّفيعُ به ... قاضي القُضاة ووالي حَرْبِه ابنُ بكا
جماعةٌ بهمُ الآفاتُ قد نُشِرَتْ ... والشَّرْعُ قد مات والإسلامُ قد هَلَكا

ويكتب نسخة منها بخطِّه لسِبْط ابن الجوزي بُعيد عودته إلى دمشق، فيطربُ لها، ويبلغ سروره بها أن يقول: «لو كُتبت بماءِ الذَّهب على الأحداق لكان ذلك أقلَّ من القليل»[1].

ـ ٢ ـ

إذ لم يطل مكثُ سبط ابنِ الجوزي بالقاهرة، فنراه يعود منها إلى القدس، برغم الحفاوة التي لقيها من الصَّالح أيوب، بل إنه يفاجئنا برجوعه إلى دمشق سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م[2]، دون أن يوضِّح الأسباب التي دفعته للرُّجوع إليها في ذلك الزَّمن الصَّعب، فهل كان حقًّا يتوقَّعُ ترحيبًا من صاحبها الصَّالح إسماعيل بعد ما شاع من صُحْبته لعدوِّه اللَّدود الصَّالح أيوب؟

فقد كان الصَّالح إسماعيل يتقلَّبُ في تلك الأيام على فراش الخوف من ابن أخيه الصَّالح أيوب، منذ أن غدر به، وانتزع دمشق منه، واعتقل ولده المغيث[3]. وكان يخشى أن يهاجمه مع حليفه النَّاصر داود[4]. فتلفَّت

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٢). (٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧١).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٢)، وينظر: (ص ١٦٩) من هذا الكتاب.
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٧٨).

حوله باحثًا عن حليفٍ قويٍّ لمساعدته على محاربته، فلم يجد أمامه إلا الصَّليبيين، فكاتبهم، فأَبَوْا أنْ يجيبوه لِمَا طلب إلا بأن يسلِّم إليهم حِصْني شقيف أرنون وصفد[١]، وهما من أمنعِ الحصون[٢]، فوافق على ذلك[٣].

وامتنع والي حصن شقيف أرنون من تسليمه للصَّليبيين، فخرج الصَّالح إسماعيل من دمشق، ومضى إلى الشَّقيف، فعذَّب واليه واستأصله لامتناعه من تسليمه، ثم سلَّمهم الحصن بنفسه، وكان عامرًا. وسلم إليهم صفد، وكانت خرابًا[٤].

فلما تسلمهما الصَّليبيون[٥] سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م[٦]، باشروا بعِمارة صفد، وعظم بذلك الضَّرر على المُسْلمين، واشتدَّ إنكارُهم لِمَا فعل واستعظموه[٧]. وكان من أشدِّ المنكرين له مُفْتي دمشق وخطيبُها الشيخ عز الدِّين بن عبد السَّلام[٨].

ورأى الصَّالح إسماعيل، وقد تقوَّى بتحالفه مع الصَّليبيين، أن يبدأ غريمه بالحرب، فأرسل إلى المنصور إبراهيم؛ صاحب حمص، وإلى الحلبيين، وإلى الصَّليبيين أنه عازمٌ على قصد مصر، ويطلب منهم النَّجَدات. وأَذِنَ للصَّليبيين في دخول دمشق، وشراء السِّلاح منها. فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق. فأنكر المُسْلمون ذلك، ومشى أهل الدِّين منهم إلى العلماء، واستفتوهم[٩]، فأفتى الشَّيخ عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام بتحريم بيع السِّلاح للفرنجة؛ لأنهم يشترونه لقتال المسلمين به، ولم يكتفِ بفتياه، بل قطع الدُّعاء للصَّالح إسماعيل في خُطْبته بجامع دمشق، وصار يدعو: اللَّهُمَّ أبرمْ لهذه الأمَّة أمرًا رشدًا، تُعزُّ فيه وليَّك،

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٠٢).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٠١).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٠٢).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨١).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٣٠٢).
(٦) المذيل على الروضتين (٢/ ٥٤).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٣٠٢).
(٨) مفرج الكروب (٥/٣٠٣).
(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٠٤).

وتذلُّ فيه عدوَّك، ويُعمل فيه بطاعتك، ويُنهى فيه عن معصيتك. والنَّاس يضجُّون بالدُّعاء[1]. وبسط عز الدِّين لسانه فيه، وأكثر من التَّشنيع عليه، وساعده على ذلك إمامُ المالكية الشيخ جمال الدِّين أبو عمرو بن الحاجب[2].

وكان الصَّالح إسماعيل في ذلك الوقت غائبًا عن دمشق، فكُوتب بذلك، فورد كتابه بعزل الشيخ ابن عبد السَّلام واعتقاله هو والشيخ أبي عمرو بن الحاجب[3]. فسُجِنا بقلعة دمشق، وتولَّى الخطابة بجامع دمشق عماد الدِّين داود بن عمر بن يوسف المقدسي الشَّافعي[4].

ثم أفرج عنهما لما رجع إلى دمشق[5]، وأمرهما بملازمة بيوتهما[6]، وألزم الشيخ عزَّ الدين بن عبد السَّلام ألا يُفتي ولا يجتمع بأحدٍ البتَّة، فاستأذنه الشَّيخ في صلاة الجمعة، وأن يأتي إليه طبيبٌ أو حلَّاق إذا احتاج إليهما، وأن يذهب إلى الحمَّام، فأَذِنَ له[7].

* * *

في غمرة تلك الأحداث المضطربة يقدم سبط ابن الجوزي دمشق، ويستقرُّ بمسكنه بالتُّرْبة البَدْرية، ويعاود التَّدريس بالمدرسة الشِّبْلية. فيوجس

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٢٤٣).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٠٤).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٥٤).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٠٤).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٠).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٠٤).
ثم إن الصالح إسماعيل أخرج الشيخين عز الدين بن عبد السلام، وأبا عمرو بن الحاجب من دمشق، فمضى عز الدين إلى مصر، ووصل إليها سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م، فتلقاه الصالح أيوب بالإكرام والاحترام، لمنزلته في العلم، ولما صدر عنه من التشنيع على الصالح إسماعيل؛ عدوه اللدود. ومضى أبو عمرو إلى الكرك، وأقام عند الناصر داود مدة، ثم سافر إلى مصر. ينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٥٧ ـ ٥٨)، و«مفرج الكروب» (٥/ ٣٠٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٨/ ٢١٠)، و«السلوك» (ج١/ ق٢/ ٣٠٨).

الوزير أمين الدَّولة السَّامري خِيْفة من مجيئه، فيدسُّ إليه مدرِّسًا من أعوانه وعيونه، هو يوسف بن يعقوب. فيزور يوسف ذات يوم سبط ابن الجوزي في مسكنه، ويجري بينهما الحديث عن الصَّالح أيوب، وخروجه من الحبس بالكَرَك، واجتماعه به في القُدْس. ويسترسل سبط ابن الجوزي في حديثه، مطمئنًا إليه.

ويمضي يوسف مُندفعًا إلى الوزير السَّامري، وينهي إليه حديثه، ناسبًا إليه كذبًا وزُورًا أنه ما أخرج الصَّالح أيوب من الحبس إلا سبط ابنُ الجوزي. فيتلقَّفُ السَّامري هذه الوشاية، ويشير على الصَّالح إسماعيل بإخراجه على الفور من دمشق.

فيُخرج في حرٍّ شديد إلى حماة[١]، وفيها بيتُ حميِّه[٢]، ويضرُّ الحرُّ برأسه حتى كادت تتلفُ عينه، ويذهب بصرها، ولكنَّ الله يمنُّ عليه بالعافية[٣].

ولم يُتح له أن يشهد بدمشق وقتئذٍ وفاة شيخها الصُّوفي المشهور محيي الدِّين محمد بن علي ابن عربي الذي توفي في ذلك العام، وما كتبه عنه فيما بعدُ يشي بأنه لم يكن على صلةٍ به[٤].

- ٣ -

ولم يتلبَّث سبط ابن الجوزي طويلًا في حماة، إذ سرعان ما يغادرها إلى مصر، ليقيم فيها نحو ثلاث سنين، من سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م[٥]، وحتى أواخر سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٤م[٦]، ليعود بعدها للإقامة في القُدْس[٧].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).
(٢) ينظر: (ص ١٢٢) من هذا الكتاب.
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٢).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٣).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٥).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٨).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٢).

وفي القاهرة يعاود صُحْبة ملكها الصَّالح أيوب، وكثيرًا ما كان يبوحُ له الصَّالح بذكرياته عمَّا جرى له في حياته، ولا سيَّما سجنه بالكَرَك. وقد حدَّثه ذات يوم من سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م عن معاناته ليلة اعتقال أمراء النَّاصر داود له بنابُلُس، وسوقهم له إلى الكَرَك، فقال: «أركبوني بغلة بغير مهماز ولا مقرعة، وساروا بي إلى البرية في ثلاثة أيام، والله ما كلمتُ أحدًا منهم كلمة، ولا أكلتُ لهم طعامًا حتى جاءني خطيبُ البرية، ومعه ثردة عليها دجاجة، فأكلتُ منها. وأقاموا بي في البرية يومين، ولم أعلم أيش كان المقصود، إذا بهم يريدوا يأخذوا طالعًا نحسًا، يقتضي أنني لا أخرج من الكَرَك. ثم أدخلوني الكرك ليلًا على الطَّالع الذي كان سببَ سعادتي ونحوسهم. ووكل بي مملوكًا له فظًّا غليظًا، يقال له: زريق، فكان أضرَّ عليَّ من كلِّ ما جرى. فأقمتُ عندهم إلى رمضان؛ سبعة أشهر. ولقد كان عندي خادمٌ صغير، فاتَّفق أنه أكل ليلة كثيرًا، فأتخم، وبال على البسط، فأخذت البساط بيدي والخادم، وقمتُ من الإيوان إلى قريب الدِّهْليز، وفي الدِّهْليز ثمانون رجلًا يحفظوني، وقلت: يا مقدَّمين، هذا الخادم قد أتلف هذا البساط، بالله انزلوا به إلى الوادي، واغسلوه. فَنَفَر فيَّ زريق، وقال: أيش جاء بك إلى هاهنا. وصاحوا عليَّ، فعدتُ إلى موضعي»[1].

* * *

ويبلغ سبط ابن الجوزي، وهو في القاهرة، أنَّ صلاح الدِّين موسى بن[2] شهاب الدِّين محمد بن خلف المقدسي[3]، في سجن الصَّالح أيوب[4]. وكان والده ـ وهو من زُهَّاد المقادسة في صالحية دمشق ـ شيخًا له[5]. وابنه موسى هذا كان خيِّرًا فاضلًا، يحبُّ الفقراء، ويخدم المشايخ،

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٦٥).

(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٦).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٠).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٦).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٠)، وتنظر: (ص ٤٢) من هذا الكتاب.

ويمشي في حوائج الناس، ويشتري الأسارى[1]، وذا معرفة بالشِّعْر والأدب، وله قصيدة في رثاء العماد إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي[2] .فيسعى سبط ابن الجوزي لدى الصالح أيوب لخلاصه من سجنه، فيتلكأ في الاستجابة له، ولا يطلق سراحه إلا بعد جهد جهيد[3].

وإلى القرافة كان سبط ابن الجوزي يختلف إلى زيارة الشيخ الصَّالح الفاضل أبي العبَّاس ابن تاميت المغربي، وقد صَحِبَ سلطان الموحِّدين في بلاد المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وانتفع به، واستفاد منه. فكان أبو العباس يحكي له من أخباره ما رآه وشاهده عِيانًا[4].

وكذلك كان يتردَّدُ إلى زيارة قبر الزَّاهد أبي الحسن علي بن محمد الصَّائغ الدِّينوَري، المتوفى سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م، وكان من كبار مشايخ مِصْر في عصره، فكان يدعو الله عنده، ويرى أثر الإجابة[5].

وككلِّ زائر للقاهرة كان يمتِّع عينيه بمشاهدة الأهرامات[6].

ويلتقي فيها خطيبَها الفقيه بهاء الدِّين علي بن هبة الله بن سلامة، سبط ابن الجُمَّيْزِي، وهو إمامٌ فاضل، عارفٌ بمذهب الشَّافعي، على كَرَمٍ فيه،

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٦).
(٢) أورد سبط ابن الجوزي بعض أبياتها في ترجمة العماد في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٢٢٢).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٦).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٧٢ ـ ٧٣)، وأورد سبط ابن الجوزي بعض ما حكاه له أبو العباس من أحواله، في ترجمة يعقوب بن يوسف في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٧٣ ـ ٧٥).
(٥) مرآة الزمان (١٧/ ٢٠١، ٢٠٤).
وقد أورد سبط ابن الجوزي ترجمة الدينوري في وفيات سنة ٣٣٠هـ، وذكره الذهبي في وفيات سنة ٣٣١هـ، وقال: توفي في نصف رجب بمصر. ينظر: «تاريخ الإسلام» (٧/ ٦٤٧ ـ ٦٤٨)، وسبط ابن الجوزي تعوزه الدقة أحيانًا في ضبط تواريخ وفيات الأعلام والوقائع.
(٦) مرآة الزمان (١/ ١٣٥).

قلَّ أن يدخل عليه أحدٌ إلا ويطعمه، فكان يقف مع سبط ابن الجوزي، ويباسطه، ويدعو له، ويشكره[1].

وفي القاهرة يجتمع به المؤرِّخُ المشهور شمسُ الدِّين أحمدُ بن محمد ابن خَلِّكان[2]، ويصحبه الحافظ شرفُ الدِّين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي، ويقرأ عليه بعض مروياته عن شيوخه وجدِّه أبي الفرج[3].

ويقع له، وهو في مصر، تاريخٌ لم يسمِّه، ينقلُ منه في «مرآته» أخبار دخول شمس الدَّولة تورانشاه أخي صلاح الدِّين إلى اليمن[4].

ويقفُ على كتاب «فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» للإمام أحمد ابن حنبل، برواية الإمام النَّسائي، وهو جزءٌ من كتابه «فضائل الصَّحابة»، فيقتنيه، وهو أحد موارده في مصنفاته[5].

وكان له جلساتٌ مع مشايخ مصر يحكون له فيها عمَّا وقع لهم من أخبارها[6].

وفي جلسة من تلك الجلسات، تذاكروا في مكان دفن رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما، فأنشده زين الدِّين أحمد بن عبد الله بن عزَّاز النَّحْوي، المعروف بابن قُطْنة[7]:

لا تطلبوا المولى الحسين ... بأرضِ شرقٍ أو بغربِ
ودعُوا الجميع وعرِّجوا ... نحوي فمشهده بقلبي[8]

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٢٠).
(٢) ينظر: «وفيات الأعيان» (٢/ ١٥٣، ٥/ ٨٥، ٧/ ٣٦).
(٣) معجم شيوخ الدمياطي (ورقة ٢١١).
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ١٩٤ ـ ١٩٦، ٢٧٣).
(٥) مرآة الزمان (٦/ ٤٣٥)، وينظر: (ص ٢٨٥) من هذا الكتاب.
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٨٩، ١٣١).
(٧) ينظر: «صلة التكملة» (٢/ ٦٠١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ١٦٤).
(٨) مرآة الزمان (٨/ ١٧٠)، وتذكرة الخواص (٢٦٦ ـ ٢٦٧).

وكان سبط ابن الجوزي، كجدِّه أبي الفرج، لا يخفي محبَّته لآل البيت ولا سيَّما للحسين، رضي الله عنه وأرضاهم[1].

* * *

ويزور الإسكندرية سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، ويشاهد منارتها المشهورة، ويصعد إلى أعلاها[2]. ويزور كذلك عمود السَّواري[3]. ثم يعاود زيارتها سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، ويلتقي علماءها وزهادها، أمثال الشيخ محمد القَبَّاري[4]، وهو من مشاهير زُهَّادها، وقد بلغ من ورعه أنه إذا رأى ثمرة ساقطة تحت أشجاره في بُسْتانه، ولم يشاهد سقوطها من شَجَرِه، يتورَّع من أكلها، خوفًا من أن تكون من شجر غيره، قد حملها طائرٌ، فسقطت في بُسْتانه[5].

وكانتِ الإسكندرية وقتذاك معمورةً بالعلماء، مغمورة بالأولياء. وقد بلغ من أُنْسِه بها أن استعار في وصفها بيتين للشَّاعر القَيْسراني قالهما في دمشق:

أرضٌ تحُلُّ الأماني من أماكنها ... بحيثُ تجتمعُ الدُّنيا وتفترقُ

---

(١) ينظر: «مرآة الزمان» (٨/ ١٨٠ ـ ١٨١)، و(ص ٢٦٠) من هذا الكتاب.
ولا تعني محبتهما لهم بغض غيرهم، ولعل قصيدة الشاعر يحيى بن سلامة الحصكفي، المتوفى سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، التي قالها في آل البيت، وأوردها سبط ابن الجوزي (في الجزء ٢٠/ ٤٩٠ ـ ٤٩٣ من «المرآة»)، وفي «تذكرة الخواص» (٣٦٥ ـ ٣٦٧)، ومن قبله جده أبو الفرج في «المنتظم» (١٠/ ١٨٤ ـ ١٨٧)، تبين اعتقاده في ذلك مع تعظيمه في الوقت عينه للخلفاء الراشدين وأئمة المذاهب الفقهية المتبوعة.
ولعل رأي سبط ابن الجوزي فيما جرى بين الصحابة على رأي جدِّه أبي الفرج، فقد ذكر عنه قوله: ما وقع الخلاف بين أحد من الصحابة وبين علي عليه السلام إلا والحق مع علي.. فإن جرت من غيره هفوة فهو مسكوت عنها، لقوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي». ينظر: «مرآة الزمان» (٢١/ ٢٥٨، ٢٢/ ١٠٧، ١٠٩)، و«مسند الإمام أحمد ابن حنبل» (١١٠٧٩)، وتنظر: (ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦) من هذا الكتاب.
(٢) مرآة الزمان (١/ ٧٦).
(٣) مرآة الزمان (١/ ١٣٨).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٨).
(٥) المذيل على الروضتين (٢/ ١٩٨).

إذا شدا الطَّيْرُ في أغصانها وقفتْ   على حدائقِها الأسماعُ والحَدَقُ

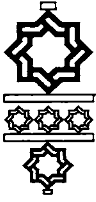
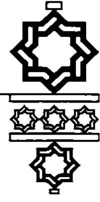
ويسأله أهلها الجلوس للوعظ، فيجلس بها مجلسين[1]، في الجامع الجيوشي، ويحضر القضاة والعلماء، ويجتمع له من الخلق ما لم يجتمع لغيره[2]، ويتوب فيهما نحو من ألفين. فلما عزم على العود إلى القاهرة، قام بعض أفاضلها، فأنشده قصيدة، من أبياتها:

ذكرتُمْ فِراقًا فاستهلَّتْ مدامعي   وزادَ لهيبُ النَّار بين ضلوعي
وأصبحتُ ميْتًا من سماعِ فراقكُمْ   أودُّ بأنِّي لم أكن بسميعِ
فيا أهلَ هذا الثَّغْر ترضَوْنَ غيبةً   لشمس علومٍ آنستْ بطُلوعِ
قفي شَمْسَنا قبل الفِراقِ هُنَيَّةً   فلسنا على علمٍ بوقتِ رجوعِ
فقد وقفتْ شمسُ السَّماءِ ليوشع   وما ذاك من أفعالها بشنيعِ
فنحنُ ضيوفٌ والقَراءُ ثلاثةٌ   وَجُودُك يا مولى الأنامِ شفيعي

فكان البيت الأخير هو الباعث له على عقد مجلس ثالثٍ لهم، ولم يستطع مغادرة الإسكندرية إلا ليلًا، لتعلُّق أهلها ووَجْدهم به ولا كوَجْد المجنون بليلى، على حدِّ تعبيره[3].



(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٨).
(٢) تاريخ علماء بغداد (١٩٠ ـ ١٩١).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٨).

استعانة الصَّالح أيوب بالخوارزمية وإعادتهم فتح بيت المقدس

ـ ١ ـ

وكان لا بُدَّ للحرب أن تقع بين الصَّالح إسماعيل والصَّالح أيوب، فاستعدَّ كلٌّ منهما لها على طريقته. فداوم الصَّالح أيوب على مكاتبة الخوارزمية، يحثُّهم على القدوم إليه لنصرته على عمِّه(١). والصَّالح إسماعيل وحلفاؤه سَعَوْا إلى الصَّليبيين لمعاضدتهم، وقد علموا أن الخوارزمية سيطرقون بلادَهم عمَّا قريب ليجتمعوا مع عسكر مِصْر، ولا طاقة لهم بحربهم جميعًا(٢).

ولم يكنِ الصَّليبيون في ذلك الوقت في أحسن حالاتهم(٣)، ومع ذلك استطاعوا انتزاع موافقة الصَّالح إسماعيل وحلفائه(٤) على تسليم بيت المقدس إليهم مع الحرم وما فيه من المزارات، وتسليمهم كذلك طبرية وعَسْقلان وكوكب، وأن يأذنوا لهم في عِمارتها. وضمنوا لهم ـ على ما اشتُهر ـ أنهم إذا ملكوا الدِّيار المِصْرية سيكون لهم بها نصيب.

ودخل الصَّليبيون بيت المقدس للمرَّة الثالثة، وتسلَّمُوا الصخرة المقدَّسة والأقصى، وما في الحرم الشَّريف من المزارات(٥)، وعكفوا على

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٦).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٢).
(٣) ينظر: «تاريخ الحروب الصليبية» (٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٦، ٣٨٨).
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٨٩).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٢).

إعادة تحصينها. وأرسلوا إلى أورُبة رسالة مثيرة يقصُّون فيها ما حقَّقوه من مكاسب كبيرة[١]. وعمروا قلعتَيْ طبرية وعسقلان، وحصَّنوهما، وعزموا على عِمارة كوكب[٢].

واتفق في تلك الأيام الأخيرة من سنة **٦٤١هـ/ ١٢٤٤م** أن دخل المؤرِّخ ابن واصل إلى بيت المقدس، وهو في طريقه إلى مصر، فساءه وأحزنه ـ كما ساء المسلمين جميعهم وأحزنهم ـ ما رآه من هَتْك الصَّليبيين لحُرْمة المسجد الأقصى والصَّخرة المقدَّسة، فكتب من بعدُ بألم، معبِّرًا عن استيائه الحزين: «رأيتُ الرُّهبان والقسوس على الصَّخْرة المقدَّسة، وعليها قناني الخمر برسم القُرْبان، ودخلتُ الجامع الأقصى، وفيه جرسٌ معلَّق، وأُبطل بالحرم الشَّريف الأذان والإقامة، وأُعلن فيه بالكُفْر»[٣].

واستعدادًا لهذه الحرب بعث الصَّالح إسماعيل عسكرًا إلى غزَّة، فنزلوا بها، وراح يجهز عساكر دمشق ليسيِّرها مع المنصور إبراهيم؛ صاحب حمص، ليلقى بها مع الصَّليبيين عساكر مصر[٤]. وبرز الصَّالح أيوب من القاهرة، ونزل ببركة الجبِّ[٥]، منتظرًا وصول الخوارزمية لمناصرته.

* * *

وكان الخوارزمية قد ساروا من الشَّرق في المحرم سنة **٦٤٢هـ**/ حزيران **١٢٤٤م**، فقطعوا الفرات، ومقدَّمهم حسام الدِّين بركة خان، وهم زيادةٌ على عشرة آلاف فارس، وانضمَّ إليهم جماعةٌ من الأمراء القَيْمُرية الأكراد[٦] مع كثيرٍ من أصحابهم وأتباعهم، منهم الأمير ناصر الدِّين القَيْمُري. فأجفل النَّاس بين أيديهم، وما مرُّوا بموضعٍ إلا نهبوه وعاثوا فيه[٧].

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٢).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٣).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٣، ٣٣٦).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٥).
(٦) نسبة إلى قيمر: قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط. ينظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٢٤).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٦).

ودبَّ الرُّعب بعسكر الصَّالح إسماعيل النَّازلين بغزَّة، ففارقوها راجعين إلى دمشق، واعتصم النَّاصر داود بالكَرَك[1].

ولما قارب الخوارزمية دمشق انقسموا إلى قسمين، قسم جاؤوا على بقاع بَعْلَبك، وقسم على غوطة دمشق، ونهبوا وسَبَوْا وقتلوا[2]. وتحصَّن الصَّالح إسماعيل بدمشق[3]، وسدَّ أبوابها[4]. ولحصانتها ومنَعَتها خلَّفوها وراءهم، ومَضَوْا في سيرهم إلى الجليل، بعد أن تجاوزوا مدينة طبرية التي استولوا عليها، ثم اتَّجهوا جنوبًا، فاجتازوا نابُلُس في طريقهم نحو بيت المقدس[5].

* * *

وأدرك الصَّليبيون فجأة ما يُحيق بهم من خطر، فأسرع البَطْرِيَرك إلى بيت المقدس، ومعه مقدِّما الدَّاوية والاسبتارية، وكانت استحكاماته قد فرِغ من عمارتها قبيل وقت قصير، فعززوا حاميتها، ولم يجرؤوا على البقاء فيه، فغادروه على الفور.

وهجم الخوارزمية على بيت المقدس في **٣** صفر سنة **٦٤٢**هـ/ **١١** تموز **١٢٤٤**م[6]، وبذلوا السَّيف فيمن كان فيه من النَّصارى[7]، واستطاعوا أن يشقُّوا طريقًا لهم إلى دير الأرمن المعروف بدير القديس يعقوب، فأجهزوا على الرُّهبان والرَّاهبات فيه. وحاول حاكم المدينة الصليبي أن يقوم بهجوم من القلعة، فلقي مصرعه، وقُتل معه مقدَّم الاسبتارية. وقاومتِ الحامية ما استطاعت المقاومة، ولما يئست من قدوم نجدة إليها طلبتِ الأمان، فأُمِّنت.

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٧).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٨).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٦).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٨).
(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٢).
(٦) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٢).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٧).

وفي ١٧ ربيع الأول سنة ٦٤٢هـ/ ٢٣ آب ١٢٤٤م غادر بيت المقدس نحو ستة آلاف من المسيحيين من الرِّجال والنِّساء والأطفال. وبينما هم يسيرون على الطريق إلى يافا، التفت بعضُهم، فرأى أعلام الصَّليبيين ترفرفُ على بُرْج من أبراجها، فاعتقدوا أن نجدةً وصلت إليه، فأصرَّ عددٌ كبير منهم على العودة، وما إن قربوا منه حتى وقعوا في كمينٍ تحت أسواره، فهلك منهم نحو ألفين، وتعرَّض من بقي منهم لهجمات البدو، وهم في طريقهم إلى البحر، فلم يصل منهم إلى يافا سوى ثلاث مئة رجل[١].

ولم يُبدِ الخوارزمية أية رأفة مع النَّصارى ـ كما هو ديدنهم دائمًا مع خصومهم ـ فاقتحموا كنيسة القيامة، وأشعلوا النِّيران فيها، وهدموا مبانيها، ونبشوا قبور ملوك الصَّليبيين، وأخرجوا عظامهم وأحرقوها، وأفنوا الرِّجال، وسَبَوْا النِّساء والأطفال، ونهبوا الدُّور والدَّكاكين، وأحرقوا الكنائس، ولم يغادروها إلى غزة حتى تركوها قاعًا صَفْصفًا، وقَفْرًا مُوحشًا[٢].

ـ ٢ ـ

ما إن وصل الخوارزمية إلى غزة حتى أرسلوا إلى الصَّالح أيوب يخبرونه بقدومهم[٣] لنصرته، ويطلبون منه تسيير العساكر إليهم ليحاربوا عمَّه

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٢).

(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٧)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٦)، وتاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٣).

وبذلك خرج بيت المقدس من أيدي الصليبيين، ولم يدخل أبوابه جيش مسيحي إلا بعد سبعة قرون هجرية، حين احتله الجنرال الإنكليزي اللنبي في ٢٤ صفر ١٣٣٦هـ/ ٩ كانون الأول ١٩١٧م، وقد كتب إلى لويد جورج، رئيس الوزارة البريطانية وقتئذٍ: «إن الحرب الصليبية تنتهي اليوم باسترداد الجنود الإنكليز للمدينة المقدسة. فكافأه الوزير عليها برتبة الماريشالية ولقب اللوردية جزاء هذا الظفر العظيم». ولكن هل انتهت حقًّا! ينظر: «مرآة الشام» (٤١٧ ـ ٤١٨).

(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٦).

الصَّالح إسماعيل والمنصور إبراهيم، ويأخذوا بلادهما له. فخلع الصَّالح أيوب على رُسُلهم[١]، وسيَّر لمقدَّميهم الخِلَع والخيل والأموال، وبعث في الرِّسالة إليهم جمال الدِّين بن مطروح، وأمرهم بالإقامة بغزة[٢]. واشتغل بإنفاذ العساكر إليهم، وقدَّم عليهم الأمير ركن الدين بيبرس الصَّالحي، وهو من أجلِّ مماليكه، وأخصِّهم به[٣]، فسار إلى غزة، وانضمَّ إلى الخوارزمية[٤]. ثم تقدَّم الصالح أيوب إلى الأمير حسام الدِّين بن أبي علي الهَذَباني أن يمضي بطائفة أخرى من العساكر[٥]، ليقيم على نابلس[٦].

وكان الصَّليبيون ـ في أثناء نهب الخوارزمية لبيت المقدس ـ قد حشدوا خارج عكا أضخم جيشٍ لهم منذ معركة حطين[٧]، وكان الصَّالح إسماعيل قد أتمَّ تجهيز عسكر دمشق، وقدَّم عليهم المنصور إبراهيم؛ صاحب حمص، لشهامته وجرأته، وخبرته بمحاربة الخوارزمية في الشرق، وانتصاره عليهم مرتين، فرجا الصَّالح إسماعيل أن يكون على يده هذه المرة أيضًا كسر الخوارزمية ومن معهم من العساكر المِصْرية[٨].

واتفق في أثناء ذلك أن مات غمًّا المغيث فتح الدين عمر بن الصَّالح أيوب في **٢٢** ربيع الآخر سنة **٦٤٢**هـ/ **٢٧** أيلول **١٢٤٤**م[٩] بقلعة دمشق، وهو معتقلٌ ببرج من أبراجها، فاشتدَّ جزع الصالح أيوب عليه، واشتد حنقه على عمه الصالح إسماعيل، واتهمه بقتله، وجدَّ في حربه[١٠].

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٧).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٦).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٧)، وتنظر: (ص ١٧٣) من هذا الكتاب.
(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٦).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٧).
(٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٦).
(٧) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٨).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٦).
(١٠) مفرج الكروب (٥/ ٣٤٦).

وحمل إلى تربة جده الكامل محمد بن العادل، فدفن بها. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٨٦)، والحاشية رقم ٧ (ص ١٥٨) من هذا الكتاب.

ورحل المنصور إبراهيم بعسكره وعسكر دمشق إلى عكا، وانضمَّ إلى الصَّليبيين[1]، وساروا جميعًا نحو غزَّة[2] في **٢٩** ربيع الآخر سنة **٦٤٢هـ/ ٤** تشرين الأول **١٢٤٤م**، سالكين طريق السَّاحل[3]، ترفرف فوق رؤوس عساكر المسلمين أعلامُ الصَّليبيين وصُلْبانهم، والقساوسة يصلِّبون عليهم، وبأيديهم كاسات الخمر يسقونهم[4]. ولم تكُ عواطفُ عامَّة المسلمين مع ذلك الجيش، فنبزوهم بالمنافقين[5]. وقد بعث المنصور إبراهيم للناصر داود ليحضر معهم، فاعتذر عن الحضور، وبعث عسكرًا[6] انضم إليهم في الطريق مع الظَّهير بن سُنْقُر الحلبي[7].

وقرب غزة، في سهل رملي إلى الشَّمال الشَّرقي منها تقارَبَ الجيشان، وكان رأي المنصور إبراهيم أن يلزموا مكانهم، ويحصِّنوا معسكرهم إزاء أي هجوم من قبل الخوارزمية؛ لأنَّ الخوارزمية ـ كما خَبِرَهم في حروبهم ـ يكرهون مهاجمة كلَّ موضعٍ منيع، ولا يتحمَّلون الانتظار، وليس بوسع المصريين الاستغناء عنهم في الهجوم، ولعلهم إذا طال انتظارهم يدبُّ القلق فيهم، فيؤثرون الانسحاب إلى مصر. ووافقه على رأيه عددٌ كبير من قادة الصَّليبيين، بيد أنَّ واحدًا منهم ألحَّ أشدَّ الإلحاح على المبادرة بالهجوم؛ لأن عددهم يفوق عدد الجيش المصري، ورآها فرصة مناسبة للقضاء على تهديد الخوارزمية، ولإذلال الصالح أيوب. وقد غلب رأيه كلَّ الآراء، فتحرَّكوا للهجوم.

والتحم الجيشان في **١٣** جُمادى الأولى سنة **٦٤٢هـ/ ١٧** تشرين الأول **١٢٤٤م**[8]، وكان الصَّليبيون في الميمنة، وعسكر النَّاصر داود في الميسرة،

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٨).

(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٧).

(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٣).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).

(٥) المذيل على الروضتين (٢/ ٦٥).

(٦) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٨).

(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣١٧).

(٨) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٦٥).

والمنصور إبراهيم في القلب[١]، وبينما كانت العساكر المصرية تردُّ هجوم الصَّليبيين حَمَلَ الخوارزمية على القلب، فصمد المنصور إبراهيم وعساكره من حمص في القتال، وحافظوا على مواقعهم، ولكن عساكر دمشق لم تتحمَّلِ الصَّدمة، فاستدارتْ وولَّتِ الأدبار، وحذا حذوهم عساكر النَّاصر داود[٢]، وأُسر الظهير بن سُنْقُر الحلبي، وجُرح في عينه[٣]. وبينما كان المنصور إبراهيم يشقُّ طريقه للخروج من المعركة، انقضَّ الخوارزمية على الصَّليبيين[٤]، وأحاطوا بهم، وما هي إلا ساعة حتى حصدتهم سيوفهم حَصْدًا[٥]، فتحطَّم جيشهم، ولقي قادتهم الكبار مصرعهم[٦]، وأُسرَ منهم ثمان مئة أسير[٧]، ولم يُفلت منهم إلا الشَّاذ النَّادر[٨]، إذ لاذوا بالفِرار إلى عسقلان، ثم أبحروا إلى يافا[٩]. وأُسر من عسكر دمشق وعسكر الناصر داود جماعة مقدَّمون، ونُهبت جميعُ أثقال الدِّمشقيين[١٠]. ولم تفق خسائر الصليبيين في هذه المعركة سوى خسائرهم في معركة حِطِّين[١١].

ومضى المنصور إبراهيم ومن نجا من عسكره وعسكر دمشق في أسوأ حال، ودخل دمشق وهو لا يصدق بالنَّجاة. وكان المنصور فيما بعد يقول: والله لقد حضرتُ الحرب ذلك اليوم، وأوقع الله في قلبي أنا لا ننتصر، لانتصارنا بالكُفَّار على المُسْلمين[١٢].

* * *

وكان سبط ابن الجوزي وقتئذٍ مقيمًا بالقُدْس[١٣] منذ عودته من

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٢).
(٢) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٥).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٢).
(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٥).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٢).
(٦) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٥).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٢).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩).
(٩) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦).
(١٠) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٩).
(١١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٧).
(١٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٩).
(١٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٢).

مصر[1]، فيسير في اليوم التالي لهذه الوقعة العظيمة بين الخوارزمية والصَّليبيين[2] إلى غزَّة ليشهد موقعها، منتشيًا بهزيمة الصَّليبيين هذه الهزيمة المُنْكرة، إذ لم يجر مثلها في زمن نور الدِّين وصلاح الدِّين، على حدِّ تعبيره. وحين وصل إليها وجد الناس يعدُّون القتلى بالقصب، وقالوا: هم زيادةٌ على ثلاثين ألفًا. وبعثت الخوارزمية بالأسارى ورؤوس القتلى إلى مصر، ومعهم الظَّهير بن سُنْقُر وجماعة من المُسْلمين[3].

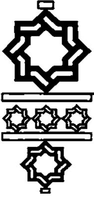
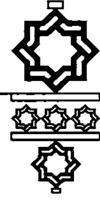
ولعلَّ سبط ابن الجوزي عاد مع العائدين إلى القاهرة عقيب هذا الانتصار[4]، فعُلِّقت رؤوس القتلى على أبوابها، وامتلأت حُبُوسها من الأسرى. وقد أصبح الطريق إلى دمشق ممهَّدًا أمام عساكر الصَّالح أيوب، فراح يجهِّز الأمير معين الدِّين بن شيخ الشُّيوخ لحِصارها[5].

أما الصَّليبيون فقد أرسلوا في **٢٥** جمادى الآخرة سنة **٦٤٢هـ/ ٢٧** تشرين الثاني **١٢٤٤**م ـ أي: بعد نحو شهرٍ من هزيمتهم الكبيرة بغزَّة ـ أُسْقُفَّ بيروت إلى أمراء الغرب، للدَّعوة إلى حملة صليبية جديدة إلى الشَّرق، كيلا تتعرَّض مملكتهم بأسرها للفناء. وكان الملك لويس التاسع؛ ملك فرنسة قد أعلن في ذلك الوقت عن رغبته الشديدة في القيام بحملة صليبية، وأشاعت رغبته تلك في الغرب الارتياح والسُّرور. ولذلك لما سمع البابا أنوسنت الرَّابع ما قاله أُسقف بيروت عن حال الصَّليبيين القاتم في الشرق، أقرَّ عن طيب خاطر ما بذله الملك لويس من وعود للقيام بحملة صليبية، وبدأ على الفور في الدَّعوة لها[6].



---

(١) ينظر: (ص ١٨٦) من هذا الكتاب.
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨١).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٢).
(٤) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٧٦).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٢).
(٦) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٤٠ ـ ٤٤١).

عودة دمشق للصَّالح أيوب وأوبة سبط ابن الجوزي إليها

- ١ -

وفي القاهرة، يعاود سبط ابن الجوزي لقاءاته بالشَّيخ أبي العبَّاس ابن تاميت سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، وتجري بينهما مذاكرة في القرافة في تاركِ الصَّلاة، وما حُكْمه. وينشده أبو العبَّاس أبياتًا لأبي الفَضْل طاهر النَّحْوي في حُكْم تاركها[١]. بيد أننا لم نعد نراه يذكر لنا شيئًا عن لقاءاته مع الصَّالح أيوب، كما كان عهده في أول قدومه مصر[٢].

ولعلَّ طبيعة الصَّالح أيوب، وما فُطِرَ عليه من محبَّته للعُزْلة والانفراد، وعدم ميله إلى مطالعة الكُتُب والعلوم، وقِلَّة مخالطته للعُلماء وغيرهم[٣]، وبطشه وتجبُّره[٤]، لم تُسْعف سبط ابن الجوزي في توثيق عُرى صداقته له، كما كان شأنه مع عمَّيه المعظَّم عيسى، والأشرف موسى.

ثم إن الصَّالح أيوب كان منشغلًا في تلك الأيام بالانتقام من عمِّه الصَّالح إسماعيل لِمَا كان من غَدْره وخيانته، واسترداد دمشق منه، وها هو الآن قد أتمَّ تجهيز جيشه، وتقدَّم إلى وزيره معين الدِّين بن شيخ الشُّيوخ بالمسير إليها، مُطْلقًا يده فيما يراه دون الرُّجوع إليه.

فيخرج معين الدِّين بعساكر مِصْر من القاهرة، ويصل إلى غزَّة، وينضم إليه هناك الخوارزمية، ومن فيها من العساكر المصرية. ثم يرحل إلى

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/٧٦).

(٢) تنظر: (ص ١٨١، ١٨٦) من هذا الكتاب.

(٣) مفرج الكروب (٦/ ٨٤).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٩).

بَيْسان، فينزلها، ويقيمُ بها مُدَّة يرتِّب فيها أموره. ثم يشرع بالزَّحف نحو دمشق[1].

ولم يكن الصَّالح إسماعيل في تلك الأيام في أحسن حالاته، فقد شَلَّ تفكيره الرُّعْب السَّاكن بقلبه عقب هزيمته بغزَّة مع حلفائه الصَّليبيين، فراح يتهيأ للحصار في دمشق على عجل، فخرب كثيرًا من الأبنية حول سورها، وهدم جسر باب توما، وسدَّ النهر هناك، فطفا الماء حتى أغرق المساكن التي على حافَةِ بردى بين جِسْرَي بابي توما والسَّلامة[2]. وسيَّر وزيره أمين الدَّولة السَّامري إلى بغداد مستشفعًا بالخليفة المستعصم بالله، متوسِّلًا إليه ليصلح ما بينه وبين ابن أخيه الصَّالح أيوب. فرجع ولم يظفر بطائل. فازداد خوفًا على خوف، لعلمه أن لا طاقة له مع حليفه المنصور إبراهيم؛ صاحب حمص بعساكر مصر لكثرتها، وقلة عسكرهما، مع فناء ما بقلعة دمشق من الذَّخائر.

وينازل الصَّاحب معين الدِّين دمشق، ويضايقها[3]، ويقطع الخوارزمية على النَّاس الطرق، زاحفين عليها من كلِّ ناحية[4]. وتُنصب عليها المجانيق، ويُرْمى بها من بابَيْ الجابية والصَّغير، وتُنصب المجانيق من داخل البلد أيضًا، ويترامى الفريقان.

وفي يوم الإثنين ٨ المحرم سنة ٦٤٣هـ/ ٥ حزيران ١٢٤٥م يبعث الصَّالح إسماعيل إلى معين الدِّين، استهزاءً به، بسَجَّادة وإبريق وعُكَّاز، قائلًا له: اشتغالك بهذا أَوْلى من اشتغالك بقتال الملوك. فيبعث إليه معين الدِّين بجَنْك[5] ومِزْمار وغِلالة حريري أحمر وأصفر، وقال: السَّجَّادة تصلح لي، وأنتَ أَوْلى بهذا[6].

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٤١).
(٢) المذيل على الروضتين (٢/ ٦٥).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٤٨).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٧).
(٥) الجنك: آلة وترية يُضرب بها كالعود. ينظر: «شفاء الغليل» (١٢٤).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨).

وأصبح معين الدِّين، فركب بالعساكر، وزحفوا من كلِّ ناحية، ورموا النِّيران في قصر حجَّاج[١]، والشَّاغور، واستولى الحريقُ على مساجدَ وخاناتٍ ودُورٍ عظيمة[٢]. وبعث الصالح إسماعيل الزَّرَّاقين يوم الثلاثاء ٩ المحرم، فأحرقوا قصر العادل[٣]، وأمر بتخريب عمارة العُقيبة خارج باب الفراديس، وباب السَّلامة وباب الفَرَج، وأحرق حكر السُّمَّاق خارج باب النَّصْر[٤]، ونُهبت أموالُ الناس، ورُموا على الطُّرق، واحترق بعضُهم، وجرى عليهم ما لم يجرِ في بلدٍ آخر[٥]، واشتدَّ الغلاء وعَظُمَ البلاء. ثم أحرقت العُقيبة في أول ربيع الأول[٦].

ويعيد الوزير أمين الدَّولة السَّامري في أوائل جُمادى الأولى محاولة الصُّلح، فيرسل إلى الصَّاحب معين الدِّين يسأله الأمان ليجتمع به. فيبعث إليه بثيابٍ له، فيلبَسُها ويخرج ليلًا، فيتحادثان، ويرجع إلى دمشق. ثم يخرج في ليلةٍ أخرى، فيتمُّ الاتفاق على أن يسلِّم الصَّالح إسماعيل دمشق، وأن يخرج منها هو والمنصور إبراهيم بأموالهما، ولا يتعرَّض لأحدٍ من أصحابهما ولا لشيء ممَّا معهم. وأن يعوَّض الصالح إسماعيل عن دمشق بَعْلبك وبُصْرى وأعمالهما وجميع بلاد السَّواد، وأن يكون للمنصور حِمْص وتدمر والرَّحْبة[٧].

ولم يُعلم معين الدِّين الخوارزمية بهذا الصُّلح[٨]، إذ لم يكن راغبًا بدخولهم دمشق، ودبَّر الأمر أحسن تدبير، فلمنعهم من دخولها أقطعهم السَّاحل بمناشير كتبها لهم[٩].

وشاع خبر هذا الصُّلْح في ٨ جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ/١ تشرين

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٨).
(٢) المذيل على الروضتين (٢/ ٦٦).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٨).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٦٦).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٨).
(٦) المذيل على الروضتين (٢/ ٦٦).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢١).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).
(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢١).

الأول ١٢٤٥م، ورحل ليلتئذٍ عن دمشق الصَّالح إسماعيل بن العادل نحو بَعْلبك، والمنصور إبراهيم نحو حِمْص. ودخل دمشق من الغد في ٩ جمادى الأولى/ ٢ تشرين الأول الصَّاحب معين الدِّين بن شيخ الشيوخ، ونزل في دار سامة، وهي الدَّار المُعظَّمية النَّاصرية[(١)]، نائبًا بها عن الصَّالح أيوب[(٢)]، واستبشر الناس بهذا الفَتْح لخلاصهم من ظلم الصَّالح إسماعيل وأعوانه[(٣)].

- ٢ -

وكان الصَّالح أيوب يتحرَّق للانتقام من عمه الصَّالح إسماعيل، فأرسل إلى معين الدين ألا يؤمِّنه، ويقبض عليه، ويرسله إليه. فوصل كتابه بعد إتمام الصُّلح. فأنكر الصَّالح أيوب[(٤)] على الأمراء كيف مكَّنوا الصَّالح إسماعيل من الوصول إلى بَعْلبك، وقال: إنَّ معين الدِّين حلف له، وأما أنتم فما حلفتم[(٥)]. وكان لا يرى إلا إعدامه حَنَقًا عليه، بسبب اتِّهامه بقَتْل ولده المغيث عمر، ولما بدا منه في حقِّه[(٦)]. ثم أمر أن يُسيَّر الوزير أمين الدَّولة السَّامري تحت الحوطة إلى مصر، فسُيِّر واعتقل بقلعة الجبل[(٧)].

ويغادر سبط ابنُ الجوزي مِصْرَ عائدًا إلى دمشق بعد رحيل الصَّالح إسماعيل عنها، والقبض على وزيره أمين الدَّولة السَّامري، ويأوي إلى مسكنه بالتُّربة البدرية بقاسيون[(٨)]، مظهرًا شماتته بما حلَّ بوزيرها[(٩)]، متهمًا إياه بأنَّه لم يكن مُسْلمًا، ولا سامريًّا، بل كان يتستَّرُ بالإسلام، ويبالغُ في هدم شريعة المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام[(١٠)].

---

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ٧١).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٤٩).
(٣) المذيل على الروضتين (٢/ ٧١).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٣٤٩).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢١).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٣٤٩).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢١).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٢).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٩).

ويعتري معين الدِّين المرض، ولمَّا يمضِ على دخوله دمشق سوى أربعة أشهر[١]، فيكتبُ الصَّالح أيوب إلى الأمير حسام الدِّين بن أبي علي الهَذَباني، وهو بنابُلُس، أن يسير إلى دمشق ويتسلَّمها[٢]. وبعد وصوله إليها بأيام[٣] توافي المنية معين الدِّين ليلة الأحد **٢٢** رمضان سنة **٦٤٣هـ/ ١٠** شباط **١٢٤٦**م[٤] عن نحو ستٍّ وخمسين سنة، فكان بين بلوغ أمنيَّته وحلول منيَّته أربعة أشهر وخمسة عشر يومًا، على حدِّ تعبير سبط ابن الجوزي[٥].

وبوفاة معين الدِّين لم يبق من أولاد شيخ الشيوخ صدر الدِّين[٦] إلا ابنه فخر الدِّين يوسُف، فيفرجُ عنه الصَّالح أيوب ـ وكان قد ألزمه بيته ـ ويخلع عليه ويؤمِّره، ويقدِّمه، ويُحسن إليه إحسانًا كثيرًا[٧].

* * *

وأصيبَ الخوارزمية بخيبة أمل، وقد مُنعوا من دخول دمشق، كما مُنعوا من قبل من دخول مصر. وكانوا يظنُّون أنهم بمساعدتهم الصَّالح أيوب على أعدائه سيقاسمهم البلاد، ويمكِّنهم من الاستيلاء على أكثرها،

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩١).

(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٤٩).

(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٧٦).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩١).
ودفن بجبل قاسيون إلى جانب أخيه عماد الدين بن شيخ الشيوخ. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٩١)، و«المذيل على الروضتين» (٢/ ٧٧)، و(ص ١٦١) من هذا الكتاب.

(٦) ينظر: (ص ١٠١) من هذا الكتاب.

(٧) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٢)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٢).
ومن أوهام سبط ابن الجوزي ومبالغاته قوله في الإفراج عن فخر الدين: «وفيها أخرج الصالحُ أيوب فخر الدِّين بنَ الشيخ من الحبس بعد أن أقام مدة ثلاث سنين، ولاقى شدائد من الضيق والضر والقمل، ولقد بلغني أن القمل ما كان يمكنه من النوم». ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٩٠). والصواب ما ذكره ابن واصل، وتابعه عليه المقريزي من أنه لم يكن في السجن في تلك السنين، بل كان مأمورًا بلزوم منزله فحسب.

وسيُقطعهم إقطاعاتٍ عظيمة في الدِّيار المِصْرية[١]. أما وقد صاروا الآن في السَّاحل، ولم يحصلوا على ما أمَّلوه، فقد تغيَّرتْ نيَّاتُهم، واتفقوا على الخروج عن طاعة الصَّالح أيوب. فغادروا السَّاحل عائدين نحو دمشق[٢]، فنهبوا داريا، وأتلفوا ثمارها[٣].

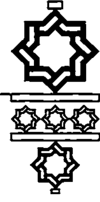
ثم راحوا يبحثون عن حلفاء لهم، فكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس الصَّالحي بغزَّة، وهو من أكبر أمراء الصَّالح أيوب[٤]، فحسَّنوا له أن يكون معهم يدًا واحدة، ويزوِّجوه امرأة منهم[٥]. فألقى إليهم سَمْعه، ولعله مال إليهم بعض الميل[٦]، فلم يمهله الصَّالح أيوب، فما إن بلغه خروج الخوارزمية عن طاعته، وميلُ ركن الدِّين إليهم ـ على ما نُقل إليه ـ حتى استدعاه إلى القاهرة، واعتقله بقلعة الجبل سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، فكان آخرَ العهد به[٧].

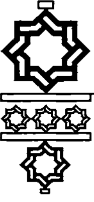
وكاتب الخوارزمية النَّاصر داود؛ صاحب الكرك، وهو العدو القديم للصَّالح أيوب، فمال إليهم، واتفق معهم، ونزل إليهم، واجتمع بهم، وتزوج امرأةً منهم، بيد أنه رجع إلى الكرك، ولم يقم معهم[٨]. وللاستفادة من هذا الحِلْف الجديد سارع إلى استرجاع ما كان له من البلاد، وهي الآن بيد الأمير حسام الدِّين بن أبي علي[٩]، فبعث ولاته إلى نابلس والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار[١٠].

وخوفًا من أن يبقى الصالح إسماعيل وحيدًا في بَعْلبك بين عدوَّين: الصالح أيوب والخوارزمية، كاتَبَ الخوارزمية باذلًا لهم صداقته، وقدم إليهم، فحلفوا له على القيام بنُصْرته[١١].

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٢).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٠).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٢).
(٦) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٠).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٣٥١)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٣).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٠).
(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٢)، وينظر: (ص ١٩٦) من هذا الكتاب.
(١٠) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٠).
(١١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٢).





حصار الخوارزمية دمشق وهزيمتهم وسفر سبط ابن الجوزي إلى بغداد

- ١ -

وعادت الخوارزمية إلى دمشق[(١)]، ونازلوها[(٢)] في شوال سنة **٦٤٣**هـ/ شباط **١٢٤٦**م[(٣)]، ولم يكن فيها عساكرُ كثيرة، فقام أميرها حسام الدِّين بن أبي علي الهَذَباني على حفظها أحسن قيام، وضَبَط أبوابها وأسوارها بالرَّجَّالة والمقاتلة، وباشر ذلك بنفسه ليلًا ونهارًا[(٤)].

وضايقها الخوارزمية بالحصار، وقطعوا عنها الموادَّ، فاشتدَّ بها الغلاء اشتدادًا لم تعهده من قبل[(٥)]. وقدم الصَّالح إسماعيل من بَعْلبك في **٣** ذي القعدة/ **٢٢** آذار، مؤازرًا لهم في حصارها[(٦)]، وألحَّ على قتالها[(٧)]، فتفاقم بها الغلاء[(٨)]، وعدمت فيها الأقوات[(٩)]، حتى قيل: إن سجينًا مات في الحبس، فأكل لحمَه أهلُ الحبس[(١٠)]، وأكل النَّاس القطط والكلاب[(١١)]، وهلك كثيرٌ من أهلها بالجوع والوباء[(١٢)].

ولم يجدِ الصَّالح أيوب بُدًّا للانتصار على الخوارزمية من فَصْم عُرى التَّحالف بين الصَّالح إسماعيل والمنصور إبراهيم؛ صاحب حمص، فراح

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٢).
(٣) المذيل على الروضتين (٢/ ٧٧).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٢).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٢ - ٣٥٣).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٢).
(٨) المذيل على الروضتين (٢/ ٧٨).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).
(١٠) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٣).
(١١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).
(١٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٣).

يكاتبُ المنصور إبراهيم، ويستميله إليه ويمنِّيه[١]، وما زال به حتى مال إليه[٢]، ثم كتب إلى الحلبيين يقول: هؤلاء الخوارزمية قد أخربوا البلاد، والمصلحة أن نتفق عليهم. فأجابوه[٣].

وهكذا اتَّفق الحلبيون والمنصور إبراهيم والصَّالح أيوب على محاربة الخوارزمية، وطَرْدِهم من البلاد[٤]. وخرج الأمير شمس الدِّين لؤلؤ؛ مدبِّرُ دولة النَّاصر يوسف بن عبد العزيز بالعساكر من حلب، واجتمعوا مع عساكر حمص[٥]، وتقدَّم عليها المنصور إبراهيم، واستعدَّ للقاء الخوارزمية[٦]. ولما بلغهم أنَّ المنصور إبراهيم يريد قصدهم، قال مقدَّمهم حسام الدِّين بركة خان: دمشق ما تفوتُنا، والمصلحة أن نسير إليهم[٧]. فرحل الخوارزمية عن دمشق[٨]،ومعهم الصَّالح إسماعيل[٩]، قُبيل عيد الأضحى[١٠]، بعد حصارٍ استمرَّ نحو ثلاثة أشهر[١١]، إلى مرج الصُّفَّر[١٢]، وانضمَّ إليهم هناك الأمير عزُّ الدِّين أيبك المعظَّمي؛ صاحب صَرْخد[١٣]، ولم ينزل إليهم النَّاصر داود من الكَرَك، بل بعث عسكره، ثم ساروا نحو حمص[١٤] يريدون لقاء المنصور إبراهيم. ووجد أهلُ دمشق برحيلهم فرجًا، ووصلت إليهم المِيْرة[١٥]، ورخصتِ الأسعار[١٦].

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).

(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٣).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٥).

(٤) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٥).

(٦) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٤).

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦).

(٨) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٤).

(٩) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٨).

(١٠) المذيل على الروضتين (٢/ ٧٨).

(١١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٢).

(١٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٥).

(١٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٦١).

(١٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦).

(١٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٣).

(١٦) المذيل على الروضتين (٢/ ٧٨).

وفي يوم الجمعة ١ المحرم سنة ٦٤٤هـ/١٩ أيار ١٢٤٦م(١) التقى المنصور إبراهيم في عيون القصب(٢)، قِبْلي(٣) ظاهر حمص(٤) الخوارزمية(٥). وكانوا في كثرة كاثرة بالنسبة لجيش المنصور، فقال له أحدُ غِلْمانه: أيُّما أحبُّ إليك تأخذ بركة خان أسيرًا، أو نحمل رأسه إليك؟ فقال إبراهيم: رأسه.

وتصادم الجيشان، وما هي إلا ساعة(٦) وإذا بمملوكٍ من مماليك أمراء حلب الكبار(٧)، يحملُ رأسًا مليح الصُّورة، ليس في وجهه سوى شعيراتٍ يسيرة، هو رأسُ مقدَّمهم حسام الدِّين بركة خان(٨). وانهزمتِ الخوارزمية هزيمة قبيحة، تبدَّد بها شملهم(٩)، وسُبيت نساؤهم، وغُنمت أموالهم(١٠)، وأُسر كثيرٌ منهم(١١).

وهرب الصَّالح إسماعيل وعزُّ الدِّين أيبك، ومن سَلِمَ من العساكر عُراةً جياعًا، وقد نُهبت أموالهم حتى وصلوا إلى حَوْران، فانعطف عزُّ الدِّين أيبك نحو الكَرَك(١٢)، وأما الصَّالح إسماعيل، فتحيَّر أين يذهب، إذ لم يبق له بالشَّام مكانٌ يأوي إليه(١٣)، فقد خاف إن هو دخل بَعْلبك، أن يُحاصر

---

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ٧٩)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٤).
وشك سبط ابن الجوزي في تحديد يوم المعركة ما بين السابع أو الثامن من المحرم، وما ذكره أبو شامة في «المذيل» وتابعه عليه المقريزي في «السلوك» أصح. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٩٥، ٣٩٦).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٧٠).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٩).
(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٤).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٩).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٩).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٠).
(٩) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٩).
(١٠) المذيل على الروضتين (٢/ ٧٩).
(١١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٤).
(١٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٦).
(١٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٧).

بها، ويُؤخذ باليد، فيقتله الصَّالح أيوب بابنه المغيث عمر. فلم يَرَ بدًّا من أن يمضي إلى حلب، مستجيرًا بصاحبها النَّاصر يوسُف بن عبد العزيز[١].

ومضتْ طائفةٌ ممن نجا من الخوارزمية إلى البَلْقاء، فنزل إليهم الناصر داود من الكَرَك، وصاهرهم، واستخدمهم، وأطلع عائلاتهم إلى الصَّلْت، ثم ساروا فنزلوا نابُلُس[٢].

وحُمل رأس بركة خان إلى حلب، فنُصب بباب قلعتها. ووردتِ البشائرُ بذلك إلى الدِّيار المصرية، فزُيِّنت المدينتان: القاهرة والفُسْطاط، والقلعتان: قلعة الجبل وقلعة الجزيرة. وصَلُحَ ما بين المنصور إبراهيم والصَّالح أيوب، وحصل بينهما التَّصافي والتوادُّ، وكذلك صَلُحَ ما بين الصالح أيوب والحلبيين، واتفقتْ كلمةُ الجميع[٣].

وربما أثَّرَ حصارُ دمشق على صحة سبط ابن الجوزي، فألَمَّ به مرضٌ، ولعله أحبَّ أن يستجمَّ بمدينته بغداد، ويجدِّدَ العهد بمراتع الطفولة والصِّبا، وقد طال غيابه عنها، فغادر دمشق متجهًا إليها عن طريق حلب[٤].

* * *

وأما الصَّالح أيوب فقد رأى الفُرْصة سانحة للقضاء على الخوارزمية، وعلى حليفهم النَّاصر داود، فجهَّز الأميرَ فخر الدِّين يوسُف بن شيخ الشيوخ بالعساكر إلى الشَّام. فلمَّا وصل إلى غزة عاد من كان بنابُلُس من الخوارزمية إلى الصَّلْت، فقصدهم فخرُ الدِّين[٥]، وأوقع بهم، ومعهم النَّاصر داود[٦]، وعزُّ الدِّين أيبك المعظَّمي، وكسرهم وبدَّد شَمْلهم، وذلك في ١٧ ربيع الآخر سنة ٦٤٤هـ/ ١ أيلول ١٢٤٦م[٧]. فهرب الناصر داود إلى الكَرَك،

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٦١).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٦).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٦).
(٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٤).
(٧) هذا ما ذكره سبط ابن الجوزي، وعند المقريزي أن كسرتهم كانت في ٢٧ ربيع الآخر. ينظر: «السلوك» (ج١/ ق٢/ ٣٢٤).

وتبعه الخوارزمية، فلم يمكنهم من صعود القلعة، وسار عز الدين إلى صرخد متحصِّنًا بها.

ويحرق فخر الدِّين الصَّلْت، ثم يرحل عنها[1]. ويستولي على ما كان بيد الناصر داود من البلاد: القُدْس ونابُلُس وبيت جبريل والبلقاء. ثم يسير نحو الكَرَك، فيخرب ما حولها من الضِّياع، ويضعفها إضعافًا شديدًا، ثم ينازل الكرك بعد ذلك، ويحاصرها، وهي منيعة، فيقيم على محاصرتها أيامًا، ثم يسير عنها[2] إلى بُصْرى فينازلها، حتى إذا أشرف على أخذها، يلمُّ به مرض يشفي منه على الموت، فيُبْقي العساكر على حصارها، ويُحمل هو في مِحَفَّة عائدًا إلى القاهرة[3]. ثم يتسلَّم بُصْرى نوابُ الصَّالح أيوب.

ويصل الصَّالح إسماعيل بن العادل إلى حلب في ربيع الآخر/أيلول في طائفة من الخوارزمية، هاربًا من الصَّالح أيوب[4]، وملتجئًا إلى صاحبها النَّاصر يوسف بن العزيز[5]. وكان سبط ابن الجوزي إذ ذاك مقيمًا في حلب، وهو يستعدُّ للسَّفر إلى بغداد، فيرى ما آل إليه حال عدوِّه الصَّالح إسماعيل؛ شريدًا طريدًا، لا مكان يُؤويه.

ويتلقَّاه النَّاصر يوسف وإلى جانبه الأمير شمس الدين لؤلؤ، فيهمس في أذن الناصر، وكأنه يحذره: أبصرْ عواقبَ الظُّلم كيف صارتْ. ويتتبَّعُ الناصر يوسف الخوارزمية، ويملأ منهم السُّجون[6].

- ٣ -

ويحطُّ سبط ابن الجوزي رحاله في بغداد في رمضان سنة ٦٤٤هـ/ كانون الثاني ١٢٤٧م[7]، بعد غياب عنها دام نحو ثلاثين سنة، منذ آخر

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٦).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٦٤).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٥).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٧).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٣٦٠).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٧).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٩).

زيارة له إليها، وهو في طريقه إلى الحج[1]، ومعه ابنه إبراهيم، ومملوكاه بَلَبان[2] بن عبد الله الرُّومي[3] وسالم. ويستقبله خاله محيي الدِّين يوسف، وينزله في داره بدار الخِلافة، ويقوم على خدمته، وتوفير أسباب الرَّاحة له. وتنعقد بينه وبين مؤيد الدِّين محمد ابن العلقمي؛ وزير الخليفة المستعصم بالله صُحْبة ومودَّة، فيلازمه مُدَّة إقامته، ويدعو له أن يديم الله تعالى سَعْده[4].

ولعلَّ الوزير ابن العلقمي اصطحبه ذات يوم إلى الكَرْخ، ووقفا معًا على دار الشَّاعر الشَّريف الرَّضي، وقد خربت. فحكى له الوزيرُ أنَّ رجلًا مَرَّ بالكَرْخ على هذه الدَّار، وأنشد:

ولقد مررتُ على ديارِهُمُ ... وطُلُولُها بيدِ البِلى نَهْبُ
فوقفتُ حتى عَجَّ من عجبٍ ... نِضْوي ولجَّ بعَذْليَ الرَّكْبُ[5]
وتلفَّتَتْ عيني فمُذْ خَفِيَتْ ... عنِّي الطُّلولُ تلفَّتَ القلبُ

وهي أبيات مشهورة، فقال له بعض الجيران: أتدري لمن هذا الشِّعْر؟

---

(1) ينظر: (ص ٨٧) من هذا الكتاب. (2) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٧).
(3) ينظر: «معجم الشيوخ» للذهبي (٢/ ٧٠)، و(ص ٢٩٢) من هذا الكتاب.
(4) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٧)، والفخري في الآداب السلطانية (٣٣٧ ـ ٣٣٩).
وكان الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي يحظى في ذلك الوقت باحترام العلماء، قبل أن يُنسب إليه ما نسب في كائنة سقوط بغداد بيد التاتار سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. ينظر: على سبيل المثال ما وصفه به العلامة الحسن بن محمد الصغاني المتوفى على الصحيح سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، وهو يقدم إليه كتابه النفيس «العباب الزاخر واللباب الفاخر» (ج١/ ٩ ـ ١١). وقد بينتُ رأيي فيما نُسب إليه في كتابي «ما بعد صلاح الدِّين»، أرجو أن ينشر قريبًا إن شاء الله تعالى.
(5) كذا في المطبوع من «مرآة الزمان» من عجب، ورواية الديوان: من لَغَبٍ، وهي الصَّواب؛ أي: من تعبٍ وإعياء. والنِّضْو: البعير المهزول، الذي أهزلَه السَّفر وأذهب لحمه. ووهم محقق هذا الجزء من «المرآة» في شرحه، فقال: النضو: الثوب الخلق!

قال: لا والله. فقال له: هذا للرَّضي، وهذه داره[١].

ويلتقي في بغداد ثقات مشايخها، ويتفاوضون في أخبار الخليفة المستنصر بالله؛ والد الخليفة الحالي المستعصم بالله، ولم يكن مرَّ على وفاته سوى أربع سنوات. وكان المستنصر بالله جَوَادًا سَمْحًا، عادلًا، قريبًا من النَّاس، رحيمَ القلب. وقد بنى في بغداد فيما بنى المدرسة المستنصرية على الجانب الشَّرْقي لدِجْلة، ولم يكن عنده تعصُّب على مذهب معين، فوقفها على المذاهب الأربعة، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة[٢].

وممَّا ذكروه له من أحواله الجليلة:

أنَّه كان يزور الشَّيخ عبد العزيز النَّاسخ بالحريم الطَّاهري، ويغشاه كثيرًا، فقال له يومًا: أنا لا أُثاب على ما أفعله. فقال له عبد العزيز: الله الله يا مولانا، إذا لم تثاب[٣] أنت من يثاب! فقال: لأنَّ المال الذي أُنفقه في أبواب البِرِّ ما له عندي قدر، بل مثل التُّراب، والثَّواب إنَّما يكون على قدر المشقة.

وذكروا له أن الخليفة النَّاصر لدين الله كان قد بنى عنده في الدَّار بركة للمال، فكان يقول: ترى أعيش حتى أملأها ذهبًا؟ فلما ولي المستنصر وقف عليها، وقال: ترى أعيش حتى أفرغها[٤]؟

ومن غرائب ما حكوه له: أنَّ المستنصر بالله ركب يومًا للصَّيْد في رمضان، فاجتاز بين الحربية ودار القَزِّ ـ محلَّتين بالجانب الغربي من بغداد ـ فرأى شيخًا كبيرًا، معه قَدَحٌ فيه طبيخ قد أخذه من محلَّة العتَّابيين، وهو يريد أن يدخل الحربية ـ وكان في كلِّ محلة دارُ مضيف في رمضان ـ فقال له المستنصر: يا شيخ، ممن أنت؟ قال: من الحربية. قال: أما عندكم دار مضيف؟ قال: بلى. قال: فلِمَ تأخذ من الموضعين؟ فبكى الشيخ، وقال:

---

(١) مرآة الزمان (١٨/ ٢٤٩)، والأبيات في «ديوان الشريف الرضي» (١/ ٢٤٩).

(٢) وما زالت برغم الزمن والمِحَن قائمة حتى الآن ببغداد.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٦).

والله ما أخذتُ من المحلَّتين، وإنما أنا رجلٌ كان لله عليَّ نعمة، وكان لي مالٌ كثير، فافتقرت، وذهب المال والولد، وأستحيي من أهل محلَّتي أن آخذ من دار المضيف، فأنا أمضي إلى المحلة التي لا أُعرف فيها، فآخذ الطَّعام في القَدَح، وآتي إلى باب الحربية، فإذا أذن المغرب، ودخل النَّاس في الصَّلاة، دخلتُ بيتي، ولا يراني أحد. فبكى الخليفة، وقال لنفسه: ويحك يا منصور! ما جوابك غدًا إذا سألك الله عن هذا الفقير المحتاج؟ ثم أعطاه ألف دينار، وقال: إذا نَفِدَتْ، فتعال إلى باب البدرية. فأخذ المال، ومن فرحته انشقَّ قلبه، فعاش عشرين يومًا، ومات. وطُولع الخليفة، فقيل له: ما نقص منه إلا دينارٌ واحد. فقال: إن كان له ورثة، فادفعوه إليهم، وإلا فأذنت لكم أن تتصدَّقوا به في الحربية على الفقراء، فهذا مالٌ أخرجناه لله فلا نرجع فيه، ولا يدخل إلينا(١).

ويزور سبطَ ابنَ الجوزي في بغداد فيمن يزوره ابنُ شيخه محمود بن عثمان النَّعَّال الحنبلي(٢)، وكان ولدًا صغيرًا حين كان سبط ابن الجوزي يختلف إلى زاوية أبيه، وقد غدا الآن من الزُّهَّاد، وساح في البلاد، وحصل له فضل من فنون العلم، فسأله سبط ابن الجوزي أن يتصدَّى للوعظ، فأجابه: إنه يعظ في الأحايين(٣).

* * *

ويبلغه، وهو في بغداد، خبر وفاة زوجته زينب بنت قاضي حماة أبي القاسم(٤) الحسين بن حمزة بن الحسين(٥)، وأنها دفنت في تربته

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٧).
(٢) ينظر: (ص ٢١ ـ ٢٢) من هذا الكتاب.
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ١٩٤).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٠).
ووهم سبط ابن الجوزي حين ذكر في موضع آخر من كتابه «المرآة» (٢١/ ٣٩١) أنها توفيت سنة ٦٤٣هـ، وهو في بغداد!
(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٣٩١)، وينظر: (ص ١٢٢) من هذا الكتاب.

بقاسيون[1] عند ولدها علي. ولا ريب أنَّه حزن لفقدها، وإن لم يجرِ بذلك قلمُه، ويستعيد بذاكرته ما كانت تتحلى به من صفاتٍ حميدة ولا سيَّما الكرم، وإن كانت إلى الإسراف أقرب[2].

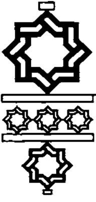
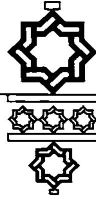
ولم يحدِّثنا سبط ابن الجوزي عمَّا جرى له في رحلته إلى بغداد إلا بهذه الإشارات العابرة، وقد ألغز في بعضها قائلًا: «غير أنَّ ما ربحناه في سورة يوسُف خسرناه في سورة النُّور، وجرى لنا عجائب»[3]. بيد أنه لم يشأ أن يبوح لنا بتلك العجائب. ويكتفي بإخبارنا أنه زار جامع فخر الدَّولة الحسن بن هبة الله، المتوفى سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م[4]، وكان فخر الدولة من صدور بغداد وأغنيائها[5]، وله فيها آثارٌ جميلة منها جامعه هذا، غربي بغداد، ويشرف على دجلة، وقد دفن فيه. فيسوءه أن يرى دجلة قد طغا ماؤه فخرب بعضه باستيلائه عليه، وما يخشاه أن يأتي على الباقي[6].

وبقي سبط ابن الجوزي في بغداد ملازمًا للوزير مؤيد الدِّين ابن العلقمي حتى خروجه منها، عائدًا إلى الشَّام، في صفر سنة ٦٤٥هـ/ حزيران ١٢٤٧م. ويصل إلى حلب، وفيها يُفجع بوفاة ابنه إبراهيم في ربيع الآخر/ آب، فينقله إلى دمشق، ويدفنه في تربته بقاسيون عند أمِّه وأخيه[7].

ورحلته هذه إلى بغداد هي آخر رحلاته، يقيم بعدها في دمشق، ولا يبرحها حتى وفاته.



(١) مرآة الزمان (٢١/ ٣٩٧).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٠).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٧).
(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٢٨٨).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٧ ـ ٩٨).
(٦) مرآة الزمان (٢١/ ٢٨٨).
(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٧).

عودة سبط ابن الجوزي
إلى مجالس وعظه في دمشق
وتوليه نظر أوقاف الأمير عزِّ الدِّين أيبك

- ١ -

في أثناء غياب سبط ابن الجوزي في بغداد، قدم الصالح أيوب إلى دمشق يوم الخميس ١٩ ذي القعدة ٦٤٤هـ/ ٢٨ آذار ١٢٤٧م[١]، ومعه الأمير فخر الدِّين يوسف بن شيخ الشيوخ[٢]. وكان يوم دخوله يومًا عظيمًا لكثرة من خرج في استقباله من الناس والزِّينة[٣]. فأحسن إلى أهلها، وتصدَّق على المدارس والرُّبُط، وخلع على أعيانها الخِلَع السَّنية[٤]، وفرَّق الأموال على فقرائها. وأقام فيها خمسة عشر يومًا[٥]. بينما سار الأمير فخر الدِّين يوسف إلى طبرية، ونازل الصَّليبيين فيها[٦].

ثم رحل إلى بَعْلبك، فرتَّب أمورها، وأمر بإصلاح أسوارها وتحصينها[٧]. ثم عاد إلى دمشق، ليسير منها إلى بُصْرى[٨]، وكان نوابه قد

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٨)، والمذيل على الروضتين (٢/ ٨١).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٧)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٨٢).
(٣) المذيل على الروضتين (٢/ ٨٢).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٨).
(٥) المذيل على الروضتين (٢/ ٨٢).
(٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٧).
يذكر ابن واصل حصار فخر الدين لطبرية عقب منازلته للكرك، ولا يذكر مرضه، وهو على حصار بصرى، وعودته إلى القاهرة. ينظر: «مفرج الكروب» (٥/ ٣٧٨).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٣٧٣).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٨).

تسلَّموها من نائب الصَّالح إسماعيل[١]. ثم مضى منها إلى صرخد، وتسلَّمها من صاحبها عزِّ الدِّين أيبك المعظَّمي[٢]، فيقدم عز الدين إلى دمشق، وينزل بالنيرب[٣]. ويرحل الصَّالح أيوب إلى بلاد بانياس، ويتسلم حصن الصُّبيبة من السَّعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل[٤]، فيقطعه إقطاعًا بمصر[٥]، ويتسلم حصن الصَّلت من الناصر داود[٦]. وكان من قبلُ قد تسلَّم عجلون.

وهكذا صفتِ البلاد كلُّها للصَّالح أيوب، ولم يبق خارجًا عن سلطانه إلا الكَرَك، وبها النَّاصر داود بن المعظم عيسى، وهو في حُكْم المحصور[٧].

ويرجع الصالح أيوب إلى مصر، ويبقي عساكره بالسَّاحل محاصرين الصَّليبيين في طبرية[٨]، وفي طريقه إلى مصر يمرُّ بالقدس، ويأمر بعِمارة سوره، كما تمنَّى عليه سبط ابن الجوزي من قبل[٩]، ثم يصل إلى القاهرة في أوائل المحرم سنة ٦٤٥هـ/ أيار ١٢٤٧م[١٠].

ويشدِّد الأمير فخر الدِّين يوسف حصاره لطبرية حتى يفتحها عَنْوَة في ١٠ صفر سنة ٦٤٥هـ/ ١٦ حزيران ١٢٤٧م[١١]، فيهدم قلعتها[١٢] التي أعاد الصليبيون عِمارتها، وسرعان ما يستولي بعدها على جبل الطُّور، وحصن شقيف أرنون. ثم يتحرَّك لمنازلة عَسْقلان[١٣]، فيحاصرها، ويقاتلُ عليها قتالًا عظيمًا[١٤]، حتى يستولي عليها عَنْوَة في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٦٤٥هـ/ ١٤ تشرين الأول ١٢٤٧م[١٥]، ويلقى معظم المدافعين عنها

---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٦).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٦٣).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٨).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٨٢).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٣٦).
(٦) المذيل على الروضتين (٢/ ٨٢).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٣٦٣).
(٨) المذيل على الروضتين (٢/ ٨٢).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩٨)، وينظر: (ص ١٧٧) من هذا الكتاب.
(١٠) مفرج الكروب (٥/ ٣٧٥).
(١١) المذيل على الروضتين (٢/ ٨٢).
(١٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٧).
(١٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٣٩٩).
(١٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠١).
(١٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٨).

مصرعهم، ومن تبقى منهم يقعُ في الأسر[1].

ويعود الأمير فخر الدين يوسف ليقيم في دمشق[2]، ويسكن في دار سامة. وكان سبط ابن الجوزي قد عاد إليها من بغداد، فيزوره فخر الدِّين يوسُف في مسكنه بالتُّرْبة البدرية، ويرغب إليه في العودة إلى مجالس وعظه في جامع دمشق، كما كان في أيامه السَّالفة، فلا يسعه إلا الاستجابة له[3].

ويعقد سبط ابن الجوزي أول مجالسه في جامع دمشق يوم السبت الأول من شهر رجب، وحتى آخر يوم سبت من رمضان، كما جرت عادته في ذلك[4]، بعد انقطاعٍ دام نحو إحدى عشرة سنة، منذ مغادرته دمشق عقب وفاة الأشرف موسىً[5].

ويحرِّكُه الشوق إلى زيارة الشَّيخ الفقيه محمد بن أحمد اليُونيني ببَعْلبك[6]، وهو شيخُ الحنابلة بها[7]، وتلميذُ شيخه الأثير أسد الشَّام عبد الله اليُونيني[8]، ويتذاكر معه أخبار الملك الأشرف موسى، وما رُؤي له من مناماتٍ صالحة تدلُّ على حُسْن خاتمته[9].

وكان عقب رجوعه إلى دمشق من بغداد، قد سعى لدى نواب الصَّالح أيوب في إطلاق سراح أمَة اللطيف ابنة منافسه في ميدان الوعظ ناصح الدِّين عبد الرحمٰن بن النَّجْم الحنبلي[10]. وكانت أمَة اللطيف قد قامتْ على خدمة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٠٠).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٨).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٠).
(٤) المذيل على الروضتين (١/ ١٦١).
(٥) ينظر: (ص ١٥٦) من هذا الكتاب.
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٥).
(٧) المذيل على الروضتين (٢/ ١٤٨).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٢٥٢)، و«ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٣٠، ٢/ ٣٩)، وينظر: (ص ٣٧ ـ ٣٩) من هذا الكتاب.
وهو والد قطب الدِّين موسى بن أحمد اليونيني؛ مختصر «مرآة الزمان». ينظر: «ذيل مرآة الزمان» (٢/ ٣٨)، و(ص ٢٦٦) من هذا الكتاب.
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦).
(١٠) ينظر: (ص ١٤٥ ـ ١٤٦) من هذا الكتاب.

الصَّاحبة ربيعة خاتون؛ أخت السُّلطان صلاح الدِّين مُدَّة، فحصل لها منها أموالٌ عظيمة[1]، وهي التي أرشدتها إلى وقف مدرستها الصَّاحبة على الحنابلة[2]. وبعد وفاتها سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م، لاقتْ أمَةُ اللطيف الشَّدائد والأهوال[3]، بسبب هذه المدرسة[4]، فحُبست بقلعة دمشق، وصُودرت وأخذت أموالها. فدخل سبط ابن الجوزي في قضيتها، وبالغ في أمرها، وكُلِّلت مساعيه بالإفراج عنها بعد نحو سنة، وكانت أقامت في محبسها ثلاث سنين[5].

ـ ٢ ـ

وتتجدَّدُ بدمشق صلة سبط ابن الجوزي بالأمير عزِّ الدِّين أيبك المعظَّمي. وكانت علاقته به تعود إلى أيام الملك المعظم عيسى بن العادل، فهذا الأمير كان من مماليكه المقرَّبين النُّجباء، اشتراه سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١١م، وهو يبني قلعة الطور[6]، وفوَّض إليه أستاذ داريته، وظهر منه من العقل والسَّداد ما أوجب تقديمه على الأولاد، وأعطاه قلعة صَرْخد، فأقام بها يضاهي الملوك[7]، حتى انتزعها منه الصَّالح أيوب بن الكامل في هذا العام[8].

وكان عزُّ الدِّين أيبك قد بنى من المدارس في دمشق مدرستين للحنفية: المدرسة العِزِّية البرَّانية، وفيها قُبَّة لتكون تربته[9]، والمدرسة العِزِّية

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩١).

(٢) القلائد الجوهرية (١/ ٢٣٧).

وتقع مدرسة الصاحبة الآن شرقي الصالحية في حارة الأكراد. ينظر: «القلائد الجوهرية» (١/ ٢٣٦ ـ ٢٤٦)، و«منادمة الأطلال» (٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩١).

(٤) القلائد الجوهرية (١/ ٢٣٧).

(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٢).

(٦) ينظر: (ص ٦٦) من هذا الكتاب.

(٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٣).

(٨) تنظر: (ص ٢١٦) من هذا الكتاب.

(٩) لم يبق منها الآن إلا القبة وبابها، وتقع في زقاق الصخر، مقابل ثانوية جودة الهاشمي. ينظر: «منادمة الأطلال» (١٨٣ ـ ١٨٥).

الجوَّانية[١]، وذُكر له مدرسة ثالثة كانت في جامع دمشق؛ هي أشبه بحلقة تدريس[٢]. ومَنْ أَوْلى من صديقه القديم سبط ابن الجوزي ليتولَّى النظر في شؤونه؟ ولذلك يفوِّض إليه في هذا العام ـ أي: سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م ـ النظر في أوقافه ومدارسهِ، ويقبل سبط ابن الجوزي هذا التفويض على كُرْهٍ منه وحياءٍ من الأمير[٣].

وكان أمير دمشق وقتئذٍ جمال الدِّين بن مطروح يكنُّ العداوة لعِزِّ الدِّين، فتواطأ مع جماعةٍ من الأمراء على الإيقاع به، فزوَّروا رسالة إليه، وادَّعوا أنها جاءته من حلب من عند الصَّالح إسماعيل؛ عدوِّ الصَّالح أيوب اللَّدود. فاتَّهموه بمكاتبته، وكتبوا إلى الصَّالح أيوب يخبرونه بذلك[٤]. وكان الصَّالح أيوب يطوي قلبه على بُغْضه لوقوفه في السِّنين السَّالفة مع أعدائه[٥]، فأمر على الفور باعتقاله، وأنْ يُحمل إلى القاهرة تحت الحوطة، فاعتقل في ١٣ ذي القعدة سنة ٦٤٥هـ/ ١١ آذار ١٢٤٨م، وحُمل إلى القاهرة، واعتقل فيها.

وزاد الأمر سوءًا أن إبراهيم بن الأمير عز الدين[٦]، لأمرٍ ما مضى إلى

---

(١) درست آثارها، وقد حدد أبو شامة موقعها قديمًا، فقال: داخل دمشق بالكشك، تعرف قديمًا بدار ابن منقذ.
قلت: يفهم من ذلك أن المدرسة العزية الجوانية كانت تقع شمالي جامع دمشق، قريبًا من دار الأمير أسامة ابن منقذ؛ لأن داره كانت إلى جوار تربة السلطان صلاح الدين بن أيوب، وهي التي صارت المدرسة العزيزية. ينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ١٠٧)، و«كتاب الروضتين» (٤/ ٤٣٣)، و«منادمة الأطلال» (١٢٩، ١٨٦).
(٢) ينظر: «منادمة الأطلال» (١٨٦).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠١).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٢).
(٥) ينظر: (ص ٢٠٧، ٢٠٨) من هذا الكتاب.
(٦) ذكر سبط ابن الجوزي أن إبراهيم هذا ليس ابنًا للأمير عز الدين من صلبه، وإنما هو ابن جاريته المنتحل إليه. وربما دفعه إلى هذا القول سوء تصرفه وعقوقه. أما أبو شامة ـ وكان صديقًا لإبراهيم ـ فنسبه صراحة إلى أبيه عز الدين. =

الصَّالح أيوب بمصر، ووشى بأبيه، قائلًا: إن أموال أبيه قد بعث بها إلى الحلبيين، وأول ما نزل بها من صرخد أَوْدَعها عند سبط ابن الجوزي. ثم سعى بحاشية أبيه كذلك قائلًا: عندهم أمواله. فأمر الصَّالح أيوب باعتقال الحاشية، وحَمْلهم إلى مِصْر، فحُملوا، ولم يظهر عليهم مما قيل درهم. ويبدو أن الصَّالح أيوب لم يجرؤ على اعتقال سبط ابن الجوزي معهم.

ولما بلغ عزَّ الدِّين، وهو في اعتقاله، اجتماعُ ابنه إبراهيم بالصَّالح أيوب، وقع إلى الأرض، وقال: هذا آخر عهدي بالدُّنيا. ولم يتكلَّم بعدها[1] حتى توفي في أوائل جمادى الأولى سنة ٦٤٦هـ/٨ آب ١٢٤٨م[2]، ودفن بباب النَّصْر.

ويأسى سبط ابن الجوزي لِمَا حلَّ بصاحبه الأمير عزِّ الدِّين، وموته غريبًا مظلومًا، فينقلبُ على الصَّالح أيوب، وعلى أمير دمشق جمال الدِّين بن

= ومال قطب الدين اليونيني إلى قول سبط ابن الجوزي، فقال: وهو أَخْبَرُ بذلك، ويدل عليه ما فعله به وبحاشيته. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٤٠٢)، و«المذيل على الروضتين» (٢/ ١٠٧)، و«ذيل مرآة الزمان» (١/ ١٧).

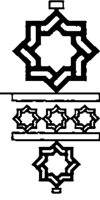
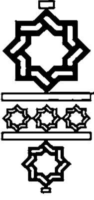
(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٢)، وذيل مرآة الزمان (١/ ١٦).

(٢) هذا ما ذكره ابن خلكان في تاريخ وفاته، وكان إذ ذاك بالقاهرة، وحضر الصلاة عليه ودفنه. والغريب حقًّا أن سبط ابن الجوزي اضطرب في تاريخ ترحيله إلى القاهرة، وسنة وفاته، ولم يتثبت منه. يظهر ذلك مما ساقه اليونيني في «ذيل مرآة الزمان» وهو ينقل غالبًا عنه، وإن لم يصرِّح بذلك، فقال: «ولم يتكلم بعدها حتى مات، ودفن ظاهر القاهرة بباب النصر سنة خمس وأربعين وست مئة». وبذلك نتبين ما أسقطه اليونيني في اختصاره لـ «مرآة الزمان» من ذكر سنة وفاته، ففيه «ولم يتكلم بعدها حتى مات، ودفن بباب النصر». وهذا يتسق مع ما ورد في آخر كلام سبط ابن الجوزي عنه: وقيل: إنه مات سنة سبع وأربعين وست مئة. وهو ما ذكره كذلك اليونيني في «ذيله». ثم يعود سبط ابن الجوزي، ويضرب صفحًا عما سلف، ويذكر أن عز الدين أيبك حمل إلى القاهرة تحت الحوطة سنة ٦٤٧هـ، وقيل: في سنة ٦٤٦هـ! ينظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ٤٩٦)، و«مرآة الزمان» (٢٢/ ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٧)، و«ذيل مرآة الزمان» (١/ ١٦).

مطروح. ويسعى جاهدًا إلى نقل عز الدين من القاهرة إلى دمشق، ودفنه في قُبَّته في المدرسة العِزِّية البرَّانية. فيتمُّ له ذلك بعد حين على يد أحد مماليك عزِّ الدِّين، فيحمله في تابوت إلى دمشق. ويرثيه سبط ابن الجوزي بكلماتٍ فيها حزن وعزاءٌ، قائلًا: «خُتم للأمير عزِّ الدِّين بالشَّهادة، كما عاش في دُنْياه تحت تلك السَّعادة.. ودفنَّاه في قُبَّته بين العلماء والفقهاء والمحدِّثين والقُرَّاء، وأعطاه الله في آخرته ما كان يتمنَّاه في دُنْياه، وأناله أرفع الدَّرجات، والأعمال بالنِّيَّات»[1].



(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

حملة لويس التَّاسع على مِصْر
ووفاة الصَّالح أيوب بن الكامل

ـ ١ ـ

وتتسارع الأحداث، فمن جديدٍ يقعُ النِّزاع بين الحلبيين والصَّالح أيوب، ويسببه هذه المرَّة الأشرف بن المنصور؛ صاحب حمص، فقد سلَّم نوابَ الصَّالح أيوب قلعة شميميش(١)، تقرُّبًا إليه(٢)، فحصَّنها، وبعث إليها بالخزائن(٣). فانزعج لذلك النَّاصر يوسف بن عبد العزيز ومدبر دولته شمس الدِّين لؤلؤ، وخافا أن يكون ذلك سببًا لمضايقة الصالح أيوب بلاد حلب، فصمَّما العزم على قَصْد حِمْص، وانتزاعِها من الأشرف(٤).

ويبلغ الصَّالح أيوب ما عزما عليه، فيستعدُّ للسَّفر إلى الشَّام، ويأمر العساكر أن تتقدَّم إلى السَّانح، وكان قد ابتنى بها مدينة سمَّاها الصَّالحية، وجعل فيها سوقًا وجامعًا لتكون مركزًا للعساكر قبل خروجهم إلى صحراء سيناء. ولخوفه أن يموت بالشَّام، ويملك أخوه العادل البلاد بعده(٥)، يبعث إلى حبسه خادمه محسن(٦) ليأمره أن يتوجَّه إلى قلعة الشَّوْبك، ليعتقل بها، فيمتنع العادل من ذلك(٧)، ويقول: إن أردتم أن تقتلوني بالشوبك، فها هنا

(١) كانت القلعة تقع شمالي سلمية، وقد أنشأها الملك المجاهد؛ جد الأشرف. ينظر: «مفرج الكروب» (٥/ ٧٤).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٧٧).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠١).
(٤) مفرج الكروب (٥/ ٣٧٧).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٣٧٩).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٦).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٢٧).

أولى، ولا أروح أبدًا. ويخرج الخادم ويعرِّف الصَّالح بقوله، فيقول له: دَبِّرْ أمره. فيأخذ ثلاثة مماليك، ويدخلون عليه ليلة الإثنين ١٢ شوال سنة ٦٤٥هـ/ ٩ شباط ١٢٤٨م، ويخنقونه ويعلِّقونه، ويُظهرون أنَّه شنق نفسه. وتخرج جِنازته كجِنازة الغُرباء، ولم يتجاسر أحدٌ أن يترحَّم عليه، أو يبكي حول نعشه[١].

وبعد أن يستريح الصَّالح أيوب من أخيه، يستنيبُ على مصر كعادته الأمير حسام الدِّين بن أبي علي الهَذَباني، ويخرج من القاهرة، وينزل بقصره بأشموم طناح[٢].

وهناك يعرض له ورمٌ في باطن رُكْبته، يحصل له منه ناسورٌ يعسر برؤه[٣]، يمتدُّ من بعدُ إلى فخذه، فيعمل له مِحَفَّة يركب فيها[٤]. ثم يصيبه مرض السِّل[٥]، فيتيقن الأطباء أن لا شفاء له، ولم يعلم هو بحقيقة مرضه[٦].

---

(١) وكان له يوم قتل نحو ثلاثين سنة، قضى منها في الاعتقال نحو ثماني سنين، وخلف ولدًا صغيرًا هو الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل، نزل إلى القاهرة عند عماته، ثم أخرج إلى الشوبك.
واعتمد ابن واصل الرواية الرسمية في موته، فقال: واتفقت وفاته بقلعة الجبل.. واستراح الصالح أيوب من همِّه. ثم قال: وأشهر أن العادل لما امتنع من المسير إلى الشوبك دخل عليه الطواشي جمال الدين محسن الصالحي، وتقدم بخنقه فخنق، والله أعلم بحقيقة ذلك.
وذكر سبط ابن الجوزي أن قتله كان في شوال سنة ٦٤٦هـ/ كانون الثاني ١٢٤٩م، والقول الأثبت هو ما ذكره المقريزي، ويتفق مع سياق الأحداث، وقد اعتمدته.
ينظر: «مفرج الكروب» (٥/ ٣٨٠)، و«مرآة الزمان» (٢٢/ ٤٠٦، ٤٠٧)، و«السلوك» (ج١/ ق٢/ ٣٢٧، ٣٢٩).

(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣٧٩).

(٣) مفرج الكروب (٦/ ٦٣)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣١).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٩).

(٥) مفرج الكروب (٦/ ٧٧، ٨٠).

(٦) مفرج الكروب (٦/ ٦٣)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣١).

وسبب إقامته بأشموم طناح ليكون قريبًا من دِمْياط، استعدادًا لقرب قدوم حملة صليبية جديدة، بلغته أنباؤها[1].

وكانت عساكر حلب قد خرجت مع الأمير شمس الدِّين لؤلؤ نحو حمص، وما إن وصلوا إليها حتى نصبوا عليها المجانيق، وضايقوها مضايقة شديدة.

وصبر الأشرف بن المنصور على الحصار، لما يعلمه من أن معظم عساكر الصالح أيوب في دمشق، وبقيتها في الصَّالحية بمصر، ولا بُدَّ أن تقدم عليه وتُنْجده.

ولمَّا استبطأ الأشرف إنجادهم له[2]، وقد مرَّ على حصار حمص نحو شهرين[3]، وأن لا خلاص له إلا بتسليمها، راسلَ الأمير شمس الدِّين في ذلك، وأذعن للصُّلح، على أن يعوَّض عنها تل باشر، مُضافًا إلى ما بيده من الرَّحبة وتدمر. فأُجيبَ إلى ما طلب، وتسلَّم الأشرف تلَّ باشر، ودخلتْ قواتُ النَّاصر يوسف حمص، واستولوا عليها[4].

واشتدَّ غضب الصَّالح أيوب لاستيلاء الحلبيين على حمص، فرحل على الفور، لعلوِّ هِمَّته وبرغم مرضه، من أشموم طناح إلى القاهرة، واستدعى إليه الأمير حسام الدِّين بن أبي علي من الصَّالحية، واتفقا على المسير إلى الشَّام، لانتزاع حمص من أيديهم[5]، ولمواجهة الحملة الصليبية التي وصلت إلى قبرص في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٦٤٦هـ/ ١٧ أيلول ١٢٤٨م[6]، لقضاء الشِّتاء هناك[7]، وغدا الآن يتوقع قدومها في الرَّبيع إلى الشَّام[8].

---

(١) مفرج الكروب (٦/ ٧٢).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ٦٤).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ٦٣).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ٦٤)، وينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٤٠٤).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ٦٤، ٦٥).
(٦) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٤٤).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ٧٢).
(٨) مفرج الكروب (٦/ ٧٢)، وتاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥١).

فاستناب بمصر الأمير جمال الدِّين بن يغمور، وتقدَّم إلى عسكره المقيم بالصَّالحية بالتوجُّه نحو دمشق، وسار بهم وهو في مِحَفَّة لمرضه[1].

ووصل إلى دمشق في أول شعبان سنة **٦٤٦**هـ/ **١٩** تشرين الثاني **١٢٤٨**م[2]، فنزل بقلعتها، وجهَّز العساكر إلى حِمْص مع الأميرين فخر الدِّين يوسف وحسام الدِّين بن أبي علي[3]، وبعث بالمجانيق إلى حمص، وسخَّر الفلاحين بحَمْلها[4] في هذا الشِّتاء القارس[5]، فهجر الفلاحون قراهم هربًا من هذه السُّخْرة[6].

وأخيرًا نزل عسكر الصَّالح أيوب على حمص، وضايقها، ونصب المجانيق عليها، وواتر رميها بالحجارة، وجدَّ في حصارها ليسرع في أخذها، لقسوة الشِّتاء والبرد الشَّديد[7].

وخرج النَّاصر يوسُف من حلب في **١٥** رمضان سنة **٦٤٦**هـ/ **١** كانون الثاني **١٢٤٩**م للقائهم، ونزل بأرض كَفْر طاب[8].

وألحَّ فخر الدِّين يوسف في الحصار[9] إلى أن ورد من بغداد الشَّيخ نجم الدِّين البادرائي رسولًا من الخليفة المستعصم بالله للإصلاح بين النَّاصر يوسف والصَّالح أيوب، وتمَّ الاتفاق على أن يرجع الصَّالح أيوب عن حِمْص، وتبقى بيد الناصر يوسف. فتقدَّم الصالح أيوب إلى عساكره بالرَّحيل عنها بعد أن شارفوا على أخذها.

وسبب اضطرار الصَّالح أيوب للموافقة على هذا الصلح ما بلغه من

---

(١) مفرج الكروب (٦/ ٦٤، ٦٥ ـ ٦٦). (٢) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٠).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ٦٦). (٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٤).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣١). (٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٤).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ٦٦ ـ ٦٧).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٤)، ومفرج الكروب (٦/ ٦٧).
(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣١).

أن الحملة الصليبية القادمة ستتجه نحو مصر[1]، وهي ما عُرف من بعدُ بالحملة الصَّليبية السَّابعة.

فأسرع الصَّالح أيوب بالعودة إليها في ٤ المحرم سنة ٦٤٧هـ/ ١٩ نيسان ١٢٤٩م، مريضًا مُدْنفًا[2]، محمولًا في مِحَفَّة[3]، بعد انتظاره لهذه الحملة بدمشق نحو خمسة أشهر[4]. ويبدو أن قطيعة سبط ابن الجوزي له كانت قد استحكمتْ، فلم يحدِّثنا أنَّه التقاه خلالها أبدًا.

ـ ٢ ـ

ووصل الصالح أيوب إلى أشموم طناح في يوم الإثنين ٣ صفر سنة ٦٤٧هـ/ ١٨ أيار ١٢٤٩م ليكون في مقابلة الصَّليبيين إذا وصلوا إلى دِمْياط[5]. وأرسل الأمير جمال الدِّين موسى بن يغمور لينوب عنه في دمشق، بعد عزله جمال الدين يحيى بن مطروح عن نيابتها، وقد تغيَّر عليه[6].

وأخذ الصَّالح أيوب في جمع الذَّخائر والأقوات وآلات الحرب، وإرسالها إلى دمياط. وتقدَّم إلى الأمير فخر الدِّين يوسف بن شيخ الشيوخ أن ينزل بالعساكر على جيزة دمياط، ليكون في مقابلة الصَّليبيين حين وصولهم[7].

وغادر الصَّليبيون قبرص، ووصلتْ مراكبُهم إلى السَّاحل من جهة برج دمياط يوم الجمعة ٢٠ صفر سنة ٦٤٧هـ/ ٤ حزيران ١٢٤٩م[8]. وشرعوا في

---

(١) مفرج الكروب (٦/ ٦٧، ٧٢).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٧).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ٦٨).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٠)، وتاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥١).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ٧١ ـ ٧٢).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ٦٩ ـ ٧٠).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ٧٢ ـ ٧٣).
(٨) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٠، ٩١)، وتاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

فجر يوم السبت ٢١ صفر/ ٥ حزيران بالنزول إلى البر[١]، وكان الملك لويس التَّاسع من أوائل النَّازلين[٢]، وضُربت له خيمة حمراء، فناوشهم بعضُ المُسْلمين بعض المناوشة[٣]. فلمَّا أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بالعساكر، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشَّرقي، تاركًا البَرَّ الغربي للصَّليبيين، ثم تابع رحيله مع العساكر متوجِّهًا إلى أشموم طناح. وساد الاضطراب عندئذٍ بين العساكر، واشتدَّ طمعهم بسبب مرض الصَّالح أيوب، فلم يعد يردعهم رادع، وخلا منهم البر الشَّرقي كذلك. فلمَّا رأى أهلُ دمياط هروبَ العساكر، خافوا على أنفسهم أن يطول عليهم الحصار، فيهلكوا جوعًا كما هلك أهلها في المرة السَّالفة[٤]، فخرجوا كأنما يُسحبون على وجوههم طوال الليل، هاربين إلى أشموم طناح مع العسكر، وفيهم جماعة من الكِنانية شجعان، وهم حفاةٌ جياع فقراء بمن معهم من الأطفال والنساء[٥]، ولم يبق بالمدينة إلا مسيحيُّوها حيث لزموا دورهم[٦].

ولما أصبح الصَّباح من يوم الأحد ٢٢ صفر/ ٦ حزيران[٧] زحف الصَّليبيون إلى دمياط، فرأوا أبوابها مفتَّحة ولا أحدَ يحميها، فخشوا أن تكون مكيدة، فتمهَّلوا حتى تبيَّن لهم أن أهلها هربوا وتركوها، فدخلوها بغير كُلْفة ولا مُؤنة حصار، واستولوا على ما فيها من الأسلحة والأقوات والأزواد والذخائر، والأموال والأمتعة صَفْوًا عفوًا.

وبلغ أهل القاهرة والفُسْطاط ما جرى، فانزعج النَّاس انزعاجًا عظيمًا[٨]،

---

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ٩١)، وتاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٢).

(٢) القديس لويس (٢٨). (٣) مفرج الكروب (٦/ ٧٣).

(٤) مفرج الكروب (٦/ ٧٥)، وينظر: (ص ١٠٧) من هذا الكتاب.

(٥) مفرج الكروب (٦/ ٧٤)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣٥).

(٦) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٢).

(٧) المذيل على الروضتين (٢/ ٩١)، وذكر سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (٢٢/ ٤٠٨) أن ذلك كان في شهر ربيع الأول، وهو وهم منه.

(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣٦).

ودبَّ اليأس في قلوبهم، واعتقدوا أن الصَّليبيين بعد استيلائهم على دِمْياط سيستولون على مصر كلِّها، ولا سيَّما أن سُلْطانهم الصَّالح أيوب مريض، وقد ضعفت قُواه عن الحركة، ولم يعد لديه القُدْرة على ضبط عساكره[1].

أما الصالح أيوب فقد تغيظ مما جرى، واشتدَّ حنقه على الكِنانية لخروجهم من دمياط بغير إذن، فاستفتى الفقهاء، فأفتوا بقتلهم. فأمر بشنقهم، فشُنقوا جميعًا، وكانوا نحو خمسين أميرًا[2]. وتألَّم ممَّا فعله الأمير فخرُ الدِّين والعساكر[3]، وقال لهم: أَمَا قدرتم تقفوا ساعة بين يدي الإفرنج! وأسرَّها الصَّالح أيوب في نفسه[4]؛ لأن الوقت لا يحتمل إلا الصبر والإغضاء عما فعلوا[5].

* * *

ولم ير الصَّالح أيوب له من سبيل إلا الرَّحيل مع العساكر إلى المنصورة[6]، وهي التي بناها والده الكامل[7]، فحُمل إليها[8]، واستقرَّ بها في قصر أبيه يوم الثلاثاء ٢٤ صفر/٨ حزيران[9]. وتدفَّق عليها الغُزاة والعربان والرِّجال من عوامِّ النَّاس من كلِّ النَّواحي طلبًا للجهاد[10].

أما الصَّليبيون فقد أثار دهشتهم سهولة استيلائهم على دمياط، ولكن لم يعد بوسعهم متابعة انتصارهم، وهم على أبواب شهور الصَّيف، لقرب حلول زمن فيضان النِّيل. وما تزال التجربة المُرَّة التي عانتها الحملة الصليبية الخامسة ماثلة أمام أعينهم[11]، فآثر ملكهم لويس التَّاسع الإقامة في دمياط

---

(١) مفرج الكروب (٦/ ٧٥).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣٦).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ٧٥).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٨).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ٧٥).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ٧٦).
(٧) معجم البلدان (٥/ ٢١٢).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣٧).
(٩) مفرج الكروب (٦/ ٧٦).
(١٠) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٣٧).
(١١) ينظر: (ص ١١٥ ـ ١١٨) من هذا الكتاب.

طوال شهور الصيف[١]. وحصَّن سورها، وملأها بالمقاتلة[٢]، وحوَّل مسجدها إلى كنيسة. وتوزع الصَّليبيون في أحيائها ودورها[٣].

* * *

وتزايد المرض بالصَّالح أيوب واشتد[٤]، وضعفت قُواه جدًّا، ولم يلبث أن مات ليلة الأحد **١٤** شعبان سنة **٦٤٧**هـ/ **٢٢** تشرين الثاني **١٢٤٩**م، عن نحو أربعٍ وأربعين سنة[٥]. ولم يكن عنده إلا جاريته شجر الدُّرِّ، وهي المدبِّرة للأمور[٦].

وهكذا اتفقت وفاة الصَّالح أيوب في أصعب الأوقات[٧]، فرأت شجرُ الدُّرِّ أن تخفي موته[٨] لئلا يطلع عليه الصَّليبيون، فيهجموا على المسلمين، فلربما لا يثبتون لهم، إذ لا قائد يجمعهم الآن. ولا يقوم بجمع شملهم مثل الأمير فخر الدِّين يوسف بن شيخ الشيوخ[٩]، لحبِّ الناس له[١٠]. فأبقتْ كل شيء على حاله، وكانت تقول: السُّلطان مريضٌ ما يصل إليه أحد[١١].

واتفقت مع الطَّواشي جمال الدِّين محسن ـ وهو أقربُ الخُدَّام إلى الصَّالح أيوب ـ على استدعاء الأمير فخر الدِّين يوسف، وعرَّفاه موت السلطان الصالح أيوب. واتفق ثلاثتهم على كِتْمان هذا الأمر[١٢] عن كلِّ كبير من الدَّولة وصغير[١٣]. وعلى تحليف العساكر وولاة البلاد للصَّالح أيوب ومن بعده لولده المعظم تورانشاه، وللأمير فخر الدِّين بأتابكية

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٣). (٢) مفرج الكروب (٦/ ٧٦).
(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٣). (٤) مفرج الكروب (٦/ ٨٠).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ٨١)، وفيه ترجمة مطولة له (٦/ ٨٢ ـ ١٠٠)، وينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٤٠٨، ٤٠٩)، واستقصيت مصادر ترجمته في تحقيقي لكتاب «المذيل على الروضتين» (٢/ ٩٢).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٨). (٧) مفرج الكروب (٦/ ١٠١).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٣). (٩) مفرج الكروب (٦/ ١٠١).
(١٠) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٣). (١١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٨).
(١٢) مفرج الكروب (٦/ ١٠١). (١٣) مفرج الكروب (٦/ ١٠٢).

العَسْكر، والقيام بتدبير المملكة[1].

ووُضع الصَّالح أيوب في تابوت، ونُقل سرًّا في المركب إلى قلعة الرَّوضة بالجزيرة[2].

وبعثت شجر الدُّرِّ الأمير فارس الدِّين أقطاي[3]؛ وهو يومئذٍ رأسُ المماليك البحرية، لإحضار المعظم تورانشاه من حصن كيفا[4].



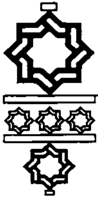
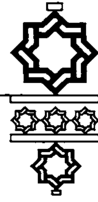
---

(١) مفرج الكروب (٦/ ١٠١).

(٢) ثم نقل إلى القاهرة ليلة الجمعة ٢١ رجب سنة ٦٤٨هـ/ ١٩ أيلول ١٢٥٠م، ودفن بتربته التي بنيت له بجانب مدرسته بين القصرين، وأقيمت عليه المآتم. ينظر: «مفرج الكروب» (٦/ ١٠١ ـ ١٠٢، ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٠٤).

(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٥).

قدوم المعظم تورانشاه بن الصَّالح أيوب إلى مِصْر وهزيمة الصَّليبيين

ـ ١ ـ

مع نهاية انحسار فيضان النِّيل، وذلك في ٢٣ رجب سنة ٦٤٧هـ/ ٣١ تشرين الأول ١٢٤٩م، أخذ الصَّليبيون في الاستعداد للخروج من دمياط للزَّحف نحو القاهرة. ولمَّا أتموا استعداداتهم خرجوا منها في ١٢ شعبان/ ٢٠ تشرين الثاني ـ قبيل وفاة الصَّالح أيوب بيومين ـ متَّجهين جنوبًا نحو المنصورة[١].

وفي طريقهم إليها اعترضتهم فروعُ النِّيل، وأكبرها فرع يعرف بالبحر الصَّغير، يتفرَّع من مجرى النيل الرئيسي جنوبي المنصورة، ويسير مجتازًا أشموم طناح إلى بحيرة المنزلة، عازلًا بذلك ما يعرف بجزيرة دمياط. خلف هذا البحر الصَّغير حشد الأمير فخر الدِّين معظم قواته، وأرسل خيَّالته لإيقاع الاضطراب في صفوفهم عند اجتيازهم فروع النيل. بيد أن هذه المناوشات لم توقف زحفهم، وتابع الملك لويس التاسع تقدمه ببطء وحذر[٢] حتى وصل إلى فاسكور، وسفنه في النيل تحاذيه، ثم رحل منها يوم الخميس ٢٤ شعبان/ ٢ كانون الأول.

وعلى مقربة من فاسكور دارت رحى معركة بين المُسْلمين والصَّليبيين في ٢٩ شعبان/ ٧ كانون الأول، ارتدَّت على إثرها الخيَّالة المصرية[٣]،

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٥). (٢) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٧).
(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٧).

وقُتل من الصَّليبيين عِدَّة[١].

وشدَّ من أزرهم ما تسرَّبَ إليهم من أنباء عن وفاة الصَّالح أيوب، فتشجَّعوا لدى سماعها، ورأوا أن حكومة مؤلَّفة من امرأة ورجل كهل لن تلبث أن تنهار[٢]. فتابعوا طريقهم مجدِّين، ونزلوا بشارمساح. وفي يوم الإثنين ٧ رمضان/ ١٤ كانون الأول نزلوا البرمون، فاشتدَّ الخَطْب، وعَظُمَ الكَرْب لقُرْبهم من المنصورة. وفي ليلة الإثنين ١٣ رمضان/ ٢٠ كانون الأول[٣]، عسكر الصَّليبيون على ضفاف البحر الصَّغير تجاه المنصورة[٤]، ورستْ سفنهم إلى جانبهم، ووقفت سفن المسلمين بإزاء المنصورة. فخندق الصَّليبيون عليهم خندقًا، وأداروا سورًا وستروه بالسَّتائر، ونصبوا المجانيق، ووقع القتال بين الصليبيين والمسلمين برًّا وفي النيل[٥].

* * *

أما في حصن كيفا فقد وصل إليه فارس الدِّين أقطاي[٦] وحثَّ المعظَّم تورانشاه على سرعة الحركة، وطلب منه أن يوليه الإسكندرية، فوعده بها[٧].

وخوفًا من أن يحول بدر الدِّين لؤلؤ؛ صاحب الموصل والحلبيون بينه وبين مقصده، تنكر المعظم تورانشاه[٨]، وخرج من حصن كيفا يوم السبت ١١ رمضان سنة ٦٤٧هـ/ ١٨ كانون الأول ١٢٤٩م مع جماعة من أصحابه وخواصِّه، تاركًا فيه ابنه الملك الموحد عبد الله، وله نحو عشر سنين. وسار مجدًّا[٩]، عابرًا البلاد. ولم يفطن له أحدٌ من ملوك الأطراف حتى

---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٧). (٢) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٧).

(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٧).

(٤) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٨).

(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٠٨)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٧).

(٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٥). (٧) مفرج الكروب (٦/ ١٠٦).

(٨) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٢). (٩) مفرج الكروب (٦/ ١٠٦).

وصل إلى عانة[1]، وهي من بلاد الخليفة[2] بعد أربعة أيام[3]، فعدَّى الفرات[4]، متوجِّهًا إلى دمشق على طريق بادية السَّماوة[5]، حتى وصل إليها يوم الثلاثاء ٢٩ رمضان/ ٥ كانون الثاني، فأقام بقلعتها، وأحسن إلى أهلها[6]. ووردت إلى القاهرة بشائر وصوله إلى دمشق، واستقراره بقلعتها في ٤ شوال/ ١٠ كانون الثاني[7].

وأرسل الأمير فخر الدِّين يوسف بن شيخ الشيوخ جماعة من المماليك إلى دمشق، تستعجله في القدوم إلى مصر، فأوهمه بعضُهم أن فخر الدِّين قد حلَّف العساكر لنفسه، ومتى وصلتَ قتلك. فتوقف المعظَّم في دمشق، وأنفق الأموال ليستميلَ بها عسكر مصر، وحلَّف المماليك الذين بعثهم فخر الدِّين إليه على قَتْله[8].

وبقي المعظم مقيمًا في دمشق سبعة وعشرين يومًا[9]، ثم خرج منها إلى المنصورة يوم الإثنين ٢٦ شوال/ ١ شباط[10]، وقد عزم حين وصوله إليها على الفَتْك بالأمير فخر الدِّين يوسف بن شيخ الشيوخ، لما بلغه عنه من طمعه في المُلك، ومحبَّة النَّاس له[11].

ـ ٢ ـ

وكان القتال في تلك الأيام متصلًا بين المُسْلمين والصَّليبيين[12]، وكان أكثر ما ينكي بالصَّليبيين هؤلاء المطَّوِّعة الذين يتحيَّلون في التخطُّفِ منهم كلَّ حيلة[13].

---

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٢).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٠٦).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٠٨).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٢).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٠٨).
(٦) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٢).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١١٠).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٠).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٩).
(١٠) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٢).
(١١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٩).
(١٢) مفرج الكروب (٦/ ١١١).
(١٣) مفرج الكروب (٦/ ١٠٩ ـ ١١٠).

وظل الجيشان نحو ستة أسابيع على تلك الحالة[١]، يفصل بينهما البحر الصَّغير ـ وكان فيه مخايض رقاق[٢] ـ حتى كان يومٌ جاء فيه أحدُ الأقباط إلى معسكر الملك لويس التاسع، وعرض عليه أن يدله[٣] على مخاضةٍ من تلك المخايض تعرف بمخاضة سلمون[٤]، يعبرون منها البحر الصغير، لقاء مالٍ يعطيه له[٥].

وفي فجر الثلاثاء ٥ ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ/ ٩ شباط ١٢٥٠م، ركب الصَّليبيون، وقصدوا تلك المخاضة[٦]، وشرعوا في اجتيازها، وتولى روبرت الأخ الثاني للملك لويس التاسع قيادة مقدمة الجيش، بمن كان بها من الدَّاوية، وتلقى منه أوامر صارمة بألا يهاجم المصريين إلا بعد أن يأذن له. وعبر الصَّليبيون المخاضة في عناء وبطء، ولم يكد روبرت يجتاز البحر الصَّغير مع رجاله حتى عزم على المبادرة بالهجوم، خشية أن يضيِّع عنصر المفاجأة، فأهمل أوامر الملك، وأصرَّ على متابعة الزحف إلى معسكر المسلمين[٧]. فلم يشعر المسلمون إلا والصَّليبيون[٨] قد حملوا عليهم وقت السَّحَر على غِرَّة[٩]، فاندفعوا بين أيديهم مهزومين[١٠].

في ذلك الوقت كان الأمير فخر الدِّين بن شيخ الشيوخ يغتسل في الحمَّام[١١]، فأتاه الصَّريخ بأن الصَّليبيين قد هجموا على المعسكر[١٢]، فخرج مَذْهوشًا، لم يتسنَّ له لبس لأْمَة الحرب، وركب فرسه على عجلٍ[١٣] ليكشف الخبر، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده، فالتقى مصادفة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٨).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١١١).
(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٨).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١١١).
(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٨).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١١١).
(٧) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٩).
(٩) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٢).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٨، ٤١١).
(١١) مفرج الكروب (٦/ ١١١).
(١٢) مفرج الكروب (٦/ ١١١).
(١٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٩).

كتيبة من الدَّاوية، فحملوا عليه، فهرب من كان معه[١]، وتركوه وحيدًا يدافع عن نفسه، فطعنه واحدٌ من الدَّاوية برمح في جنبه[٢]، فوقع عن الفرس، وتكاثروا عليه، فضربوه في وجهه بالسَّيف عرضًا وطولًا ضربتين، فقتلوه، وله من العمر ستٌّ وستون سنة[٣].

وبمقتل الأمير فخر الدِّين[٤] تمَّت لروبرت السَّيطرة على المعسكر. وعندئذٍ توسَّل إليه مقدَّم الدَّاوية أن ينتظر حتى يجتاز الملك وسائر الجيش المخاضة ليلحقوا به، بيد أن هذا النصر السريع فتح شهية روبرت للقتال، فعزم على أن يستولي على المنصورة[٥].

ومع أن العساكر قد انهزموا بين يديه[٦] إلا أن مماليك الصَّالح أيوب البحرية ـ وفيهم ركن الدِّين بيبرس البُنْدُقداري[٧] ـ ظلوا متماسكين[٨]. وبدهاء ورباطة جأش تركوا الصَّليبيين يتدفقون على المدينة، وقد كمنوا لهم في سِكَكها وشوارعها، حتى إذا بلغوا أسوار قلعتها[٩]، وتفرَّقوا في

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١١).　(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٤٩).

(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١١).
ثم حمل من أرض المعركة في مركب إلى القاهرة، فدفن عند والدته، قريب من ضريح الإمام الشافعي، ولم يخلف إلا بنتًا واحدة. تنظر ترجمته في: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٤١٠ ـ ٤١٢)، و«مفرج الكروب» (٦/ ١١٣ ـ ١١٥)، واستقصيت مصادرها في تحقيقي لكتاب «المذيل على الروضتين» (٢/ ٩٢).

(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٠).　(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٥٩).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٨).

(٧) كان ركن الدين بيبرس البندقداري مملوكًا للأمير علاء الدين أيدكين البندقداري؛ أحد مماليك الصالح أيوب، وأمرائه الكبار، واتفق أن الصالح أيوب غضب عليه مرة واعتقله، وأخذ مماليكه، وركن الدين واحدًا منهم، فصار له. وهو الذي سيحكم من بعد مصر والشام، ويلقب بالظاهر بيبرس. ينظر: «مفرج الكروب» (٦/ ١٢٨).

(٨) مفرج الكروب (٦/ ١١٢)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٠).

(٩) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٠).

أزقتها[١]، وانهزم الناس منهم يمينًا وشمالًا[٢]، وأيقنوا بالظفر، انقضَّ عليهم هؤلاء المماليك، وحملوا عليهم حملة واحدة عظيمة، زعزعوا بها صفوفهم، وأخذتهم سيوفهم، فأثخنوا فيهم قتلًا وجرحًا، وطرحوهم في أزقة المنصورة، وكادوا يستأصلونهم[٣]، حتى حال بينهم الليل[٤]، فلم يُفلت منهم إلا عددٌ قليل. واعتصم روبرت وحرسه في بيت من بيوتها، غير أن المماليك اقتحموا البيت، وأجهزوا عليه مع حرسه[٥].

وهذه هي أولى المعارك التي كان النَّصْر فيها حليف هؤلاء المماليك وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم. ووردت بُشْراها على المعظم تورانشاه، وهو في طريقه إلى مِصْر[٦].

ـ ٣ ـ

وبينما كان الملك لويس التَّاسع على وَشْك الفراغ من اجتياز البحر الصَّغير، بلغته هزيمة الصَّليبيين بالمنصورة، فبادر على الفور بإقامة خط أمامي لمواجهة ما يتوقعه من هجوم من قبل المماليك. وأمر المهندسين بإنشاء جسر على مجراه، واتخذ الرُّماة مواضعهم على الطرف البعيد للنهر كي يحموا الجند عند عبورهم، وكان لويس حريصًا على أن يلحقوا به[٧].

ولم يلبثِ المماليك أن خرجوا من المنصورة، وهجموا على موقع الصَّليبيين الجديد، ليحولوا دون بنائهم الجسر، فلم ينجحوا في ذلك، واكتمل بناؤه مع غروب شمس يوم الأربعاء ٦ ذي القعدة/ ١٠ شباط. فاجتازه الرُّماة الصَّليبيون، ورجع المماليك إلى المنصورة. ونصب الملك لويس التاسع معسكره في ذلك الموقع، وعلم وقتئذٍ بمصرع أخيه روبرت،

---

(١) مفرج الكروب (٦/ ١١١).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٠).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١١٢).
(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥١).
(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٠).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١١٣).
(٧) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦١).

فاغرورقت عيناه بالدُّموع[1]. وألفى نفسه في موقف صعب خطير، يُشبه ما حدث من قبلُ للحملة الصَّليبية الخامسة[2]، فها هو جيشه يقف في مكان قريبٍ من المكان الذي وقفت فيه، لا يريم، فالكارثة التي حلَّت به في المنصورة جعلته عاجزًا عن شنِّ هجوم عليها، ولا نجاة له مما هو فيه إلا أن يقع في مصر من الاضطرابات والفِتَن ما يحملهم على أن يعرضوا عليه شروطًا للصُّلح يقبلها. وإلى أن يحين ذلك لجأ إلى تحصين معسكره، وتدعيم الجسر على البحر الصغير[3].

* * *

وتتواتر الأخبار بقرب وصول المعظم تورانشاه إلى مِصْر، فيخرج القاضي بدر الدِّين السِّنْجاري إلى لقائه بغزَّة، ثم يخرج الأمير حسام الدين بن أبي علي إلى قرب الصَّالحية، فيتلقاه بها يوم السبت **١٦** ذي القعدة/ **٢٠** شباط، وينزل بها في قصر والده، ويقدم إليه جمع كثير من الأمراء ومماليك والده للسَّلام عليه، ويقع وقتئذٍ التصريح بوفاة الصَّالح أيوب، بعد كِتْمان له دام نحو ثلاثة أشهر[4]، ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته[5].

ثم يرحل المعظَّم من الغد إلى المنصورة[6]، ويصل إليها يوم الخميس **٢١** ذي القعدة/ **٢٥** شباط[7]، ويتلقاه الأمراء والمماليك البحرية، ويستقرُّ في قصر أبيه[8].

وأول ما بدأ به أن أخذ مماليك الأمير فخر الدين يوسف الصِّغار، واستولى على ثروته التي خلَّفها، ولم يعطِ ورثته شيئًا، وأخذ يسبُّه[9]، ويجعل حسناته سيئات، ويقول: أنفقَ الأموال وأطلقَ المحابيس، أيش ترك

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦١).

(٢) ينظر: (ص ١١٦) من هذا الكتاب.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٢).

(٤) مفرج الكروب (٦/ ١١٥ ـ ١١٦).

(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٢).

(٦) مفرج الكروب (٦/ ١١٦).

(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٣).

(٨) مفرج الكروب (٦/ ١١٨).

(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٣).

لي أنا؟ فكان حِفْظه المُلك وسياسة العسكر، ومقاتلة الفرنج من أكبر ذنوبه، على حدِّ تعبير سبط ابن الجوزي[(١)].

ثم ركب المعظم بالعساكر إلى قُبالة الصَّليبيين، وناوشهم القتال، وشدَّد حصارهم في منزلتهم التي نزلوها. وقَدِمَ إليه جماعةٌ من العلماء، منهم الشَّيخ العلَّامة عز الدين بن عبد السَّلام[(٢)].

* * *

وكانت المِيْرة تأتي للصَّليبيين من دمياط، فعمد المسلمون إلى مراكب حملوها على الجمال إلى بحر المحلَّة، وألقوها فيه، بعد أن شحنوها بالمقاتلة، مستفيدين مما فيه من ماء أيام زيادة النيل، وكمنوا للصَّليبيين. فلما حاذتهم مراكبهم المقلعة من دمياط، خرجوا عليها، ووقع القتال بين الفريقين. وأمدَّتِ المسلمين أساطيلهم منحدرة من جهة المنصورة، فطوقوا بذلك مراكب الصليبيين، وأخذوهم أخذًا باليد، فقتلوا وأسروا منهم نحو ألف، وسلبوا نحو خمسين مركبًا، واستولوا على ما فيها من ميرة، ثم حملوا الأسرى على الجمال، وقدموا بهم إلى المنصورة. وانقطعت بسبب ذلك الميرة عن معسكر الصَّليبيين، وضعفوا ضعفًا شديدًا، واشتدَّ عندهم الغلاء من يومئذ، وعَدِمت الأقوات، وباتوا محصورين لا يستطيعون المُقام ولا الذَّهاب. واستضرى عليهم المسلمون، وطمعوا فيهم[(٣)].

وحاول الصَّليبيون مرة أخرى إيصال الميرة إلى معسكرهم المحاصر، فخرج عليهم المسلمون في مراكبهم يوم الإثنين ٩ ذي الحجة/ ١٥ آذار، وهو يوم عرفة، فالتقوا بمراكب الصليبيين، فاستولوا منهم على نحو اثنين وثلاثين مركبًا، فازداد عند ذلك ضعف الصليبيين، وقوي عندهم الغلاء[(٤)].

وأدرك الملك لويس التاسع حينئذٍ أنْ لا بُدَّ له من بذل ما في وسعه

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١١).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١١٩).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٢٠ ـ ١٢١).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٢٢).

لتخليص جيشه، وذلك بالتقهقر نحو دمياط، وأعدَّ نفسه للدُّخول في مفاوضات مع المسلمين. فأرسل إلى تورانشاه يعرض عليه[1]، أن يسلم دمياط مقابل تسليم بيت المقدس له، وبعض بلاد السَّاحل[2]. بيد أن الوقت قد فات على شرط كهذا الشرط بعد أن عرف المسلمون ما عليه من ضعف[3]، فلم تقع الإجابة إلى ذلك. فأسقط في يد الملك لويس، وعزم حينئذ على التقهقر إلى دمياط[4]، ودعا قادته للاجتماع به لمناقشة هذا الأمر، فتوسلوا إليه أن يتسلل بحرسه إلى دمياط، فأبى في كبرياء أن يتخلَّى عن رجاله. فتقرَّر نقل المرضى على السفن بطريق النيل، وأن يتخذ الأصحاء من الجند الطريق الذي سبق أن سلكوه في قدومهم[5].

واستعدادًا للرَّحيل أحرق الصَّليبيون يوم الجمعة **٢٦** ذي الحجة/ ١ نيسان أخشابهم كلها كيلا يُستفاد منها، وأتلفوا مراكبهم[6]. وفي ليلة الأربعاء **٢** المحرم سنة **٦٤٨**هـ/ **٧** نيسان **١٢٥٠**م[7] رحلوا بفارسهم وراجلهم متوجِّهين إلى دمياط ليمتنعوا بها، وانحدرت مراكبهم في النيل قبالتهم[8]. واتخذ الملك لويس التاسع مكانه في مؤخرة الجيش كيما يشجع العساكر الذين ضلوا الطريق.

وتنبه المماليك البحرية في المنصورة لتحرُّك الصليبيين، فنهضوا لمطاردتهم، واكتشفوا أن الصَّليبيين جميعًا قد اجتازوا البحر الصغير، وأن مهندسيهم نسوا أن يدمروا الجسر العائم، فاجتازوه[9]. ومع طلوع صباح يوم الأربعاء كان المسلمون قد أحاطوا بالصليبيين في فارسكور، وبذلوا

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٤). (٢) مفرج الكروب (٦/ ١٢٢).
(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٤). (٤) مفرج الكروب (٦/ ١٢٢).
(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٢٢)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٤).
(٧) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٣). (٨) مفرج الكروب (٦/ ١٢٤).
(٩) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٥).

فيهم سيوفهم، واستولوا عليهم قتلًا وأسرًا[١]، ولم يسلم منهم إلا الشاذ[٢]. وأبلت المماليك البحرية، ولا سيَّما ركن الدِّين بيبرس البُنْدُقداري في هذه الوقعة بلاء حسنًا، وبان لهم أثرٌ جميل.

والتجأ الملك لويس التاسع وعِدَّة من أكابر أصحابه إلى تل منية[٣] عبد الله من ناحية شرمساح[٤]، ووقفوا به مستسلمين، طالبين الأمان، فأتاهم الطواشي جمال الدين محسن الصَّالحي، فأمَّنهم[٥]، فنزلوا على أمانه. واقتيدوا إلى المنصورة، فقُيِّد الملك لويس بقيد من حديد، واعتقل في دار فخر الدِّين إبراهيم بن لقمان؛ كاتب الإنشاء، ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظَّمي[٦]؛ أحد خُدَّام المعظم تورانشاه[٧].

وسيِّرتِ البشائرُ بهذا النصر ِالعظيم إلى مصر والقاهرة وسائر البلاد[٨].

وطلب المعظم من الملك لويس، وهو في حبسه، بألا يتنازل فحسب عن دمياط، بل عن كل ما للصَّليبيين في بلاد الشَّام. فأجابه لويس بأن هذه البلاد تخصُّ الملك كنراد بن الإمبراطور فردريك الثاني، وما من أحد غيره يستطيع أن يتخلى عنها. فبادر إلى إغفال هذا الاقتراح، وألزمه أن يفتدي نفسه بمبلغ ضخم، فوافق الملك لويس[٩].

ورحل المعظم والعساكر[١٠]، ومعه الملك لويس[١١] من المنصورة باتجاه دمياط، ونزل بفاسكور، وأقيم مخيمه فيها، ونُصب له إلى جانبه برجٌ من خشب، كان يصعد إليه في بعض الأوقات[١٢] للهوه[١٣].

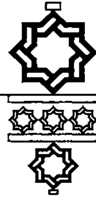
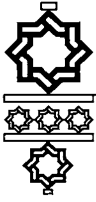
---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٥).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٢٤).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٦).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٤).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٢٤).
(٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٦).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١٢٤).
(٨) مفرج الكروب (٦/ ١٢٦).
(٩) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٧).
(١٠) مفرج الكروب (٦/ ١٢٦).
(١١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٦٧).
(١٢) مفرج الكروب (٦/ ١٢٦).
(١٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٦).

والغريب حقًّا أن المعظم تورانشاه تراخى عن قصد دمياط، ولو أسرع الوصول إليها، والنزول عليها، وطلب تسليمها والملك لويس التاسع في قبضته لحصل له ذلك في أقرب الأوقات[1].



(١) مفرج الكروب (٦/١٢٦ ـ ١٢٧).

مقتل المعظم تورانشاه
وبداية حكم المماليك البحرية مصر

- ١ -

بعد الانتصار على الصَّليبيين أخذ المعظم تورانشاه في إبعاد رجال الدَّولة[١]، وإحلال من أتى معه من حصن كيفا محلَّهم[٢]. وكذلك اطَّرح مماليك أبيه البحرية، وخصوصًا مقدَّمهم فارس الدِّين أقطاي[٣]، بل أشيع عنه أنه يريد إرساله إلى الموصل، وقتله هناك[٤].

وكانت شجرُ الدُّرِّ لما وصل تورانشاه إلى القُدْس قد مضت إلى القاهرة[٥]، فبعث إليها يتهدَّدُها، ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر. فداخلها خوفٌ منه، لما بدا منه من الهَوَج والخِفَّة، وكاتبتِ المماليك البحرية بما فَعَلَتْه في حقه؛ من تمهيد الدَّولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلَّم المملكة، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها. فغضبوا لها، وحنقوا من أفعاله[٦].

وكان المعظم قد وعد فارس الدِّين أقطاي بأن يُقطعه الإسكندرية، فلم يفِ له بذلك ولا أرضاه[٧]. فتنكَّر له أقطاي، وكتم الشَّر[٨]، وكان يرجو منه أن يكون أقربَ النَّاس إليه لِمَا قاساه من المشاقِّ الشَّديدة في طريقه من

---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٨).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٩).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٢٧).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٢٨).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٧).
(٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٨).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١٢٧).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٨).

حصن كيفا حتى أوصله إلى المنصورة[١]. فحرَّك كتاب شجر الدُّرِّ منه ما كان ساكنًا[٢].

وكان قد نُمي إلى المماليك البحرية أنَّه إذا سَكِرَ في الليل جمع ما بين يديه من الشَّمْع، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تتقطع، ويقول: هكذا أفعل بالبحرية. ويسمي كلَّ واحدٍ منهم باسمه. فزادهم نفورًا منه، واتفقوا على قتله[٣].

فلما كان بُكْرة يوم الإثنين ٢٨ المحرم سنة ٦٤٨هـ/ ٣ أيار ١٢٥٠م[٤] مُدَّ السِّماط العام كالعادة، وأكل الناس، ومعهم المعظم تورانشاه، ولما انتهوا وتفرَّق الأمراء إلى خيامهم، ونهض المعظم من مجلسه إلى خيمةٍ له ليختلي بنفسه، دخل عليه ركن الدين بيبرس البُنْدُقداري، وجذب سيفه، وضربه به، فوقعتِ الضربة بين إصبعين من أصابع المعظم، فجرحته جُرْحًا خفيفًا. ورمى ركن الدِّين بيبرس السَّيف من يده رُعْبًا وهرب، ورجع المعظم إلى مجلسه، واجتمع بين يديه أصحابه والبحرية، فقالوا: أي شيء جرى؟ فقال: جرحني بعض البحرية. فقال له بعضهم: ربما فعل هذا بعضُ الإسماعيلية. فقال: ما فعل بي هذا إلا البحرية[٥]، والله لا أبقيت منهم بقية[٦]. فخافتِ البحرية منه حينئذٍ واستشعروا. ثم قام المعظم، وصَعِدَ برج الخشب، وأحضر الطبيب ليداوي يده[٧]، وهو يتوعَّدُهم[٨]. فاجتمعتِ البحرية، ومقدَّمهم فارس الدِّين أقطاي، وخافوا منه على أنفسهم[٩]، وأشار بعضهم بإتمام الأمر فيه، وقال: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها. فركبوا

---

(١) مفرج الكروب (٦/ ١٢٩).
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٨).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٥٩).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٣)، ومفرج الكروب (٦/ ١٢٨).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٢٨).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٧).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١٢٩).
(٨) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٧).
(٩) مفرج الكروب (٦/ ١٢٩).

وتسلَّحوا، وأحاطوا بخيمته وبرجه الخشب[١]. ففتح المعظَّم طاقات البرج، واستغاث بالنَّاس، فلم يُجبه أحد، ولم يأتِ أحدٌ من الأمراء لنُصْرته؛ لأن الجميع كانت قلوبهم نافرة منه، وأيضًا خافوا على أنفسهم؛ لأنَّ المماليك البحرية كانوا مستعدِّين، ولهم قوة، وهم في غاية الشجاعة[٢]. فاستغاث المعظم برسول الخليفة، وكان في المعسكر، فركب، وكلَّمهم فيه، فردُّوه، وخوَّفوه من القتل، وخَرْق حُرْمة الخلافة[٣]، فرجع إلى خيمته.

ثم أحضروا نارًا[٤]، وأمروا زَرَّاقًا بإحراق البُرْج، فامتنع، فضُربت عنقه، ثم أمروا زراقًا آخر، فرمى البرج بنِفْطٍ، فأحرقه، فخرج المعظم من بابه، وناشدهم الله في الكَفِّ عنه، والإقلاع عما نقموا عليه، وطلب تخلية سبيله[٥]. فناداه فارسُ الدِّين: انزل، فما عليك بأس. وتوعَّدوه بالقتل إن لم ينزل، فنزل من البُرْج، فاعتنقه فارس الدِّين أقطاي، فاستجار به المعظم، وقال: الذي وعدتُك به من إقطاعك الإسكندرية أنا مقيمٌ عليه، وأفعل معك ما تريد. فلم يثق بقوله، وقصده حينئذٍ ركن الدِّين بيبرس مرة ثانية، وبيده السيف، فركض المعظم هاربًا نحو النيل، وفيه مراكبُ ليعتصم بها[٦]، وهو يقول: ما أريد مُلْكًا، دعوني أرجع إلى الحصن، يا مسلمين ما فيكم من يصطنعني ويجيرني؟ وجميع العسكر واقفون، فلم يجبه أحد[٧]. ودخل في النيل إلى أن وصل الماء إلى حَلْقه، فرجع، فضربه بيبرس بالسَّيف، فوقع في الماء، فضربه بالسيف ضربة على عاتقه، فنزل السيف من تحت إبط اليد الأخرى، فوقع مَيْتًا. ورُمي في جُرْف على حافَةِ النِّيل، ورُدم عليه التراب، وبقي هناك حتى ليلة الأربعاء[٨]، وقد انتفخ، ولم يتجاسر أحدٌ على دفنه

---

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٥). (٢) مفرج الكروب (٦/ ١٢٩).
(٣) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٥ ـ ٩٦).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٢٩). (٥) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٥).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٢٩ ـ ١٣٠). (٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٠).
(٨) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٥ ـ ٩٦).

حتى شفع فيه رسول الخليفة[١]. فنقل إلى الجانب الآخر من النيل مجرورًا بطرف ثوبه في الماء بصِنَّارة إلى أن عدِّي به، فحُفر له في الرَّمل، ودُفن، وغُيِّب قبره[٢]، ولم يستكملِ الثَّلاثين من عمره[٣].

ولما فُرِغ من قتله نادى المماليك: لا بأس، النَّاس على ما هم عليه، إنما كانت حاجة فقضيناها[٤].

وبقتل المعظم تورانشاه انقرضت دولة بني أيوب في مِصْر، وكانت مُدَّتها إحدى وثمانين سنة[٥].

ـ ٢ ـ

واجتمع الأمراءُ والمماليك البحرية، وأعيانُ الدَّولة وأهل المشورة في فاسكور، واتفقوا على إقامة شجر الدُّرِّ أم خليل؛ جارية الصَّالح أيوب في مملكة مصر[٦]، وعزِّ الدِّين أيبك التُّرْكماني الصَّالحي[٧]؛ أحد المماليك البحرية على أتابكية العسكر[٨].

ورحل الأمير عز الدين الرُّومي الصَّالحي إلى القاهرة، فصَعِدَ إلى القلعة، وأنهى إلى شجر الدُّرِّ ما جرى الاتفاق عليه، فأعجبها، وصارتِ الأمور كلها بيدها[٩]. وخُطب لها بالسَّلطنة بسائر الدِّيار المصرية[١٠]، ونُقش اسمها على السِّكَّة، ومثاله: المستعصمية الصَّالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين[١١]. وهذا أمرٌ لم نعرف أنه جرى مثله في الإسلام قبل ذلك، على حدِّ تعبير ابن واصل[١٢].

* * *

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٧).
(٢) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٦).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٣٠).
(٤) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٦).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦١).
(٦) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١٣٢).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٢).
(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٢).
(١٠) مفرج الكروب (٦/ ١٣٣).
(١١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٢).
(١٢) مفرج الكروب (٦/ ١٣٣).

ولما استقرَّتِ القاعدة على ذلك شرعوا في الحديث مع الملك الأسير لويس التَّاسع في تسليم دمياط[١]، وأداء نصف ما عليه من المال، مقابل أن يُخلَّى عنه[٢]، على أن يدفع نصفه الثاني عند وصوله إلى عكا[٣].

وأرسل الملك لويس إلى من بدمياط من الصَّليبيين لتسليمها للمسلمين، فسُلِّمت إليهم يوم الجمعة ٣ صفر سنة ٦٤٨هـ/ ٨ أيار ١٢٥٠م[٤]، بعد استيلائهم عليها نحو أحد عشر شهرًا[٥]، فأُفرج عنه ظهر ذلك اليوم[٦]، فانتقل مع نبلائه إليها، وأخذ يلتمس المال اللازم لتسديد القِسْط الأول من الفدية، ولمَّا أنجز تسليمها أبحر هو وأصحابه في مساء ذلك اليوم إلى عكا[٧]. فأقام فيها، ولم يغادرها إلى فرنسة. وما لبث أن جرى الاعتراف به حاكمًا فعليًّا على ما بقي من مملكة بيت المقدس[٨].

ثم بعد أيام رحلتِ العساكر من المنصورة متوجِّهة إلى القاهرة، فدخلوها يوم الخميس ٩ صفر/ ١٤ أيار، وضُربت بها البشائر أيامًا متوالية لنُصْرة المسلمين على الصَّليبيين، واسترجاع ثغر دمياط[٩]. وعمَّتِ البشائر كذلك سائر البلاد الإسلامية[١٠].

وفي يوم الإثنين ١٣ صفر/١٨ أيار خلعتْ شجر الدُّرِّ على الأمراء وأرباب الدَّولة، وأنفقت فيهم الأموال وفي سائر العسكر[١١].

ثم أفرج من بعدُ على من بقي من أصحاب الملك لويس، وسائر الأسرى في مصر، ممن أسر في معركة المنصورة وسواها من أيام العادل

---

(١) المصدر السالف.
(٢) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٣).
(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٧١).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٣٤).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٣).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٣٤).
(٧) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).
(٨) تارخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤).
(٩) مفرج الكروب (٦/ ١٣٥).
(١٠) مفرج الكروب (٦/ ١٣٤).
(١١) مفرج الكروب (٦/ ١٣٦)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٦).

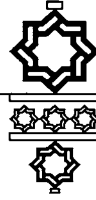
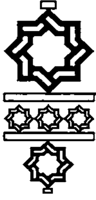
أبي بكر، وابنه الكامل محمد، فساروا إلى البر الغربي، ثم أقلعوا إلى عكا[1].

وودَّعهم جمال الدِّين يحيى بن مطروح بأبياتٍ، يسخر فيها من ملكهم لويس التَّاسع، يقول فيها:

قُلْ للفرنسيس إذا جِئْتَه ... مقالَ نُصْح من قؤول فصيحْ
آجرَكَ اللَّه على ما جرى ... مِنْ قَتْلِ عُبَّادِ يسوعَ المسيحْ
أتيتَ مِصْرًا تبتغي مُلْكَها ... تحسبُ أنَّ الزَّمْرَ يا طبلُ ريحْ
فساقكَ الحَيْنُ إلى أَدْهَمٍ ... ضاقَ به عن ناظِرَيْك الفسيحْ[2]
وكلَّ أصحابكَ أَوْدَعْتَهم ... بحُسْن تدبيركَ بطنَ الضَّريحْ
ألهمَكَ اللَّهُ إلى مِثْلِها ... لعلَّ عيسى منكُمُ يستريحْ
وقُلْ لهمْ إنْ أزمعوا عودةً ... لأَخْذِ ثأرٍ أو لفِعْلٍ قبيحْ
دارُ ابنِ لقمانَ على حالِها ... والقيدُ باقٍ والطَّواشي صبيحْ[3]



(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٣).
(٢) الحين: الهلاك، والأدهم: القيد. ينظر: «لسان العرب» (حين، دهم).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤)، وينظر: «مفرج الكروب» (٦/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

تملك النَّاصر يوسُف بن العزيز دمشق وهزيمته أمام المماليك البحرية

ـ ١ ـ

وغضب ملوك بني أيوب، ومن يواليهم من الأمراء الأكراد لمقتل تورانشاه على هذا الوجه الشَّنيع، وتولِّي شجر الدُّرِّ السَّلْطنة(١).

وكتب الأمراء القيمرية بدمشق ـ وهم أكرادٌ ـ إلى النَّاصر يوسف؛ صاحب حلب، يستدعونه للقدوم عليهم، ليسلِّمُوا له دمشق(٢). ولم يوافقهم على ذلك أمراؤها الأتراك، وقالوا: ما بيننا وبين الملك النَّاصر يوسف إلا السَّيف، وإن جاءنا قاتلناه(٣).

وأصرَّ الأمراء القيمرية على موقفهم(٤)، فخرج النَّاصر يوسف من حلب في عساكره مستهلَّ شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ/ تموز ١٢٥٠م(٥)، ومعه الصَّالح إسماعيل بن العادل(٦)، لأخذ البلاد، والانتقام ممَّن أفسد هذا الأمر، وقَتَل السُّلطان تورانشاه(٧). ونزلت عساكره على داريا يوم السبت ٧ ربيع الآخر/ ٩ تموز، ثم زحفوا يوم الأحد ٨ ربيع الآخر/ ١٠ تموز إلى باب الصَّغير، وكان عليه الأمير ناصر الدِّين القيمري، ففتحَ لهم الباب، فدخلوه.

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٦، ٩٧)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٦).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٣٦، ١٣٧).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٤٧).
(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٦).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٧).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٣، ٤١٤).
(٧) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٧).

ثم دخل النَّاصر يوسف[١] يوم الأربعاء قلعة دمشق[٢]، وقبض على جماعة من أمراء الصَّالح أيوب واعتقلهم، واستقرَّت قدمه في ملك دمشق[٣]. وطيَّب قلوب الناس، ولم يغير على أحد شيئًا[٤].

* * *

واضطرب الأمراء الصَّالحية والمماليك البحرية في القاهرة من الأنباء الواردة من الشَّام[٥]. وأجالوا الرأي فيما بينهم، وقالوا: لا يمكن حفظ البلاد والملك بامرأة، ولا بُدَّ أن يقوم بالمُلْك رجلٌ تجتمع الكلمة عليه[٦]. وكان قد وصل إليهم من بغداد كتابٌ من الخليفة المستعصم بالله يُنكر عليهم تولية امرأة، ويقول: إن كانتِ الرجال قد عَدِمَتْ عندكم، فأعلمونا حتى نسيِّر إليكم رجلًا[٧]. فاتفق رأيهم على أن يُفوَّض الملك إلى عزِّ الدِّين أيبك التركماني[٨]، وكان مشهورًا بينهم بدين وكرم وجودة رأي[٩]. فتزوَّج عزُّ الدِّين أيبك بشجر الدُّرِّ في **٢٩** ربيع الآخر/ **٣١** تموز، وخلعتْ نفسها من مملكة مصر، فكانت مُدَّة دولتها ثمانين يومًا[١٠]، وفُوِّض المُلك إليه، ولُقِّبَ الملك المُعِز[١١].

وأَنِفَ بعضُ المماليك البحرية أن يكون عزُّ الدِّين أيبك هو السُّلطان، منهم فارس الدِّين أقطاي ـ وهو مقدَّمهم وإليه مرجعهم ـ وركن الدِّين بيبرس البُنْدُقداري، فاجتمع الأمراء والبحرية، واتفقوا على أنَّه لا بُدَّ من إقامة شخصٍ في الملك من بني أيوب، يجتمع الكلُّ على طاعته[١٢]، ويطيعه

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٣).
(٢) المذيل على الروضتين (٢/ ٩٧).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٣٧).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٣).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٧).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٤٠).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٨).
(٨) مفرج الكروب (٦/ ١٤٠).
(٩) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٩).
(١٠) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).
(١١) مفرج الكروب (٦/ ١٤٠).
(١٢) مفرج الكروب (٦/ ١٤١).

الملوك من أهله[1]. واتفق رأي المماليك البحرية[2] على إقامة الأشرف مظفر الدِّين موسى بن يوسف بن الملك المسعود يوسف بن الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب[3]، وهو صبيٌّ له من العمر نحو عشر سنين[4]، فأقاموه سُلْطانًا في ٣ جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـ/ ٣ آب ١٢٥٠م على أن يقوم الملك المعز بتدبير الدولة، وليس للأشرف سوى الاسم. وحضر الأمراءُ في خدمته يوم الخميس ٥ جمادى الأولى/ ٥ آب[5]، بعد تمليك المعزِّ بخمسة أيام[6].

* * *

ولخوف المماليك البحرية من قصد الناصر يوسف مصر، رأوا أن يهدموا مدينة دمياط، خشية أن يستغل الصَّليبيون ما قد يحدث عندئذٍ من فوضى في البلاد، ويعاودوا هجومهم عليها. فبعثوا يوم الإثنين ١٧ شعبان سنة ٦٤٨هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١٢٥٠م الصُّنَّاع والفَعَلة والحجَّارين إليها[7]، فأُزيلت أسوارُها، ومُحيتْ آثارها، ولم يبق منها سوى الجامع، وسكن طائفة من ضعفاء الناس في أخصاص على شاطئ النيل من قِبْليها[8]، بعيدة عن البحر[9]، وسموها المنشية، وهي موضع دمياط الآن[10].

ـ ٢ ـ

ومُذْ ملك النَّاصر يوسف دمشق لم يكفَّ مدبِّرُ دولته شمس الدِّين لؤلؤ عن تحريضه للتوجُّه بالعساكر إلى مصر، وتملُّكِها، مسهِّلًا عليه ذلك، قائلًا

---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٩).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٤٢).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٩).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٤٢).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٦٩).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٤٢).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٢).
(٩) مفرج الكروب (٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦).
(١٠) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٢).

له: إنك إذا توجَّهت إلى مصر انفضَّتْ عساكرها إليك كلها، وملكتَ البلاد بغير قتال[1]. ولم يكنِ النَّاصر يوسُف يرى هذا الرأي، بل كان يميلُ إلى مسالمة المماليك البحرية[2]. وألحَّ شمس الدين لؤلؤ بتهوين الأمر عليه، ظنًّا منه أن الأمر سهل، وأن عسكر مصر أكثرهم ينضمُّ إليه، والباقون لا يثبتون في وجهه أصلًا[3]، بل بلغ به استهزاؤه بعساكر مصر أن قال للنَّاصر يوسف ذات يوم: آخذ لك البلاد بمئتين من المخانيث[4]!، وما زال به حتى استجاب أخيرًا له[5].

وخرج النَّاصر يوسف من دمشق يوم الأحد ١٥ رمضان سنة ٦٤٨هـ/ ١١ كانون الأول ١٢٥٠م[6]، ومعه الصَّالح إسماعيل بن العادل[7].

وسار الناصر يوسف يطوي المراحل بالعساكر العظيمة، ومعه مماليكه النَّاصرية، ومماليك أبيه العزيزية - وهم من التُّرْك - وفي قلوب بعضهم وَحْشة من مقدَّم العسكر شمس الدين لؤلؤ، لسوء معاملته لهم[8].

ووصلتْ أخبارُ تحرُّكه إلى مصر، فانزعج الملك المعز ومن معه من المماليك البحرية، وأجمعوا على محاربته، ودفعه عن البلاد، وقبضوا على جماعة من الأمراء اتَّهموهم بالميل إليه.

ووصل الناصر يوسف إلى غزة يوم الأربعاء ٢ شوال/ ٢٨ كانون الأول، واستقرَّ بها، ريثما يتجهز لدخول صحراء سيناء. فتقدم الملك المعز إلى العساكر المصرية بالتهيؤ للحرب. فخرج الأمير فارس الدِّين أقطاي؛ مقدَّم المماليك البحرية في جمهور العساكر، ونزل بالسَّانح في الصَّالحية.

ثم رحل المعز يوم الخميس ٣ ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ/ ٢٧ كانون الثاني ١٢٥١م في بقية العساكر من القاهرة إلى الصَّالحية، فاجتمعتْ عساكر

---

(١) مفرج الكروب (٦/ ١٤٦).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٥٥).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٤٦، ١٥٥).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٤).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٤٦).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٥٤).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٢).
(٨) مفرج الكروب (٦/ ١٥٥ - ١٥٦).

مصر جميعها بها. وكان النَّاصر يوسف قد وصل يوم السبت ٥ ذي القعدة/ ٢٩ كانون الثاني إلى قَطْيا، وفي يوم الإثنين ٧ ذي القعدة/ ٣١ كانون الثاني وصل بعساكره إلى كُراع، وهي قريبة من العبَّاسة[١]، فرحل المعز من الصالحية، ونزل بسموط قُبالة النَّاصر يوسف[٢]، وتقارب ما بين العسكرين. وكان الناس يعتقدون أن النصر إنما هو للنَّاصر يوسف على المماليك البحرية، لكثرة عساكره، ولميل بعض عسكر مصر إليه[٣].

* * *

وفي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ/ ٣ شباط ١٢٥١م تدانى العسكران[٤]، فحملتْ ميمنة عسكر الشَّام هي والميسرة على من بإزائها من عسكر المصريين حملة شديدة، فانكسرت ميسرة المصريين، ووَلَّوْا منهزمين[٥]. وأبعد الشَّاميون خلف المنهزمين حتى وصلوا إلى العبَّاسة[٦]، وهم يظنُّون أن الكسرة تمَّت على المصريين[٧]، ولم يدروا أن ميمنة أهل الشَّام قد انكسرت، وقَتَلَ عسكرُ مصر منها خلقًا كثيرًا، وأسروا أكثر مما قتلوا. وبقي النَّاصر يوسف في كُراع ليس عنده خبرٌ بما يجري، وإنما هو واقف[٨] تحت سناجقه في جمعٍ قليل[٩]، مع خزائنه وأصحابه[١٠].

وكان الملك المعز وفارس الدِّين أقطاي قد انحازا مع نحو سبعين فارسًا إلى جانب، وقد عزموا على الهرب إلى الشَّوْبك، فلما رأوا الناصر يوسف قد بَعُدَتْ عنه عساكره[١١]، حملوا عليه، فولى منهزمًا يريد الشَّام في

---

(١) مفرج الكروب (٦/ ١٥٦ ـ ١٥٨)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٤).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٥٩).
(٣) مفرج الكروب (٦/ ١٥٨)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٤).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٥٩).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٤).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٥٩).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١٦١).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٤).
(٩) مفرج الكروب (٦/ ١٥٩).
(١٠) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٤).
(١١) مفرج الكروب (٦/ ١٥٩).

خاصَّته وغِلْمانه، واستولى المماليك البحرية على سناجقه، وكسروا صناديقه ونهبوا أمواله[١]، وأُسر بعضُ من كان معه، ونجا بعض. وممن أسر وقتئذ الصَّالح إسماعيل بن العادل[٢]. ولم يقف النَّاصر يوسف حتى وصل إلى غزَّة، فأقام ينتظر أصحابه، فوصل إليه من سَلِمَ من عساكره[٣].

ولمَّا علم المماليك العزيزية بهرب النَّاصر يوسف انضمَّ أكثرُهم إلى الملك المعز، مع مقدَّمهم الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي[٤]، لميلهم إلى المماليك البحرية؛ لأنهم أتراكٌ مثلهم، ولكراهيتهم لشمس الدِّين لؤلؤ[٥]، فكثر جمعُ المعزِّ بهم.

وبلغ الأميرَ شمس الدِّين لؤلؤ هربُ النَّاصر يوسف، وهو في جمعٍ من العسكر، ولم يدرِ بهزيمة ميمنة عسكر الشَّام، فقال: ما يضرُّنا هذا بعدَ أن انتصرنا، وهو يعودُ إلينا إذا ملكنا البلاد[٦].

وساق المعزُّ يريد فلول عساكر الشَّام، فوقع على الأمير شمس الدِّين لؤلؤ، فحمل عليه[٧]، فكُسر شمس الدين لؤلؤ، وقُبض عليه، وطُرح بين يدي المعز أيبك[٨]، فقال الأمير حسام الدين للمعز: لا تقتله لنأخذ به الشَّام. فقال فارس الدِّين أقطاي: هذا الذي يأخذ مصر بمئتي مخنث[٩]! فأمر المعز بضرب عنقه. فلم يتكلَّم شمس الدِّين بكلمة، ولا ذلَّ ولا خضع، وبقي مطروحًا لا يرفع رأسه ولا يضطرب حتى أخذته السيوف وقُطِّع[١٠]، وتُرك في العراء قبل أن يوارى[١١]. وأتيَ بالصَّالح إسماعيل بن

---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٥).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٦٠)، وينظر: «السلوك» (ج١/ ق٢/ ٣٧٦).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٦).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٦١).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٥٨).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٦٠).
(٧) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٥).
(٨) مفرج الكروب (٦/ ١٦٠).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٤ ـ ٤١٥).
(١٠) مفرج الكروب (٦/ ١٦٠).
(١١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٨).

العادل، فأوقفه المعز إلى جانبه، وقال للأمير حسام الدِّين: ما تسلم على المولى الملك الصالح؟ فدنا منه حسام الدِّين، وسلَّم عليه[١].

ولما بلغ العسكر الشَّامي المقيم بالعبَّاسة هرب الناصر يوسف، ومقتل شمس الدِّين لؤلؤ، وأَسْر من أُسِرَ من ملوك بني أيوب[٢] ـ وكانوا لا يشكُّون أنهم انتصروا، وأن النَّاصر يوسف قادمٌ عليهم ليسيروا في خدمته إلى القاهرة[٣] ـ اختلفت آراؤهم فيما يعتمدونه[٤]، فهمَّت طائفة منهم أن يسيروا إلى القاهرة، ويستولوا عليها، ومنهم من رأى الرُّجوع إلى الشَّام، ثم اتفقوا على الرُّجوع[٥]، فرجعوا سائرين في الرَّمل أيامًا، وقد تمزَّقوا كل ممزَّق[٦].

* * *

واستيقظتِ القاهرة صباح يوم الجمعة ١١ ذي القعدة/ ٤ شباط على أخبار هزيمة الملك المعز والمماليك البحرية، ووصل إليها من انهزم منهم، ووجوههم كاسفة، فمنهم من اختفى في أَزِقَّتها، ومنهم من هرب إلى الصَّعيد[٧]. فأيقن أهلها حينئذٍ أنَّ النَّاصر يوسف قد ملك الدِّيار المصرية، ولم يشكُّوا في هروب المعز ومن معه[٨]. وكان المماليك قد أساؤوا إليهم، فنهبوا أثقالهم، وارتكبوا كلَّ قبيحٍ، على حدِّ تعبير سبط ابن الجوزي[٩].

وكان أمين الدَّولة أبو الحسن بن غزال السَّامري؛ وزير الصَّالح إسماعيل معتقلًا في جُبِّ قلعة الجبل مع جماعةٍ من أمراء دمشق منذ أيام الصَّالح أيوب[١٠]، فلمَّا بلغهم انكسارُ المماليك خرجوا من الجُبِّ،

(١) مفرج الكروب (٦/ ١٦٠ ـ ١٦١)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٦).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٦١).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٦).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٦١).
(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٦).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٥).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١٦٣).
(٨) مفرج الكروب (٦/ ١٦٣).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٤)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٤).
(١٠) ينظر: (ص ٢٠٣) من هذا الكتاب.

وأظهروا الفرح والاستبشار[١].

وخُطب للنَّاصر يوسف بقلعة الجبل، وكذلك بجامع عمرو بن العاص في الفُسْطاط، أما في القاهرة فلم يقم بجامعها خُطْبة، وتوقفوا لتنكشف لهم حقيقة الأمر، وكان بالجامع الشَّيخ عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام، وهو يومئذٍ مدرِّسٌ بالمدرسة الصَّالحية، فوقف على قدميه، وخطب بجماعة لا يزيدون على أربعين رجلًا خُطْبتين خفيفتين، لم يتعرَّض فيهما لأحدٍ من الملوك، وصلَّى بهم صلاة الجمعة. وباقي النَّاس صلوا الظُّهْر أربعًا[٢].

وما إن انقضت صلاة الجمعة حتى[٣] بدأت تتوارد الأخبار بانتصار المعزِّ والمماليك البحرية، وانهزام النَّاصر يوسف، فضُربتِ البشائر. وقُبض على الوزير أمين الدَّولة، ومن كان معه، وأعيدوا إلى الجُبِّ[٤]، ونُودي في آخر النَّهار في القاهرة والفُسْطاط بإظهار الزِّينة.

وأما الملك المعز ومن معه من المماليك البحرية، ومن انضمَّ إليه من العزيزية، فقد توجَّه إلى القاهرة عن غير طريق العبَّاسة، خوفًا من العسكر الشَّامي بها، ووصل إلى القاهرة بُكْرة السبت ١٢ ذي القعدة/ ٥ شباط[٥]، فدخلها والأسرى بين يديه، والسَّناجق مقلبة والطبول مشققة إلى أن وصل إلى[٦] بين القصرين، فلعبتِ المماليك على خيولهم بالرِّماح، وتطاردوا[٧]، والمعز في الموكب، وإلى جانبه الأمير حسام الدِّين بن أبي علي، وقُدَّامه الصَّالح إسماعيل بن العادل، فعندما وصل إلى تُرْبة الصَّالح أيوب أحدق المماليك البحرية بالصَّالح إسماعيل[٨]، وصاحوا: يا خوند، أين عينك ترى عدوك[٩]؟

---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).
(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٦٣)، السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٧).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٧).
(٤) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٧).
(٥) مفرج الكروب (٦/ ١٦٣).
(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٥).
(٧) مفرج الكروب (٦/ ١٦٣).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨).
(٩) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٥).

ثم ساروا إلى قلعة الجبل، فألقوا الأسرى الشَّاميين في الجِباب[١]، وجمعوا بين الصَّالح إسماعيل وبين أولاده أيامًا[٢]، ثم اعتقل في دارٍ بها.

ولم يغفر المماليك البحرية لمن مال إلى النَّاصر يوسف من أهل الفُسْطاط، فمالوا عليهم قتلًا لرجالهم، ونهبًا لأموالهم، وسبيًا لحريمهم، وبالغوا في الفساد، حتى لو أنَّ الفرنج ملكوا البلاد لَمَا فعلوا فعلهم، على حدِّ تعبير المقريزي[٣].

ثم إنَّ المعز أمر بشنق أمين الدَّولة؛ وزير الصَّالح أيوب، لخروجه من محبسه، وتظاهره بالسُّرور، فعُلِّق على المشنقة بباب قلعة الجبل يوم الإثنين ١٤ ذي القعدة/ ٧ شباط[٤]. وظهر له بعد وفاته من الأموال والتُّحف والجوهر ما لا يوجد مثله إلا عند الخلفاء، ووجد له عشرة آلاف مجلَّدة، كلها بخطوط منسوبة، وكُتُب نفيسة[٥].

وفي ليلة الأحد **٢٧** ذي القعدة/ **٢٠** شباط أُخرج الصَّالحُ إسماعيل بن العادل من داره بالقلعة ليلًا على ضوء المشعل إلى خارج القلعة، فخُنِقَ، ودُفن مكانه[٦]، وله نحو خمسين سنة[٧].

ثم أخرج المعز في **٢٨** ذي القعدة/ **٢١** شباط الأسرى من عساكر النَّاصر يوسف إلى دمشق، وتحقيرًا لهم لم يسمح لهم إلا بركوب الحمير هم وأتباعهم، وكانوا نحو ثلاثة آلاف[٨].

* * *

---

(١) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٨).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٥).
(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٨٠).
(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٦٦).
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٩)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٨).
(٦) مفرج الكروب (٦/ ١٦٦).
(٧) مولده سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م، وقد استقصيت مصادر ترجمته في تحقيقي لكتاب «المذيل على الروضتين» (٢/ ٩٨).
(٨) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٧٩).

وكان النَّاصر يوسف قد وصل من غزَّة إلى دمشق[1]، وتلاحَقَ به أصحابُه وعسكره، وقد أصابهم الضَّعْف والوَهَن، فأخذ في إصلاح جُنْده وتقوية عسكره[2].

وبدأتِ المراسلات بين النَّاصر يوسف والمماليك البحرية، وامتدَّت نحو سنتين[3]، حتى تقرر الصُّلح أخيرًا بينهما في المحرم سنة **٦٥١**هـ/ آذار **١٢٥٣**م بسِفارة نجم الدِّين البادرائي، وتمَّ الاتفاق على أن يكون للمعز أيبك والمماليك البحرية ديار مصر وغزَّة وبيت المقدس ونابُلُس والسَّاحل كله إلى الأردن، وباقي البلاد الشَّامية تكون للنَّاصر يوسف. وأن يُطْلق المعز جميع من أسره من أصحابه[4]. وعاد المعز أيبك وعسكره إلى القاهرة يوم الثلاثاء **٧** صفر سنة **٦٥١**هـ/ **٨** نيسان **١٢٥٣**م[5].



---

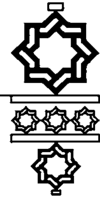
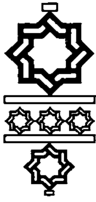
(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤١٩).

(٢) مفرج الكروب (٦/ ١٦٧).

(٣) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٨١).

(٤) مفرج الكروب (٦/ ١٧٥)، والسلوك (ج١/ ق٢/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).

(٥) السلوك (ج١/ ق٢/ ٣٨٦).

سنوات سبط ابن الجوزي الأخيرة في ذَرَى النَّاصر يوسف بن العزيز ووفاته

وهكذا عايش سبط ابن الجوزي بعضَ هذه الأحداث، وراقب بعضها الآخر عن كثب، وسجَّلها بقلمه في كتابه الماتع «مرآة الزَّمان» كما رآها وعايشها. مُنْصفًا في القول أحايين كثيرة، ومجانبًا الصَّواب أحيانًا. كاشفًا بصدقٍ عن مشاعره تجاه مَنْ صاحَبَهم من رجالِ عصره في حالتَيْ المحبَّة والبَغْضاء. مُظْهرًا الشَّماتة أحيانًا فيمن ناله أذاهم، حامدًا الله أنْ أحياه حتى رأى فيهم ما يسرُّه. فيوسف بن يعقوب، الذي وشى به إلى الوزير أمين الدَّولة السَّامري، فأخرجه من دمشق[١]، حبسه من بعدُ الملكُ النَّاصر يوسف بن العزيز، وعاش شُهورًا ومات.

والوزير شُنق، وعجِّل بروحه إلى عذاب السَّعير[٢]، وآل إلى الدَّرْك الأسفل من النَّار، فلا رحم الله تلك العِظام[٣].

ويحيى بن مطروح الذي أوقع بصديقه الأمير عزِّ الدين أيبك المعظَّمي[٤] رأى الذُّلَّ والهوان، ولعب به القدر، ولم يمتْ حتى ذهب بصره[٥].

والصَّالح أيوب بن الكامل الذي اعتقل صديقه حتى مات[٦]، رأى في نفسه العِبَر، وما نفعه الاحتراز والحَذَر، وأذاقه الموتُ كؤوس حتوفه[٧]،

---

(١) تنظر: (ص ١٨٥ ـ ١٨٦) من هذا الكتاب. (٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٧٢).
(٣) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٨٧). (٤) تنظر: (ص ٢١٩) من هذا الكتاب.
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٢).
(٦) تنظر: (ص ٢١٩ ـ ٢٢٠) من هذا الكتاب. (٧) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٧).

فانتثر لحمُه عن عظامه، وارتحل بآثامه[١].

ويغلبه أحيانًا الضِّيق من زمانه، فيبالغ في ذمِّه، فمن رآه لترحَّم على ابن المَرْزُبان الذي فضَّل الكلاب على كثيرٍ ممَّن لبس الثِّياب، على حدِّ تعبيره[٢].

ويُمضي سِبْط ابن الجوزي ما بقي له من سنيِّ عمره في دمشق، في كَنَفِ صاحبها الجديد النَّاصر يوسف بن العزيز، مكبًّا على التَّصنيف، وإسماع مروياته عن شيوخه، وممَّا سُمع منه في منزله بالتُّربة البَدْرية بسفح قاسيون مشيخة جدِّه أبي الفرج ابن الجوزي، بقراءة أبي بكر بن يوسف بن أبي الفرج الحرَّاني، في مجالس آخرها في ١٢ رمضان سنة **٦٤٩هـ/ ٢٩** تشرين الثاني **١٢٥١م**، وحضر مجالس السَّماع هذه ثُلَّة من طلبة العلم[٣].

وكان العُلماء يَسْعَوْن إلى زيارته، وممن زاره في بيته نجم الدِّين علي ابن المؤرِّخ الحسن بن محمد القَيْلُويي البغدادي؛ الذي ذيَّل على تاريخ أبي القاسم السِّمْناني. وكان يتَّجر بالكُتُب ونَسْخِها، فحدَّثه عمَّا نسخ أبوه منها[٤]. ولم يُخْفِ سبط ابن الجوزي إعجابه بكتاب القيلويي، فيعدُّه أحسن التاريخَيْن[٥].

وكان يختلفُ إليه في تلك الأيام المحدِّث الحافظ خالد بن يوسف

---

(١) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٠٢).
(٢) مرآة الزمان (٢٠/ ١٣٠).
وكتاب ابن المرزبان: «تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»، مشهور متداول، وطبع غير ما طبعة.
(٣) مشيخة ابن الجوزي (٣٨ ـ ٣٩، ٤٩).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٣٧)، وتاريخ الإسلام (١٤/ ١٠٣ ـ ١٠٤).
وتاريخ أبي القاسم علي بن محمد السمناني هو «الاستظهار في معرفة الدول والأخبار»، فذيل عليه الحسن بن محمد القيلويي تاريخًا كبيرًا، ورتبه على الشهور، ونقل عنه أبو شامة في «كتاب الروضتين» (٤/ ٤٨٢)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٣٦)، وكلا التاريخين لمَّا يصلا إلينا.
(٥) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٣٧).

النَّابُلُسي الدِّمشقي، فأحضر إليه ذات يوم جُزْءًا بخط جدِّه أبي الفرج في «فضائل عاشوراء»[1]، يتحفه فيه. وكان خالد على إلمامه بالحديث واللغة قد حصَّل أصولًا نفيسة[2].

وسُئل سبط ابن الجوزي مرَّة يوم عاشوراء أن يذكر للنَّاس شيئًا في مقتل الحسين رضي الله عنه، فصَعِدَ المنبر، وجلس طويلًا لا يتكلَّم، ثم وضع المنديل على وجهه، وبكى بكاء شديدًا، ثم أنشأ يقول متمثِّلًا وهو يبكي:

ويلٌ لمن شُفَعاؤه خُصَماؤُه … والصُّور في نَشْرِ الخلائقِ يُنفخُ
لا بُدَّ أن تَرِدَ القيامةَ فاطمٌ … وقميصُها بدمِ الحُسينِ مُلَطَّخُ

ثم نزل عن المنبر وهو يبكي، وصعد إلى الصَّالحية ودموعه تتحدَّر على خَدَّيْه[3].

وكان ينعى في قتله على أهل العراق، قائلًا: «لا ذنبَ لأهل الشَّام في قصة الحسين عليه السلام، فإنَّه ما شهد قتلَه منهم أحدٌ، وإنَّما قتله أهلُ العراق، أهل الشِّقاق والنِّفاق»[4].

وترك لنا معاصره أبو شامة وصفًا لحاله في تلك السَّنوات، فيقول: «وكان مسكنه يومئذٍ بالتُّرْبة البدرية، ولزم في آخر عمره سنين كثيرة ركوب الحِمار، طالعًا عليه إلى منزله بالجبل، ونازلًا عليه إلى مدرسته العِزِّية بالشَّرف الشَّمالي[5]، وإلى غير ذلك. مقتصدًا في لباسه، مواظبًا على

---

(١) مرآة الزمان (٦/ ٤٨٥).
(٢) طبقات علماء الحديث (٤/ ٢٣٤)، وينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٣) البداية والنهاية (١٥/ ٣٠٣)، وعقد الجمان (١٣٤ ـ ١٣٥)، وينظر: «تذكرة الخواص» (٢٧٤).
(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ١٠٧)، وينظر: «تذكرة الخواص» (٢٨٣)، و(ص ١٨٩) من هذا الكتاب.
(٥) وهي المدرسة العزية البرانية، تنظر: الحاشية رقم ٩ (ص ٢١٨) من هذا الكتاب.

المطالعة والاشتغال، والجمع والتصنيف، مُنْصفًا لأهل العلم والفَضْل، مباينًا لأولي الجبرية والجهل. وتأتي الملوكُ وأربابُ الدول إليه زائرين وقاصدين»[١]، «مقتصرًا في مجالس وعظه في جامع دمشق على الأشهر الثَّلاثة: رجب وشعبان ورمضان كلَّ سبت»[٢].

ويبدو أنَّه في آخر سنة من عمره انقطع بمنزله بالتربة البدرية، فلم يبارحه[٣]، لتشويش مزاج عَرَضَ له، على حدِّ تعبيره[٤]. حتى إن الناصر يوسف حين حضر في أوائل سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م مع الأمراء والقضاة والفقهاء لافتتاح المدرسة الناصرية الكبرى؛ التي أنشأها بباب الفراديس[٥]، لم يتخلف عن الحضور أحدٌ غيره، فبعث إليه الناصر يسأله الحضور، فاعتذر بسبب ذلك[٦].

ويبدو أنَّ تشويش المزاج هذا كان بداية مرض استبدَّ به، فظل يغالبه حتى جمادى الآخرة من تلك السنة، حين خط بقلمه في ذلك الشَّهر آخر خبر في تاريخه «مرآة الزمان»[٧]، ليتوقف بعده عن الكتابة حتى وفاته ليلة الثلاثاء **٢١** ذي الحجة سنة **٦٥٤**هـ/ **٩** كانون الثاني **١٢٥٧**م[٨]، في مسكنه بالتربة البدرية[٩]، عن نحو ثلاثٍ وسبعين سنة[١٠].

---

(١) المذيل على الروضتين (٢/ ١١٧). (٢) المذيل على الروضتين (١/ ١٦١).

(٣) المذيل على الروضتين (١/ ١٦١)، وينظر: «البداية والنهاية» (١٥/ ٣٠٢).

(٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٢٧).

(٥) درست آثارها، ولم يبق منها إلا جدارها الشمالي، وكانت تقع داخل باب العمارة الجوانية. ينظر: «منادمة الأطلال» (١٤٩).

(٦) مرآة الزمان (٢٢/ ٤٢٧). (٧) المصدر السالف.

(٨) المذيل على الروضتين (٢/ ١١٧)، وذكر ابن واصل وأبو الفداء وفاته سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ووهما في ذلك، واستراح إلى وهمهما محقق «مفرج الكروب»، فتابعهما عليه. ينظر: «مفرج الكروب» (٦/ ٢٥٠، ٢٥١)، و«المختصر في أخبار البشر» (٣/ ١٩٧).

(٩) البداية والنهاية (١٥/ ٣٠٢). (١٠) المذيل على الروضتين (٢/ ١١٧).

وفي غد ذلك اليوم[١] تخرج دمشق لتشييعه، محمولًا على الأصابع[٢]، مع سُلْطانها النَّاصر يوسف وأعيانها وأمرائها وفقهائها[٣]، فيُصلَّى عليه في جامع الحنابلة[٤]، ويُدفن بتربته بجبل قاسيون[٥].

ويرثيه شهاب الدِّين أحمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف، الخزرجي الدِّمشقي[٦] بأبياتٍ ارتجلها:

ذَهَبَ المؤرِّخ وانقضتْ أيَّامُهُ ... فتكدَّرَتْ من بعده الأيَّامُ

قد كان شمسُ الدِّين نورًا هاديًا ... فقضى فعمَّ الكائناتِ ظلامُ

كم قد أتى في وعظه بفضائلٍ ... في حُسْنها تتحيَّر الأفهامُ

حَزِنَ العراقُ لفقده وتأسَّفتْ ... مِصْرٌ وناحَ أسىً عليه الشَّامُ

فَسَقَى ثرًى واراه صوبُ غَمامةٍ ... وتعاهدَتْه تحيةٌ وسلامُ[٧]

وكان معاصره المؤرِّخ أبو شامة من قِلَّة قليلة تخلَّفتْ عن حضور جنازته، لمرضٍ اعتراه[٨]. ولم يكن على صلةٍ به، على ما يجمع بينهما من

---

(١) صلة التكملة (١/ ٣٤١).

(٢) المختار من تاريخ ابن الجزري (٢٤٠).

(٣) المذيل على الروضتين (٢/ ١١٧).

(٤) الجواهر المضية (٣/ ٦٣٤).

(٥) المذيل على الروضتين (٢/ ١١٧).
ولا نعلم من أولاد سبط ابن الجوزي بعد وفاته سوى ابنه عز الدين عبد العزيز، وكان قد درَّس مكان أبيه بالمدرسة العزية البرانية، وتوفي سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م، ودفن في مقبرة أبويه بجبل قاسيون. ينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ١٧٧)، وفيه تتمة مصادر ترجمته.
وخلف عز الدين ولدًا صغيرًا، فلم يكن له من يربيه، ويقوم بأمره، فنشأ على غير طريقة سلفه. ينظر: «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٣).

(٦) الوافي بالوفيات (٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٧) تاريخ علماء بغداد (١٩١ ـ ١٩٢)، وعقد الجمان (١٣٥).

(٨) المذيل على الروضتين (٢/ ١١٧).

حبِّ التاريخ وتدوينه، لتباين مشربيهما في الحياة، بين القُرْب من السُّلطان والنأي عنه[1]. ولم يُجمجم أبو شامة رأيه فيه، فقصَّ علينا حُلُمًا رآه ليلة وفاته، يعبِّر به عما في نفسه، فقال: «ورأيت موته منامًا تلك الليلة قبل أن أسمع به يقظة إلا أني رأيته في حالة مُنْكرة، ورآه غيري أيضًا كذلك، نسأل الله العافية»[2].

ولئن أنكر بعضُ من عاصره شيئًا من أفعاله في حياته، إنَّ الموت كان به رحيمًا، فقد جنَّبه رؤية مدينته بغداد بعد نحو سنة من وفاته[3] وقد استباحها التَّاتار، وأَفْنَوْا أهلها بين قتيلٍ وأسير[4]، وكان من قتلاهم صديق عمره خاله محيي الدِّين يوسف؛ أستاذ الدار، والخليفة المستعصم بالله[5].

فأغفى إغفاءته الأخيرة وهو يعتقد، كسائر معاصريه، أن الخلافة في بني العبَّاس باقيةٌ إلى يوم القيامة[6].



(١) ينظر كتابي «أبو شامة مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين» (٣٨).

(٢) المذيل على الروضتين (٢/ ١١٧).

(٣) استولى التاتار على بغداد في المحرم سنة ٦٥٦هـ/ كانون الثاني ١٢٥٨م. ينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ١٢٤).

(٤) ينظر: «الحوادث الجامعة» (١٥٦ ـ ١٥٩).

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٨١، ٣٧٤).

(٦) مرآة الزمان (١٠/ ٤٤٣)، وينظر: «تاريخ مختصر الدول» (٢٧٠).



مؤلفاته

في حياته الحافلة وجد سبط ابن الجوزي أوقاتًا اختلسها للتوفُّرِ على تآليفه، وقد وُصفتْ بأنَّها حسنة مفيدة[1]، ولعلَّ أهمها تاريخه الذي سمَّاه «مرآة الزَّمان في تواريخ الأعيان»، وسأتلبَّثُ عنده قليلًا، ثم أُجْمِلُ الكلام في سائر مؤلفاته الأخرى.

«مرآة الزَّمان»

لله دَرُّ التَّاريخ[2]، بهذه العبارة المُفْعمة بنشوة الغِبْطة يعبِّر سبط ابن الجوزي عن ولعه بهذا الفنِّ الجميل؛ فنِّ التَّاريخ، وبشفافية شاعرٍ حقًّا، لا تستغربُ من واعظٍ موهوب، يختارُ لكتابه عنوانًا رائعًا؛ «مرآة الزَّمان»، تاركًا لخيالكَ أن يسافر عبر الزَّمن لترى في مرآته ما كان يراه.

وبعبارته هذه اختصر سبط ابنُ الجوزي أشواق الإنسان للتاريخ على اختلاف انتماءاته وعصوره. ثم علَّلَ ما أجمله بقوله: لأن «الفِطَر السَّليمة، والفِكَر المستقيمة، تستشرفُ إلى معرفة البدايات، وتشرئبُّ إلى إدراك المنشآت. ومن تدبَّر مجاري الأقدار، ومبادي الليل والنَّهار، صار كأنَّه عاصر تلك العصور، وباشر تلك الأمور»[3]، ولذلك مال النَّاس «إلى سماع أنباءِ الأنبياء، والخُلفَاء والملوك والوزراء، والأدباء والشُّعراء.. وإلى النظر في سِيَر الفُضلاء والزُّهَّاد والعُبَّاد والصُلحاء»، بيد أن «الغالب على التواريخ جمع الغثِّ والسَّمين، والواهي والمتين، والتكرار الخالي

(١) ذيل مرآة الزمان (١/ ٤٢)، وصلة التكملة (١/ ٣٤١).
(٢) مرآة الزمان (٢/ ٢٧٥).
(٣) مرآة الزمان (١/ ٥).

عن الفوائد والفرائد»[1].

لذا رأى أن يؤلف هذا التاريخ، مقدِّمًا له بفصول خمسة تكون لتقرير قواعده كالأصول، وهي:

الفصل الأول: في معرفة التأريخ، وهل فرَّقتِ العربُ بينه وبين التوريخ.

الفصل الثاني: في عيون التَّواريخ والآثار وأسانيد الأخبار.

الفصل الثَّالث: في انقضاء مُدَّة العالم وما تقدَّم من السنين وتقادم.

الفصل الرابع: فيما ينبغي للمؤلف استعماله من الكلام المتَّسق النِّظام.

الفصل الخامس: في تراجم الأبواب[2].

ثم يشرع بعد ذلك بسرد الوقائع عبر العصور، مفتتحًا لها بسيرة نبينا محمد ﷺ، مُسْلسلًا حوادثها على الترتيب الحولي في كلِّ عام، ويترجم لمن توفي فيه من الأعيان والأعلام[3]. منزِّهًا كتابه ـ كما ذكر ـ عن «الخرافات التي ما تُسْمع إلا من العُمْيان في الطُّرقات»[4]. متسائلًا: «هل وُضعتِ التَّواريخ إلا لتميِّز بين الصَّحيح والسَّقيم، والسَّالم والسليم؟»[5].

ويبدو أنَّه ساق كثيرًا من أخباره بأسانيده عن شيوخه، كصنيعه في سائر مؤلفاته، وسمَّاه «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ليكون اسمًا يوافق مسمَّاه، ولفظًا يطابق معناه»[6].

وكان سبط ابن الجوزي أمينًا لمنهجه الذي اختطَّه، فأكبَّ على تأليف

---

(١) مرآة الزمان (١/ ٦).

(٢) مرآة الزمان (١/ ٧).

(٣) مرآة الزمان (١/ ٦).

(٤) مرآة الزمان (١٤/ ٧٦).

(٥) مرآة الزمان (١/ ٢٧٩).

(٦) مرآة الزمان (١/ ٦).
وانفرد أبو المعالي السلامي بتسميته: «مرآة الزمان في وفيات الفضلاء والأعيان». ينظر: «تاريخ علماء بغداد» (١٩١).

كتابه من أول فصل فيه، وعنوانه «في معرفة التاريخ»[١]، وحتى آخر خبر خطَّه قُبيل وفاته، حين ألَمَّ به مرضٌ حال بين قلمه وأوراقه[٢]. فبلغتْ مجلَّداته بخطِّه نحو أربعين مجلدًا[٣].

ويبدو أن طوله حال دون تعدُّدِ نُسَخِه، فاقتصرتِ الاستفادة منه بين معاصريه على نسخته التي بخطِّه، الموقوفة بدمشق[٤]، حتى نَهَدَ لاختصاره إلى نحو نصفه ابنُ صديقه قطبُ الدِّين موسى ابن الفقيه الحنبلي محمد بن أحمد بن عبد الله اليُونيني[٥] البَعْلَبكي، المتوفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م[٦]، حاذفًا منه في جُمْلة ما حذف أسانيد سِبْط ابن الجوزي عن شيوخه، ثم ذيَّل عليه من سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، إلى ما قبيل وفاته[٧].

وصدَّر ذيله بمقدِّمةٍ ذكر فيها باعثه على اختصاره، فقال: «فإنَّه لما كانتِ الأذهان مصروفة إلى معرفة أخبار من مضى، والاطلاع على أحوال

---

(١) مرآة الزمان (١/ ٩ ـ ١٤). (٢) ينظر: (ص ٢٦١) من هذا الكتاب.

(٣) وفيات الأعيان (٣/ ١٤٢، ٦/ ٢٣٩، ٣٥٣)، وذكر قطب الدين اليونيني أنه في سبعة وثلاثين مجلدًا. ينظر: «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٢).

(٤) ممن استفاد منها من معاصريه أبو شامة في «المذيل على الروضتين» (١/ ٩٨)، وابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٣/ ١٥٤، ٦/ ٢٣٩).

(٥) ينظر: (ص ٢١٧) من هذا الكتاب.

(٦) ينظر: «معجم الشيوخ» للذهبي (٢/ ٣٤٨)، و«البداية والنهاية» (١٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، و«الدرر الكامنة» (٤/ ٣٨٢)، و«الدليل الشافي» (٢/ ٧٥٢)، و«الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ» (ص٦٧٢).

(٧) ذيل مرآة الزمان (١/ ٤٢)، وتاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨)، ومعجم الشيوخ للذهبي (٢/ ٣٤٨)، والبداية والنهاية (١٦/ ١٩٥).

طبعت منه دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن أربعة أجزاء، تشتمل على الوقائع من سنة ٦٥٤هـ/ إلى سنة ٦٨٦هـ، وذلك سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، وأصدرت هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، تاريخ السنوات ٦٩٧ ـ ٧١١هـ، دراسة وتحقيق الدكتور حمزة عباس، وذلك سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، وهي آخر ما عثر عليه منه.

من قضى الله له بما قضى، ليستفاد بذلك من سيرة الطِّراز الأول، والوقوف عند نصِّ أحاديثهم التي بها يُعتبر وعليها يُعوَّل، صنَّف النَّاس في ذلك كُتُبًا، وساروا بأفكارهم فجلبوا من أخبار الأمم حطبًا وذهبًا. ولمَّا وقفتُ على بعض ما نصُّوه، وتأمَّلتُ ما أنبؤوا به عن السَّالفين وقصُّوه، رأيتُ أجمعَها مَقْصِدًا، وأعذبَها موردًا، وأحسنها بيانًا، وأصحَّها رواية، يكاد خبرها يكون عِيانًا، الكتاب المعروف بمرآة الزَّمان، تأليف الشيخ الإمام شمس الدِّين أبي المُظَفَّر يوسُف سِبْطِ الإمام جمال الدِّين عبد الرحمٰن ابن الجوزي، الذي ضمَّنه ما علا قدره على كلِّ نبيه، وفاق به على من يناويه، فشرعتُ في اختصاره، وأخذتُ في اقتصاره»[1].

ودلَّل اليونيني على هذا الاختصار بقوله أحيانًا: قال المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ[2]. ومن معالمه كذلك إسقاطه بعض تراجمه[3]، وتصريحه بتلخيصه بعض أخباره[4]، واختصاره لتعليقاته[5]، وأحيانًا بتعقيبه عليها[6]، وبحذفه لبعض الأشعار لشعراء مشهورين، لم ير فائدة في إيرادها لشهرتها[7].

ولم يقفِ اليونيني عند اختصاره، بل تعدَّاه إلى إضافاتٍ يسيرة يزيدُها عليه، يصرِّح في بعضها بنقلها من «وَفَيات الأعيان» لابن خَلِّكان[8]، وبعضها من كتاب «التَّاريخ الباهر» لابن الأثير[9]، ومن «النَّوادر السُّلْطانية» لابن

---

(١) ذيل مرآة الزمان (١/ ٢).

(٢) ينظر على سبيل المثال: «مرآة الزمان» (٢/ ٣٢٢، ٣/ ١١٥، ١٤٦، ٤/ ٧٦، ١٣٤، ٢٤٠، ٢٤٤، ٣٠٩).

(٣) ينظر على سبيل المثال إسقاطه ترجمة الشيخ علي المعروف بالحريري، المتوفى سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م. ينظر: «المذيل على الروضتين» (٢/ ٨٣ ـ ٨٤)، وتعليقي ثمة.

(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٦٨).

(٥) مرآة الزمان (٩/ ٣٨٤، ١٩/ ٤٢١).

(٦) مرآة الزمان (١٣/ ٤٠٨، ١٩/ ٤٢١).

(٧) مرآة الزمان (١٧/ ٣٧١).

(٨) مرآة الزمان (١٧/ ٣٨٥، ١٨/ ١٢٩، ٢١/ ٦٨، ١٩٦، ٢٠٢، ٣٩٧، ٤٠٠، ٢٢/ ٦٣، ٧٧).

(٩) مرآة الزمان (٢١/ ٧٠).

شدَّاد[١]، ويغفل بعضها الآخر[٢]، بل نراه أحيانًا يزيد ترجمة عَلَم من المشاهير؛ لأن سبط ابن الجوزي لم يترجم له[٣]، ويعتبُ عليه لأنَّه قصَّر في بعضها الآخر، ويستدرك عليه ما فاته منها على زعمه[٤]، ولعلَّ من أهمِّ زياداته تلك الرِّسالة المطوَّلة من الخليفة النَّاصر لدين الله إلى السُّلطان صلاح الدِّين يوسف بن أيوب، وجواب صلاح الدِّين عنها، وذلك بُعيد فتح بيت المقدس[٥].

وساهم اختصار قطبِ الدِّين اليونيني له بضياع أصلِ الكتاب، وشيوع المختصَر، وهو ما استفاد منه على الأرجح ابنُ كثير في «البداية والنهاية»[٦]، وابن تغري بردي في «النُّجوم الزَّاهرة»[٧]، وغيرهما من المؤرخين المتأخرين[٨].

وهذا المختصر هو الذي بين أيدينا الآن على اختلاف نُسَخه، ولا سيَّما نُسْختي العلائي وأحمد الثَّالث، وهما من أتمِّها. ومن مِنَن الله عليَّ - وهي لا تُحصى - أني أوَّلُ من وقف على ذلك من المحقِّقين والباحثين الذين سبقتْ لهم العناية بهذا الكتاب[٩]. وعلى اختصار اليونيني له سيكون استعراضي لأهمِّ موضوعاته وفصوله.

* * *

---

(١) مرآة الزمان (٢١/ ٤٠٠).

(٢) مرآة الزمان (١٢/ ٢٠٣، ٢٠/ ٣٣١ - ٣٣٢، ٢١/ ٣٩٨ - ٤٠٠).

(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٣٢ - ٣٥، ١٩٦ - ٢٠٢).

(٤) مرآة الزمان (٢١/ ٧٩ - ١٣٠).

(٥) مرآة الزمان (٢١/ ٣٢٥ - ٣٤٣، ٢٢/ ٦٧).

(٦) البداية والنهاية (١٥/ ٣٠١).

(٧) النجوم الزاهرة (٥/ ٢٩٣، ٧/ ٣٩)، وقد نقل في الموضع الأول قصيدة منه، ثم قال في آخرها: وقد نقلتها من خط عَقِدٍ لا يُقرأ إلا بجُهد. وكأنه يصف بذلك خط اليونيني، ولو كان خط السبط لصرَّح بذلك، والله أعلم. ثم إنَّ ما جاء فيه مما صرَّح بنقله من «المرآة» يتوافق مع ما في نسختي العلائي وأحمد الثالث.

(٨) ينظر: «مفتاح السعادة» (١/ ٢٣٥).

(٩) ولعلَّ الدكتور شاكر مصطفى هو أول من تنبَّه إلى أن طبعة حيدر آباد منه هو =

لـم يلتزم قطب الدِّين اليونيني في اختصاره بإيراد كلٍّ ما ورد في الفصول الخمسة التي قدَّم بها سبط ابن الجوزي لتاريخه، بل اختار منها اثنين، الفصل الأول في معرفة التاريخ، وهل فرَّقت العربُ بينه وبين التوريخ[1]، ثم قفز إلى الفصل الثالث في انقضاء مُدَّة العالم وما تقدَّم من

= المختصر، بيد أنه جزم أن ثمة نسخة كاملة من «المرآة» في مكتبة أحمد الثالث بإستانبول، وذلك في كتابه «التاريخ العربي والمؤرخون» (٢/ ٢٦٢).

وأطال الوقوف عند هذه المسألة الدكتور مسفر بن سالم الغامدي في مقدمة ما حققه من سنواته، ثم جزم كذلك أن نسخة أحمد الثالث هي النسخة الكاملة منه لا المختصرة، متابعًا في ذلك الدكتور علي سويم، معلِّلًا تعقيبات اليونيني على بعض أخباره بأنها من تعليقات قارئ للكتاب. ينظر تحقيقه للمرآة (١/ ١٠٦، ١٠٨، ١٢٢)، وستأتي الإشارة إلى طبعته (ص ٢٨٠) من هذا الكتاب.

ثم إن ما أشير إلى اختصاره في حواشي تحقيق طبعة الرسالة إنما كان بتوجيه مني. وقد ضرب عنها صفحًا كاتب مقدِّمتها، فقال: «ليس للكتاب نسخة خطية كاملة وسليمة، وإنما هي أجزاء متفرقة من نسخ متعددة. وبعضها كان أجزاء من مختصر اليونيني»!. ينظر: «مرآة الزمان» (١/ (٨، ١٣).

ولعل سائلًا يسأل: ما دام ما بين أيدينا من «مرآة الزمان»، هو مختصر اليونيني، فلِمَ لمْ نطلق عليه «مختصر مرآة الزمان»؟ وقد أجبت عن ذلك في مقدَّمتي الموجزة التي صدَّرتُ بها تحقيقي لجزئه العشرين، وملخصها أن الاعتماد في تحقيقه كان على عِدَّة نُسخ منه، أتمُّها نسختا العلائي وأحمد الثالث، وهما من اختصار اليونيني، وبعضها من اختصار غيره، وقد أشير إلى رموزها في الحواشي. ورغبة مني في إخراج نص من «المرآة» أقرب ما يكون إلى الأصل الذي تركه مؤلفه، آثرت تسميته «مرآة الزمان»؛ لأنه لا يمكن نسبة الكتاب إلى اليونيني، للزيادة التي أضيفت من غيره. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٠/أ ـ ب).

فليُقبل مني ما قمتُ به على أنَّه الصُّورة الأتمُّ لما وصل إلينا من «المرآة»، ونُسْبَتُه إلى سبط ابن الجوزي هي نسبة إلى مؤلِّفه الذي وضع أصله، ولا غضَّ فيها من جهد أحد. وإذا كنتُ أستسمح بذلك الباحثين، وأبسط لهم عُذْري، فإن من سبقني من المحققين نشروا هذه المختصرات، ولم يتفطنوا إلى أنها مختصرات، ونسبوها جازمين إلى سبط ابن الجوزي على أنها «مرآة الزمان»، ولم يتوقف عند قولهم أحد!

(١) مرآة الزمان (١/ ٩ ـ ١٤).

السنين وتقادم، وهو فصلٌ طويل، قَسَمه إلى فصولٍ قصيرة لها عناوينُ مستقِلّة، افتتحها بفصل في انقضاء مدة العالم وابتدائه[١]، ثم ثنَّى بفصل في حدث العالم وإثبات الصانع بالدَّلائل القواطع[٢].

ومما ذكره في هذه الفصول حدّ الزمان والأيام، وخلق الأرضين، ومساحتها، وذكر أقاليمها، وبلدانها، وجبالها وهضابها، ومعادنها، وبحارها، وجزائرها، وعيونها وأنهارها، وما في الدُّنيا من العجائب والغرائب. ثم ذكر سكانها، ومن ملكها وقطع سبلها وسلكها، وانتقل إلى ذكر النار، وخلق الجنِّ والشَّياطين. ثم تحدَّث عن السموات وخَلْقها، وبروجها ومطالعها، وما بين كل سماء وسماء، وذكر الشمس والقمر، والنجوم السيارة والثابتة ومطالعها. ثم تحدَّث عن البيت المعمور، وسدرة المنتهى، والكرسي والعرش وحملته، والملائكة المقرَّبين، ثم ختمها بفصل عن الجنة وما لله على عباده في خلقها من المِنَّة[٣].

ثم شرع بذكر فصول عن الأنبياء وقِصَصهم، وافتتحها بذكر قصة آدم، وانتهى بقصة عيسى ابن مريم عليه السلام[٤]، ثم عقد فصلًا في عدد الأنبياء والمرسلين وذكر ما بينهم من السنين[٥]، وفصلًا في ترتيب كبارهم[٦].

ثم انتقل للحديث عن الأمم الماضية والقرون الخالية، فبدأ بذكر الهند وممالكها، ثم ملوك الصين، والفرس، ووقف مطوَّلًا عند العرب وأنسابهم، ثم ذكر من كان في الفترة بين عيسى عليه السلام ونبينا صلى الله عليه وسلم[٧]. وبذلك مهَّد للشُّروع في السِّيرة النبوية.

وعلى خلافِ أكثر كُتَّابها، فقد اجتهد في ترتيب حوادثها على السِّنين،

---

(١) مرآة الزمان (١/ ١٥ ـ ١٦).
(٢) مرآة الزمان (١/ ١٧ ـ ٢٨).
(٣) مرآة الزمان (١/ ٢٩ ـ ٢٣١).
(٤) مرآة الزمان (١/ ٢٣٢ ـ ٥٢٦، ٢/ ٧ ـ ٣٤٣).
(٥) مرآة الزمان (٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٦).
(٦) مرآة الزمان (٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).
(٧) مرآة الزمان (٢/ ٣٥٢ ـ ٦٠٩).

من مولده ﷺ إلى وفاته، وما تبعها من بيعة الصحابة لأبي بكر رضي الله عنه بالخلافة[1]. ثم ختمها على عادة كُتَّاب السيرة بفصول، ومما ذكر فيها أزواجه ﷺ، وخدمه ومواليه، وآلات حربه، وعدد غزواته وسراياه، وكُتَّاب الوحي، وصفاته، ومعجزاته، وفصاحته، وأنه آخر المرسلين، وفي أصحابه وفضلهم[2].

ثم ذكر الخلفاء الرَّاشدين، ومن بعدهم الخلفاء الأمويين والعباسيين، وما وقع في زمانهم من أحداث حتى زمنه وقبيل وفاته، مرتبًا لها على الحوليات، مترجمًا في كلِّ سنة لمن توفي فيها من الأعيان والمشاهير. ولم يُخلِ كتابه من نَقَداتٍ ذكية على بعض أخباره، بثَّها في تضاعيفه.

* * *

وفي خضمِّ سرده لوقائع تلك السِّنين على طولها، التي كادتْ توفي على سبعة قرون، ليس بمستغربٍ أن يقع سبط ابن الجوزي في أوهام وأخطاء، شأنه في ذلك شأن معظم المصنِّفين في مطوَّلات التَّاريخ، وهي أوهامٌ يسيرة في جنب هذا الجهد الكبير الذي بذله. وقد ألمعتُ إلى بعضها في تضاعيف هذا الكتاب، وسأذكر بعضها الآخر على سبيل التمثيل لا الاستقصاء.

وأوَّل ما يُلفت انتباهنا من أوهامه عدمُ دِقَّته في إيراد بعض أخباره[3]، أو إسنادها لغير أصحابها[4]، وعدم تحققه ممن يرويها عنه[5]، وأحيانًا يَهِمُ في سياقها، ويضعها في غير مواضعها[6]، رُبَّما متابعة لغيره من المؤرِّخين[7]،

---

(١) مرآة الزمان (٣/ ٤٦ ـ ٤١٠، ٤/ ٥ ـ ٢٧٢).

(٢) مرآة الزمان (٤/ ٢٧٣ ـ ٤١٠).

(٣) مرآة الزمان (٢٠/ ٤٥٦، ٢١/ ٧٣، ٢٢/ ٢٣٤).

(٤) مرآة الزمان (٢٠/ ٤٣٣).

(٥) مرآة الزمان (٢٠/ ٤٤٢، ٢١/ ٢١٢ ـ ٢١٤).

(٦) مرآة الزمان (٢٠/ ٢٧٤، ٣٤٣، ٣٦٥، ٣٦٦، ٤١٨).

(٧) مرآة الزمان (٢٠/ ٧٥).

وقد يخلط بين خبرين متباعدين في الزَّمن[1]، وينسب أبياتًا لغير قائلها[2]، وتعوزه الدِّقَّة أحيانًا في تحديد سنة بعض الوقائع[3]، وسنة ولادة من يترجم له أو وفاته[4]، وقد يشتبه عليه اسمُ من يترجم له أو يتحدَّث عنه[5].

وهي ـ كما ترى ـ أوهامٌ لا تخلو منها مطوَّلات كُتُب التَّاريخ، ولا تخدش حقًّا من قيمة كتابه وأهميته على سَعَته وطوله.

ولذلك نال ثناء عريضًا من مؤرِّخينا قدماء ومُحْدثين، فممن أثنى عليه من القدماء قطب الدِّين اليونيني، فقال في حديثه عن كتب التاريخ: «رأيتُ أجمعَها مقصدًا، وأعذبَها موردًا، وأحسنها بيانًا، وأصحَّها رواية، يكاد خبرها يكون عِيانًا، الكتاب المعروف بمرآة الزمان. . الذي ضمَّنه ما علا قدره على كل نبيه، وفاق به على من يناويه»[6].

ثم قال في ترجمته له: «كان عنده فضيلة تامَّة، ومشاركة في العلوم جمَّة، ولو لم يكن من ذلك إلا التَّاريخ الذي أَلَّفه، وسمَّاه بمرآة الزمان، وهو بخطه في سبعة وثلاثين مجلدًا، جمع فيه أشياء مليحة جدًّا، وأودعه من الأحاديث الشَّريفة النَّبوية ـ صلوات الله وسلامه على قائلها ـ وجملة من أخبار الصَّالحين، وقطعة كبيرة من الأشعار المُسْتحسنة، وسلك في جَمْعه مسلكًا غريبًا، وهو من أول الزَّمان إلى سنة أربع وخمسين وستٍّ مئة، هذه السنة التي توفي فيها إلى رحمة الله تعالى»[7].

ووصفه ابنُ خَلِّكان بالتَّاريخ الكبير، وقد اطلع عليه بدمشق، ورآه بخطِّه في أربعين مجلدًا[8].

---

(١) مرآة الزمان (٢١/ ٣٧).

(٢) مرآة الزمان (٢٠/ ٣٤٣).

(٣) تنظر: (ص ٢١٣، ٢٢٠، ٢٢٣) من هذا الكتاب.

(٤) مرآة الزمان (٢٠/ ٤٩، ٣٨٥، ٤٧٨، ٢٢/ ١٨٤، ٢٣٤، ٣١٩).

(٥) مرآة الزمان (٢٠/ ١٦، ٤٥، ٢١/ ٢٠٩).

(٦) ذيل مرآة الزمان (١/ ٢).

(٧) ذيل مرآة الزمان (١/ ٤١ ـ ٤٢).

(٨) وفيات الأعيان (٢/ ١٥٣، ٣/ ١٤٢، ٦/ ٢٣٩).

وقال ابن الجزري: «صنَّف التاريخ الكبير على السنين، وهو مرآة الزَّمان في أكثر من ثلاثين مجلدًا»[(١)].

وقال ابنُ كثير: «وله مرآة الزمان في عشرين مجلَّدًا من أحسن التواريخ، انتظم فيها المنتظم لجدِّه، وزاد عليه، وذيَّل إلى زمانه، وهو من أحسنِ التَّواريخ وأبهجها»[(٢)].

وقال ابن تغري بردي: «تاريخه المسمَّى مرآة الزمان، وهو من أجلِّ الكُتُب في معناها»[(٣)].

ومن المُحْدَثين أثنى عليه العلَّامة الشيخ عبد الحيِّ بن عبد الكبير الكِتَّاني، فقال: «هو صاحبُ مرآة الزمان، ذلك التَّاريخ العظيم الذي ملأ فراغًا عظيمًا في تاريخ الإسلام، واعتنى الحُفَّاظ به»[(٤)].

وذكره الباحثُ الأستاذ عباس العزاوي، فقال فيه وأطال: «اعتمد آثارًا كثيرة، وعوَّل على مراجع لا تُحصى، ومن أهمِّها تاريخ جدِّه أبي الفرج عبد الرحمٰن ابن الجوزي، المعروف بالمنتظم. راعى الحوادث التاريخية والوَفَيات بصورةٍ متوالية، فكان سِجِلًّا مقبولًا، وأثرًا خالدًا، يُعين الطَّالب، ويرجع إليه للتعرُّف بالحادث، أو برجال التاريخ المشاهير من علماء وغيرهم.

إن المترجَم جمع بين كُتُب الطبقات والحوادث، وسار على نهج جدِّه في ترتيبه، فلخَّص جميع ما رأى من كُتُب تاريخية، وتراجم أشخاص، فاستوعبَ تواريخ العراق وغيره، وأَجْمَل حوادث التَّاريخ ممَّا وصل إليه، وجلا صفحة تكاد تُغْني عن غيرها، فكان مشروعًا عظيمًا، لا يستطيعُ القيام به فردٌ بل جماعة.. ويصحُّ أن يُقال: إنَّه خلاصة الآثار في علمائنا ومثقفينا

---

(١) المختار من تاريخ ابن الجزري (٢٤١).

(٢) البداية والنهاية (١٥/ ٣٠١)، وعقد الجمان (١٣٢ ـ ١٣٣).

(٣) النجوم الزاهرة (٧/ ٣٩).

(٤) فهرس الفهارس والأثبات (٢/ ١١٣٨).

لمختلف العصور إلى أواخر الدَّولة العبَّاسية»[1].

وقال الدكتور شاكر مصطفى؛ العالم الأديب: «يمكن أن يُعتبر أكبر التَّواريخ الإسلامية حَجْمًا، وقد يوازي أو يزيد على تاريخ الإسلام للذَّهبي»[2].

ومن المُسْتشرقين عرَّف به فرانز روزنثال في دراسته الجامعة عن علم التاريخ عند العرب، فقال: «وهو تاريخٌ عام يتجلَّى في القسم الذي خصصَّه لتاريخ ما قبل الإسلام غزارة علم المؤلف، وشدَّة توثقه العلمي، التي تشبه غزارة علم المسعودي. أما القسم الإسلامي فقد قدَّم فيه معلوماتٍ تاريخية أوسع بكثير مما قدَّمه ابنُ الجوزي»[3]، ويعني به جدَّه أبا الفرج في كتابه «المنتظم».

* * *

ولم يَسْلَم سبط ابنِ الجوزي، كغيره من العُلماء، من النَّقْد، وأحيانًا من التَّجريح. وكان ابن رجب الحنبلي أول من انتقده، فقد اتَّهمه[4] بقوله: «أبو المظفر ليس بحُجَّة فيما ينقله»[5]، ومستندُه في ذلك على قصة نَقَلها ابن رجب عن الحافظ يوسف بن خليل في «معجمه»، وأوردها في سياق ترجمة قاضي المارَسْتان أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، المتوفى سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤١م، وذكر نحوًا منها سبط ابن الجوزي، بيد أنه عزاها لابنِ عقيل!

وملخَّصُ القِصَّة كما أوردها ابنُ رجب، أن أبا بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، كان مجاورًا بمكة، فأصابه في يومٍ من الأيام جوعٌ شديد، ولم يجد شيئًا يدفعه به، ثم إنه وجد كيسًا فيه عقْدٌ من لؤلؤ لم يَرَ

(١) التعريف بالمؤرخين (٦٩، ٧٢).
(٢) التاريخ العربي والمؤرخون (٢/ ٢٦١).
(٣) علم التاريخ عند العرب (٢٠١).
(٤) لسان الميزان (٨/ ٥٦٥).
(٥) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٤٤٦).

مثله، فردَّه إلى صاحبه، ولم يأخذ منه ما بذله له من دنانير جائزة على ذلك.

ثم إنه خرج من مكة، وركب البحر، فانكسر المركب، وغرق مَنْ فيه، وسَلِمَ هو من بينهم على قطعة منه، قذفت به بعد أيام إلى جزيرة، فآوى إلى مسجدٍ فيها، وقعد فيه يقرأ، فلمَّا سمع أهلُ الجزيرة قراءته أعجبوا به، ورغبوا إليه أن يعلِّمهم القرآن، ويعلِّم صبيانهم وشبابهم الكتابة، فحصل له منهم مالٌ كثير، ثم عرضوا عليه أن يزوِّجوه بصبية يتيمة، فلمَّا زُفَّت إليه، وجد في عنقها ذلك العقد بعينه الذي وجده بمكة، فأخذته الدَّهشة، وقصَّ على أهل الجزيرة قصة ذلك العقد، فصاحوا بالتَّهليل والتكبير، وقالوا له: إن صاحب العِقْد هو والدُ هذه الصبية، وإنه كان يقول: ما وجدتُ في الدُّنيا مُسْلمًا إلا هذا الذي ردَّ عليَّ هذا العقد، وكان يدعو ويقول: اللَّهُمَّ اجمع بيني وبينه حتى أزوِّجه بابنتي. وها قد استجاب الله دعوته، وزوَّجك من ابنته. فأقام أبو بكر مدة في الجزيرة، رزق من زوجته بولدين، ثم إنها ماتت، ثم مات ولداها، فورث العقد، فباعه بمئة ألف دينار، وكان يختم قصته لسامعيه بقوله: وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال[1].

ثم عقب ابنُ رجب على هذه القصة بقوله: «هكذا ساق هذه الحكاية يوسف بن خليل في «معجمه»، وساقها ابن النَّجَّار في «تاريخه»، وقال: هي حكاية عجيبة، وأظن القاضي حكاها عن غيره.

وقد ذكرها أبو المظفر سبط ابن الجوزي في «تاريخه» في ترجمة أبي الوفاء بن عقيل، وذكر عن ابن عقيل أنه حكى عن نفسه أنه حجَّ، فالتقط العِقْد، وردَّه بالموسم، ولم يأخذ ما بُذل له من الدَّنانير، ثم قدم الشَّام، وزار بيت المقدس، ثم رجع إلى دمشق، واجتاز بحلب في رجوعه إلى بغداد، وأن تزوُّجَه بالبنت كان بحلب، ولكن أبا المظفر ليس بحُجَّة فيما

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥).

ينقله، ولم يذكر للحكاية إسنادًا متصلًا إلى ابنِ عقيل، ولا عزاها إلى كتابٍ معروف، ولا يُعلم قدوم ابن عقيل إلى الشام، فنسبتُها إلى القاضي أبي بكر الأنصاري أنسب، والله أعلم»[(١)].

بهذه الحجج يخطِّئ ابنُ رجب سبط ابنَ الجوزي بهذه القصة، وليته اكتفى بذلك، بل يُطلق عليه حُكْمًا مُبْرمًا في كلٍّ ما ينقله عن غيره بأنه ليس فيه بحُجَّة.

نعم، أورد سبط ابن الجوزي هذه القصة في «مرآة الزمان» وعزاها إلى ابن عقيل المتوفى سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م[(٢)]، وعنه نقلها الذَّهبي في «سير أعلام النبلاء»[(٣)]، ولم يعقب عليها.

والحقُّ أن سياق قصة ابن عقيل تختلف في تفاصيلها عن قصة أبي بكر، والعهدة فيها على ابن عقيل نفسه، وليس بمستبعدٍ أن تكون وقعت له، كما وقعتْ تلك لأبي بكر، فهما قصتان اثنتان مختلفتان، تشابهتا من بعض الأوجه، ولا سيَّما أنَّ ابنَ عقيل أقدمُ وفاةً من أبي بكر، فلا يصحُّ أن يُقال عن سبط ابن الجوزي أنه: «ذكرها»؛ لأنَّ ذلك يعني: أن قصتهما واحدة، واختلافهما بالتفاصيل يشي بخلاف ذلك.

ثم إنَّ سبط ابن الجوزي صرَّح في قصة ابنِ عقيل أنَّه نقلها من كتابه المشهور «الفنون»، وهو في مئتي مجلد، وقد طالع فيه ببغداد، ووصفه بقوله: «فيه حكاياتٌ ومناظرات، وغرائبُ وعجائب وأشعار»[(٤)]. ونقل معها عنه حكاياتٍ غيرها، لا تقلُّ غرابة عن قصته هذه[(٥)]. فأين ذلك من قول ابنِ رجب: «لم يذكر للحكاية إسنادًا متصلًا إلى ابنِ عقيل، ولا عزاها إلى كتابٍ

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦).
(٢) مرآة الزمان (٢٠/ ١٢٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).
(٤) مرآة الزمان (٢٠/ ١٢٦).
(٥) ينظر: «مرآة الزمان» (٢٠/ ١٢٦ ـ ١٢٩)، و(ص ٥٣ ـ ٥٤) من هذا الكتاب.

معروف»، ليبني على ذلك حُكْمه الجازم: «ولكنَّ أبا المظفر ليس بحُجَّة فيما ينقله»؟

وعلى إجلالي لابن رجب، أرى أنَّه لم يُنصف سبط ابن الجوزي في قوله، ولا أستبعدُ أنَّ وراء ذلك عداوة خفية كان الحنابلة يحملونها له، لانتقاله في الفقه من مذهب أحمد ابن حنبل إلى مذهب أبي حنيفة النُّعْمان[1].

وقد ألقت هذه العداوة بظلالها على من جرَّح سبط ابن الجوزي، أو دافع عنه، فمع أن الذهبي وصفه بقوله: «كان علَّامة في التَّاريخ والسِّيَر»[2]، فقد وجد نُهْزة ليقول فيه، متابعًا على ما يبدو ابن رجب: «وألَّف مرآة الزَّمان، فنراه يأتي فيه بمناكير الحكايات، وما أظنُّه بثقةٍ فيما ينقله، بل يخسف ويجازف»[3].

ومن الأمثلة التي أوردها الذهبي لمجازفاته قوله في ترجمة مظفر الدِّين كُوكُبُري: «وكانت أمواله قد استنفدتها الصَّدقات، فكان يُرسل الجواهر فيبيعها بدمشق ويشتري الأسارى، وحُكي لي بإربل أنه ينفق على المولد في كل سنة ثلاث مئة ألف دينار، وعلى الخانكات مئتي ألف، وعلى دار المضيف مئة ألف، وعلى الأسارى مئتي ألف دينار، وفي الحرمين وعرفات والسَّبيل ثلاثين ألف دينار، غير صدقة السِّرِّ»[4].

ولا شكَّ أن هذه الأموال المنفقة كانت جسيمة في مقاييس ذلك العصر، وربما لا تحتملها بلد صغير كإربل، فنرى الذهبي ينقل عنه هذا الخبر، ويصدِّرُه بقوله: «وأما أبو المظفر الجوزي فقال في «مرآة الزمان»، والعهدة عليه، فإنَّه خَسَّاف مجازف، لا يتورَّع في مقاله»[5].

---

(١) ينظر: (ص ٧٢ ـ ٧٣) من هذا الكتاب. (٢) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧).
(٣) ميزان الاعتدال (٥/ ١٩٥). (٤) مرآة الزمان (٢٢/ ٣٢٥).
(٥) تاريخ الإسلام (١٣/ ٩٣٤).

ولا أنفي عن هذا الخبر ما فيه من مبالغة قد تروق لسبط ابن الجوزي، وهو الواعظ، ولكن ربما غاب عن الذهبي أنَّه ناقلٌ للخبر عمَّن حكاه عنه، فالعُهْدة عليه، لا على أبي المظفر، والله أعلم.

ثم إن مظفر الدِّين، لكثرة نفقاته في أبواب البِرِّ، قد تغري المتحدِّث عنه بالمبالغة في وصفها، حتى إنَّ ابنَ خَلِّكان، وهو من إِرْبِل، قال فيه: «لقد كان له من فعل الخيرات غرائب لم يُسمع أنَّ أحدًا فعل في ذلك ما فعله، لم يكن في الدُّنيا شيءٌ أحبَّ إليه من الصَّدقة»، ثم يسترسل في ذكر صدقاته وأنواع بِرِّه، ويختم ذلك بقوله: «ومع الاعتراف بجميله، فلم أذكر عنه شيئًا على سبيل المبالغة، بل كل ما ذكرتُه عن مشاهدةٍ وعِيان»[١].

وثمة مثالٌ آخر يسوقه الذهبي لمجازفاته كذلك، وهو قوله في حادثة غرق بغداد سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م: «وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة.. وانهدمت بغداد بأسرها والمحالّ، ووصل الماء إلى رأس السُّور، وبقي مقدار إصبعين ويطفح عليه، وأيقن الناس بالهلاك، ودام سبع ليال وثمانية أيام حُسُومًا، ثم نقص الماء، وبقيت بغداد من الجانبين تلولًا لا أثر لها»[٢].

والمبالغة في إيراد هذا الخبر لا تخفى، فينقله عنه الذهبي، ويصدِّرُه كذلك بقوله: «قال سبط ابن الجوزي بقِلَّة ورع: فانهدمتْ بغداد بأسرها..»[٣]. ويعقب عليه في «تاريخ الإسلام» بقوله: «هذا من خَسْف أبي المظفَّر، فهو مجازفٌ»[٤].

ومن ثم يخلص الذهبي إلى رأي فيه جازم، فيقول: «قد بلوتُ على أبي المظفَّر المجازفة وقِلَّة الورع فيما يؤرِّخه، والله الموعد»[٥]. ولئن سُلِّم

---

(١) وفيات الأعيان (٤/ ١١٦، ١٢٠).
(٢) مرآة الزمان (٢٢/ ٢١٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٣٠).
(٤) تاريخ الإسلام (١٣/ ٢٧٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٦٤).

للذهبي في بعض مآخذه عليه، فلا يُسلَّمُ له حكمه المُبْرم لِمَا فيه من تعميمٍ وإطلاق.

ونرى لكلام الذَّهبي فيه صدًى عند صلاح الدِّين الصَّفدي، فبعد أن حرَّف اسم كتابه من «مرآة الزمان» إلى «مرآة النَّاس»، قال: «هو صاحبُ مرآة النَّاس، وأنا ممَّن حسده على هذه التسمية، وهي لائقة بالتاريخ، كأنَّ الناظر في التاريخ يُعاين من ذُكر فيه في مرآة، إلا أنَّ في المرآة صدأ المجازفة منه ـ رحمه الله تعالى ـ في أماكن معروفة»[١].

ولم يرتضِ ابنُ تغري بردي قولَ الذَّهبي والصَّفدي فيه، فانبرى للدِّفاع عنه بلهجة لا تخلو من حِدَّة، قائلًا: «قول الشيخ صلاح الدِّين أيضًا ممَّن اعترف به عن نفسه من باب الحسد، وما نسبه إليه من المجازفة في تاريخه، فإنَّها في أماكن لا حاجة لتحريرها، وأما غير ذلك فإنَّه في غاية التَّحرير والنقل عن الثقات، ومن أرَّخ بعده فقد تطفَّل عليه، واغترف من بحره، واحتاج إليه، ولا سيما الذَّهبي والصَّفدي، فإنَّ معوَّلهما في تاريخهما على تاريخه»[٢].

ويقتضيني الإنصاف أن أعيد ما سلف أن قلتُه بأنَّ أوهام سبط ابن الجوزي في «مرآته»، وأحيانًا مجازفاته، لا تخلو منها مطوَّلات كُتُب التاريخ، ولا تخدشُ حقًّا من قيمة كتابه وأهميته على سَعَته وطوله.

طبعات «مرآة الزمان»:

لم يحظ كتاب «مرآة الزمان» بطبعة تامة له إلا مؤخرًا، برغم أن الاهتمام به بدأ مبكرًا.

١ ـ فأول من اعتنى به المستشرق الأمريكي جويت (Jewett)، فقد صوَّر قطعة مختصرة منه، عن مخطوطة في جامعة ييل تحت رقم ١٣٦، من

---

(١) الوافي بالوفيات (٢٩/ ١٢٢).

(٢) المنهل الصافي (١٢/ ٢٣٣).

مجموعة لاندبرج العربية، ونشرها في شيكاغو سنة ١٩٠٧م، تتضمن السنوات ٤٩٥ ـ ٦٥٤هـ، وهو ما عرف بين الباحثين بالجزء الثامن.

٢ ـ ثم نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن، السنوات نفسها ٤٩٥ ـ ٦٥٤هـ في جزأين، وذلك سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

٣ ـ وقام الدكتور علي سويم من تركيا، فاستخرج منه الحوادث المتعلقة بالسَّلاجقة في السنوات ٤٤٨ ـ ٤٨٠هـ، فحققها، ونشرها في جامعة أنقرة سنة ١٩٦٧م.

٤ ـ ونهد له الدكتور إحسان عباس، فحقق الجزء الأول منه، ونشرته دار الشروق في بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ولعله أوَّل من توسَّع بترجمة لسبط ابن الجوزي، اتكأ عليها بعضُ الباحثين.

٥ ـ ونشر الدكتور مسفر بن سالم بن عريج الغامدي السنوات ٤٨١ ـ ٥١٧هـ، في جزأين، وصدر عن جامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٦ ـ وكذلك نشرت الباحثة جنان جليل محمد الهموندي السنوات ٣٤٥ ـ ٤٤٧هـ، في جزء، وصدر عن الدار الوطنية في بغداد، ١٩٩٠م.

٧ ـ وتصدَّى أخيرًا لتحقيقه كاملًا مكتبُ مؤسسة الرِّسالة لتحقيق التراث في دمشق، فقام على خدمته وتحقيقه ثُلَّة من الأساتذة المحقِّقين، بذلوا وسعهم في تقويم زَيْغه، وإقامة مُنْآده، على اضطرابٍ في نُسَخِه، وضعف نُسَّاخه، ولم يخلُ عملهم من هَنَات، عسى أن تُسْتدرك في قادم الأيام. وكان لكاتبِ هذه السُّطور شرفُ تحقيق الأجزاء الثلاثة الأخيرة منه، وصدر في اثنين وعشرين جُزْءًا عن دار الرِّسالة العالمية في بيروت، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، وعلى هذه الطبعة كانت إحالاتي في هذا الكتاب.

* * *

مؤلفاته الأخرى

وأما سائر مؤلفاته الأخرى، فهي على ترتيب حروف المعجم:

١ ـ «الانتصار لإمام أئمة الأمصار»، مجلَّدان[(١)].

٢ ـ «الانتصار والترجيح للمذهب الصحيح»، وهو مطبوع[(٢)].

٣ ـ «إيثار الإنصاف في آثار الخلاف»، وهو مطبوع[(٣)].

٤ ـ «تذكرة الخواص من الأمة في ذكر مناقب الأئمة»، وهو مطبوع[(٤)] = رياض الأفهام.

---

(١) كشف الظنون (١/ ١٧٢)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٤).
ومنه نسخة خطية مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة. ينظر: «معجم المؤرِّخين الدمشقيين» (٩١).

(٢) وهو كُتَيِّبٌ صغير، طبع في مطبعة الأنوار بالقاهرة سنة ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م، وقدَّم له الشيخ محمد زاهد الكوثري، ووقف على طبعه وراجع أصله السيد عزت العطار الحسيني.
وقسَّمه سبط ابن الجوزي ثمانية أبواب، فالباب الأول: في ذكر ثناء المحدِّثين على أبي حنيفة، وتوثيقهم إياه وروايتهم عنه. والباب الثاني: في وجه الجواب عن مثالب ذكرها بعض المحدثين فيه. والثالث: في ذكر نبذة من مناقبه. والرابع: في ذكر من لقي من الصَّحابة ﷺ، وروى عنه. والخامس: في تفضيله على غيره. والسَّادس: في تفضيل مذهبه على مذهب غيره. والسابع: في أن الأخذ بمذهبه أحوط للإمام، وأدفع للحرج عن الأمة. والثامن: في أخذه بالكتاب والسُّنَّة الصحيحة ومخالفة الغير إياهما. ينظر: «الانتصار والترجيح» (٥ ـ ٦).

(٣) بهذا العنوان سماه سبط ابن الجوزي في مقدمته له (٣٤)، واقتصر فيه على أحاديث المسائل المشهورة، وجاء في: تاريخ علماء بغداد (١٩١)، والجواهر المضية (٣/ ٦٣٤)، وتاج التراجم (٢٨٨)، وطبقات المفسرين للأدنه وي (٢٣٩)، والفوائد البهية (٢٣٠)، ومفتاح السعادة (١/ ٢٣٥)، وكشف الظنون (١/ ٢٠٥)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٤) بعنوان «إيثار الإنصاف في مسائل الخلاف». وقد حققه ناصر العلي الناصر الخليفي، وصدر عن دار السلام بالقاهرة سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

(٤) اختلف في عنوانه، فما أثبتُّه هو ما ورد في نسخة دار الكتب الظاهرية برقم (٦٧٣٧)، وتاريخ نسخها سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، وكذلك ذكره إسماعيل باشا =

٥ ـ «التفسير»، هكذا سمَّاه سبط ابنُ الجوزي في «مرآته»[١]، ومن ترجم له[٢]، وحدَه الذهبي انفرد بتسميته «معادن الإبريز»، وذكر أنَّه في تسعة وعشرين مجلَّدًا[٣]، ونقله عنه الصَّفدي[٤]، وتابعهما حاجي خليفة وإسماعيل باشا البغدادي في التسمية، لكنهما وَهِمَا، فظنَّاه كتابًا في التَّاريخ[٥].

وذكره ابن الشَّعَّار المَوْصِلي في كتابه «قلائد الجُمان» بعنوان: «معادن الإبريز في تفسير الكتاب العزيز»، ونسبه إلى خاله محيي الدِّين يوسف بن عبد الرحمٰن ابن الجوزي[٦]، وتابعه على ذلك ابنُ رجب الحنبلي،

= البغدادي في «إيضاح المكنون» (١/ ٢٧٤)، و«هدية العارفين» (٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥)، وذكره بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي» (٦/ ١٤٣) بعنوان «تذكرة خواص الأمة بذكر خصائص الأئمة». وله طبعة بعنوان «تذكرة خواص الأمة في معرفة الأئمة»، وأخرى بعنوان «تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة»، ومنها طبعة حققها الدكتور عامر النجار، وصدرت عن مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة سنة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ولم أقف عليها. أما الطبعة التي بين يدي، وأحلتُ عليها، فهي سقيمة، فشا فيها التصحيف والتحريف، وزيد فيها من الأدعية في آخرها ما ليس له.

وهذا العنوان على اختلافاته لا يفي بمضمون الكتاب، ولم يرد إلا في كُتُب المتأخرين، والصحيح فيه أنه «رياض الأفهام في مناقب أهل البيت» كما سمَّاه السَّلامي والذَّهبي من مؤرخينا القدماء، وسيأتي التدليل على ذلك والحديث عنه ثَمَّة. ينظر: «معجم المؤرِّخين الدمشقيين» (٩٣)، «وفهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية» التاريخ وملحقاته (٢/ ١٤٥)، و«المعجم المشتمل للتراث العربي المطبوع» (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

(١) مرآة الزمان (٨/ ٤٢٢).

(٢) تاريخ علماء بغداد (١٩١)، ومرآة الجنان (٤/ ١٠٥)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٨٣)، وتاج التراجم (٢٨٨)، وطبقات المفسرين للأدنه وي (٢٣٩)، والفوائد البهية (٢٣٠)، ومفتاح السعادة (١/ ٢٣٥)، وكشف الظنون (١/ ٤٣٧، ٤٤٨)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٥).

(٣) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨).

(٤) الوافي بالوفيات (٢٩/ ١٢٢).

(٥) كشف الظنون (٢/ ١٧٢٣)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٥).

(٦) قلائد الجمان (مج٨/ج١٠/ ٢٦٧)، وينظر: «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥).

والدَّاودي، وإسماعيل باشا البغدادي[1].

٦ ـ «الجليس الصالح والأنيس الناصح»[2]، وهو مطبوع[3].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٢٥)، وطبقات المفسرين (٢/ ٣٨٢)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٥).

وذكرا من تصانيف محيي الدِّين يوسف بن عبد الرحمٰن ابن الجوزي كذلك كتاب «الإيضاح في الجدل»، وعنوانه على التمام «الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة». وله طبعتان، أولاهما بتحقيق الدكتور فهد بن محمد السدحان، وصدرت عن مكتبة العبيكان بالرياض سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، والثانية بتحقيق محمد بن محمد بن السيد الدغيم، وصدرت عن مكتبة مدبولي بالقاهرة سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

ووَهِمَ إسماعيل باشا البغدادي في كتابه «هدية العارفين» (٢/ ٥٥٤)، فنسبه إلى سبط ابن الجوزي، وتابعه على وَهْمِه محقِّقُ الجزء السَّادس من «مفرج الكروب» (٦/ ٢٥١).

ومن الكُتُب التي ذكرت لمحيي الدِّين يوسف كذلك «الأحاديث المستعصميات الثمانيات»، ذكره عبد الحيِّ الكِتَّاني في كتابه «فهرس الفهارس والأثبات» (١/ ٢٠٥)، فقال: «تخريج الحافظ أستاذ دار الخلافة محيي الدين يوسف» بيد أن الكتاني وَهِمَ بقوله: «سِبْط ابن الجوزي»، وإنَّما محيي الدِّين هو ابنه.

وتعجَّل بروكلمان، ونسبه إلى سبط ابن الجوزي، وتابعه على عجلته ووَهْمِهِ الدكتور إحسان عبَّاس في تقديمه للجزء الأول من «مرآة الزمان» (ص٣٤)، من طبعة دار الشروق، بيروت، وعنه أخذ كاتبُ المقدِّمة لطبعة مؤسسة الرِّسالة العالمية. ينظر: «تاريخ الأدب العربي» (٦/ ١٤٤)، و«مرآة الزمان» (١/ ٢٦)، وتنظر ترجمة محيي الدِّين يوسف أستاذ دار الخلافة في: «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٤)، و«الذيل على طبقات الحنابلة» (٤/ ٢٠ ـ ٢٦).

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٦/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٣) حققه الدكتور فواز صالح فواز، وصدر عن دار الرِّيس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٩م، وهي نشرة مشحونة بالأوهام والأخطاء، ومنها نسبته لسبط ابن الجوزي في ترجمته الموجزة له كتاب «إيقاظ الوسنان»، وإنما هو لجدِّه أبي الفرج. ينظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٩٩)، و«كشف الظنون» (١/ ٢١٥).

وهذا الكتاب قدَّمه سبط ابن الجوزي هدية للملك الأشرف موسى بن العادل، =

٧ ـ «جوهرة الزَّمان في تذكرة السُّلطان»[١].

٨ ـ «حق اليقين»[٢].

٩ ـ «الخلافيات»[٣].

١٠ـ «رياض الأفهام في مناقب أهل البيت»[٤].

= وقسَّمه عشرة أبواب، ذكر في الباب الأول منه ولادة الأشرف موسى ومنشئه، وفي الباب الثاني: في بيان الحاجة إلى الموعظة، وفي الباب الثالث: في ذكر ما ينبغي للسُّلطان استعماله، وفي الباب الرابع: في شرف الولايات وخطرها، والخامس: في فضل العدل وإغاثة الملهوف، والسادس: في ذم الظلم، والسابع: في ذكر الجهاد، والثامن: منتخب من سيرة الولاة، واقتصر فيه على نُبَذٍ من سِيَر الخلفاء الرَّاشدين، وعمر بن عبد العزيز ﷺ، والتاسع: منتخب من أخبار الصَّالحين والزُّهَّاد وكلامهم، ومن أتى الولاة ومن لم يأتِ، والعاشر: في ذكر مواعظ السَّلف للولاة، ومن قَبِلَ أموالهم ومن لم يقبل، وهذا القسم الأول منه، أما القسم الثاني ففي ذِكْرِ جماعة تزهَّدوا من السلاطين والأمراء. ثم يختم الكتاب بنُتَف وطُرَف وعشر حكايات منتخبات. ينظر: «الجليس الصَّالح» (٢٧، ٢٨ ـ ٢٩).

(١) ذكره ابن خَلِّكان في «وَفَيات الأعيان» (٦/ ٣٠٢)، ونقل عنه قصة الفتاة التي تزوَّجها عاصم بن عمر بن الخطاب، فولدت له ابنة، هي أمُّ عمر بن عبد العزيز، وذكره كذلك إسماعيل باشا البغدادي في «هدية العارفين» (٢/ ٥٥٥).
وأورد سبط ابن الجوزي قصة هذه الفتاة بإسناده كذلك في كتابه «الجليس الصَّالح» (١٦٤ ـ ١٦٥).

(٢) ذُكر هذا الكتاب في «تذكرة الخواص» (١٤٣)، وفي النفس من نسبته لسبط ابن الجوزي أشياء، ولعله ممَّا زِيْد عليه فيه، وينظر: «هدية العارفين» (١/ ٤١٠).

(٣) ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (٧/ ١٨٦، ١٠/ ٢٣)، و«إيثار الإنصاف» (٣٤، ٩٨، ١٤٢)، وقد توسَّع في مسائله على خلاف كتابه «إيثار الإنصاف»، الذي اقتصر فيه على أحاديث المسائل المشهورة. وموضوعه هو موضوع كتابه «وسائل الأسلاف إلى مسائل الخلاف»، فهل هما كتابٌ واحد؟

(٤) تاريخ علماء بغداد (١٩١)، وذكر السَّلامي أنه رآه بدمشق في وقف المدرسة النورية، وقال: «فيه تشيعٌ ظاهر، والنسخة بخط ابنِ عبد الدَّائم».
وهذا الكتابُ هو الذي عناه الذهبي بقوله في «السِّيَر» (٢٣/ ٢٩٧): «ورأيتُ له =

= مصنَّفًا يدلُّ على تشيعه». وسمَّاه «رياض الأفهام» في ترجمته للإمام الغزالي في «السير» (١٩/ ٣٢٨)، ونقل عنه نصًّا، وهذا النص المنقول هو نفسه في كتاب «تذكرة الخواص من الأمة» (ص٦٢)، وهو يدلُّ دلالة قاطعة على أن العنوانين لكتابٍ واحد، وأن «رياض الأفهام» هو عنوانه الصَّحيح، والحمدُ لله على توفيقه.

وذكر سبط ابن الجوزي في هذا الكتاب سيرة الإمام علي؛ رابع الخلفاء كما وصفه في مقدِّمته، واستعرض أخباره ومناقبه مختصرة، كما صرَّح بذلك، ثم ثنَّى بترجمة أخيه جعفر بن أبي طالب وذُرِّيَّته، ثم ابتدأ بذكر أبناء علي، مفتتحًا بالحسن وذريته، ثم الحسين وذريته، ثم محمد ابن الحنفية وأولاده، ثم عرَّج على ذكر أمِّنا خديجة بنت خويلد، وأولادها من رسول الله ﷺ، وأفرد منهم السيدة فاطمة، ثم ابتدأ بذكر الأئمة من أولاد الحسين بن علي، مفتتحًا بزين العابدين علي بن الحسين بن علي، ثم أفرد بالذكر ولديه زيد، ومحمد الباقر، وما تناسل من ذريته حتى آخرهم محمد بن الحسن العسكري ـ ومجمل ما ذكره من أخبارهم ذكره كذلك في كتابه «مرآة الزمان» مفرَّقًا على سني وَفَياتهم ـ ثم ختمه بحكايات سمعها من شيوخه عن آل البيت، رضوان الله عليهم وسلامه. وثمة تعقيبٌ سِيْق بعد إيراده قصيدة الحَصْكَفي لا أُراه يصحُّ عنه؛ لأنه لا يتفق ومسار حياته وما خطَّه في مؤلفاته الأخرى، ولا سيَّما الفقهية منها.

فالكتابُ في مناقب أهل البيت، كما هو واضحٌ من عنوانه وموضوعاته، وهو أمرٌ لا خلاف فيه. وقد ساقها بأسانيده عن شيوخه، وموارده فيها معروفة، وإن كان بعضها لا يصحُّ الاعتماد عليه، والنَّادر منها مجهولٌ أو منحول.

وقد أكثر من النَّقْل فيه عن الإمام أحمد ابن حنبل في كتابيه: «المسند»، و«فضائل أمير المؤمنين علي»، معتمدًا على أسانيده، متناسيًا أنه لم يشترط صحَّتَها، وحُجَّته في ذلك بأن «أحمد مقلَّدٌ في الباب، متى روى حديثًا وجب المصير إلى روايته؛ لأنه إمامُ زمانه، وعالم أوانه، والمبرِّز في علم النقل على أقرانه، والفارس الذي لا يُجارى في ميدانه». ينظر: «تذكرة الخواص» (٢٢).

بيد أن الذَّهبي أصاب ثغرة في هذا الكتاب، وهو المتحاملُ على سبط ابن الجوزي كما سلف، فانفرد عمن ترجم له بقوله في «ميزان الاعتدال» (٥/ ١٩٥): «إنه يترفَّض». ولم يلتفت إلى قوله منهم أحد. ولم أقف في تاريخه «مرآة الزمان» ـ وهو موطن ذلك لو صحَّ ـ على ما يشي بما وصفه الذهبي به.

وألمعتُ في سيرة سبط ابن الجوزي إلى حبِّه لآل البيت، رضوان الله عليهم، شأنه =

١١ ـ «شرح البداية»[١].

١٢ ـ «شرح الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج»[٢].

١٣ ـ «شرح الجامع الصغير»[٣].

١٤ ـ «شرح الجامع الكبير»، في مجلَّدين[٤].

= في ذلك شأن الكثرة الكاثرة من المسلمين، وغاية ما يقال فيه: إنه ترخَّص في كتابه هذا، ونزع إلى تصحيح ما ورد في مناقبهم من آثار ضعيفة، وبعضها يكون موضوعًا. فما بين حبِّ سبط ابن الجوزي لآل البيت وما وصفه به الذهبي بونٌ واسع كما لا يخفى. ينظر: (ص ١٨٩ ـ ١٩٠، ٢٦٠) من هذا الكتاب.

وحتى من هشَّ لهذا الكتاب لم يَسْلم سبط ابن الجوزي من نقده، فقد وصفه بأنه أنصف بعض الإنصاف في أخبارٍ، ولم يُنصف في بعضها الآخر. ينظر: «تذكرة الخواص» (٢٤٧).

وابنُ عبد الدَّائم؛ ناسخ الكتاب، هو الشيخ المحدِّث المُسْنِدُ زين الدِّين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة، المقدسي النابلسي الحنبلي، سمع الكثير بدمشق، وتفقه على الموفق ابن قدامة، وله رحلة إلى بغداد سمع فيها من أبي الفرج ابن الجوزي وغيره من شيوخها، وعمل بنسخ الكتب بدمشق نحو خمسين سنة، وكان سريع الكتابة، وخطه حسنٌ قوي، وكان يقول: «كتبتُ بإصبعيَّ هاتين أكثر من ألفي مجلدة»، توفي بدمشق سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م، عن نحو تسعين سنة، ودفن بسفح قاسيون، تنظر ترجمته في: «صلة التكملة» (٢/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧)، «والذيل على طبقات الحنابلة» (٤/ ٩٦ ـ ١٠٠)، و«ذيل مرآة الزمان» (٢/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧)، و«تاريخ الإسلام» (١٥/ ٤٢٥)، و«البداية والنهاية» (١٥/ ٤٢٥).

(١) ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (١/ ١٤٩)، (٩/ ١٠٠)، (١٧/ ١٢٣).
وقد شرح فيه «بداية المبتدي» لأبي الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني، المتوفى سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م. ينظر: «الجواهر المضية» (٢/ ٦٢٧ ـ ٦٢٩)، و«الفوائد البهية» (١٤١ ـ ١٤٤).
ولكتاب «البداية» طبعة قديمة بالقاهرة سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

(٢) كشف الظنون (١/ ٥٥٨)، هدية العارفين (٢/ ٥٥٥).

(٣) ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (١٠/ ٣٤٦).

(٤) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨)، والوافي بالوفيات (٢٩/ ١٢٢)، والجواهر المضية (٣/ ٦٣٤)، ومرآة الجنان (٤/ ١٠٥)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٨٣)، وطبقات =

١٥ ـ «شرح روح العارفين»[١].

١٦ ـ «كتاب في التاريخ»[٢].

١٧ ـ «كنز الملوك في كيفية السلوك»، وهو مختصر، وقد طبع[٣].

١٨ ـ «المجد المعظمي»[٤].

= المفسرين للأدنه وي (٢٣٩)، والفوائد البهية (٢٣٠)، وكشف الظنون (١/ ٥٦٩).

(١) ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (٢٢/ ١٧١، ٢٠٧)، وعبد الحي الكِتَّاني في «فهرس الفهارس والأثبات» (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٧)، وقد شرح فيه كتاب «روح العارفين» للخليفة العباسي الناصر لدين الله، وأوقفه في دار الحديث الأشرفية بدمشق. وينظر: (ص ٨١) من هذا الكتاب.

وثمة نسخة من «روح العارفين» محذوفة الأسانيد في مكتبة شستربتي برقم (٥٢٨٧/ ١)، ومصورة عنها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم (٢٣٠٢/ ١). ينظر: «فهرس المخطوطات المصورة، الحديث وعلومه» (١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

(٢) ذكره السَّلامي هكذا مبهمًا، ولم يعين لنا اسمه، ولعله غير كتاب «مرآة الزمان». ينظر: «تاريخ علماء بغداد» (١٩١)، و«التعريف بالمؤرِّخين» (٧١).

(٣) كشف الظنون (٢/ ١٥١٩ ـ ١٥٢٠)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٥)، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٦/ ١٤٤).

اختصره سبط ابن الجوزي ـ على ما رجَّحْتُه ـ من كتاب «سلوان المطاع في عدوان الأتباع» لأبي عبد الله محمد بن أبي محمد المعروف بابن ظفر الصقلي، المتوفى بحماة نحو سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م، تنظر المطابقة بين أبوابهما في: «كشف الظنون» (٢/ ٩٩٨، ١٥١٩ ـ ١٥٢٠). وألمعَ إلى ذلك الدكتور إحسان عباس في تقديمه للجزء الأول من «مرآة الزمان» (ص٣٥)، طبعة دار الشروق، بيروت. وترجم ابنُ خَلِّكان لابن ظفر في «وفياته» (٤/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧).

ومن «كنز الملوك» نسخة في معهد الدِّراسات الإسلامية العليا بجامعة بغداد برقم (١٤٠)، ومصوَّرة عنها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة. ينظر: «فهرس المخطوطات المصورة» (ج١/ ق٥/ ١٥٧). وله طبعة بعناية غوسطا فيتستم في السويد سنة ١٩٧٠م، ولم أقف عليها.

(٤) تاج التراجم (٢٨٨)، وطبقات المفسرين للأدنه وي (٢٣٩)، وكشف الظنون (٢/ ١٥٩٢)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٥). =

١٩ ـ «المختصر اللامع على شرح المختصر والجامع»[١].

٢٠ ـ «مقتضى السياسة في شرح نكت الحماسة»[٢].

٢١ ـ «مناقب أبي حنيفة»[٣].

٢٢ ـ «مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه»، في أربعة أجزاء حديثية ضخمة[٤].

= والكتاب لمَّا يصل إلينا، ولعله في ترجمة الملك المعظم عيسى بن العادل وأخباره.

(١) بهذا العنوان سمَّاه سبط ابن الجوزي في كتابه «إيثار الإنصاف» (٣٣)، وذكر فيه جميع أحاديث الأحكام.
وجاء في: تاج التراجم (٢٨٨)، وطبقات المفسرين للأدنه وي (٢٣٩)، والفوائد البهية (٢٣٠)، ومفتاح السعادة (١/ ٢٣٥)، وكشف الظنون (٢/ ١٥٦٩)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٥)، وفهرس الفهارس والأثبات (٢/ ١١٣٨) بعنوان «اللوامع في أحاديث المختصر والجامع».

(٢) ذكره الزركلي في «الأعلام» (٨/ ٢٤٦)، واختصر بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي» (٦/ ١٤٤) عنوانه إلى «شرح الحماسة».
وقد وَهِمَ إسماعيل باشا البغدادي في نسبته إلى ابن قيِّم الجوزية محمد بن أبي بكر الدِّمشقي الحنبلي. ينظر: «إيضاح المكنون» (١/ ٤٢٢، ٢/ ٥٤٠)، و«هدية العارفين» (٢/ ١٥٩).
ومنه نسخة بخطِّ سبط ابن الجوزي في جامعة إستانبول برقم (٧٧٨)، ومصوَّرة عنها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم أدب (٧١٠)، وأخرى في المتحف البريطاني برقم (١١٠٨)، (٣٧٤١). ينظر: «حماسة أبي تمام وشروحها» (١٩٥ ـ ٢٠١) للدكتور عسيلان، و«شروح حماسة أبي تمام» (٨٧) للدكتور محمد عثمان علي، و«تاريخ التراث العربي» لسزكين: الشعر (مج٢/ ج١/ ١١٦).

(٣) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٨)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧)، والوافي بالوفيات (٢٩/ ١٢٢)، ومرآة الجنان (٤/ ١٠٥)، وكشف الظنون (٢/ ١٨٣٧).

(٤) تاريخ علماء بغداد (١٩١)، وذكر السَّلامي أنه رآه في وقف المدرسة النورية بدمشق.
ومن سياق كلام السَّلامي عنه يُفهم أنه كتاب آخر غير «رياض الأفهام»، ولعلَّ =

٢٣ ـ «منتهى السول في سيرة الرسول ﷺ»[١].

٢٤ ـ «نشوان المحاضرة»[٢].

٢٥ـ «النضيد في مسائل التوحيد»[٣].

٢٦ـ «نهاية الصنائع في شرح المختصر والجامع»[٤].

٢٧ـ «وسائل الأسلاف إلى مسائل الخلاف»، وهو مطبوع[٥].



= سبط ابن الجوزي أفرده لمناقب الإمام علي رضي الله عنه دون سائر أهل البيت، كما يشي عنوانه، وتوسَّع في ترجمته، فذكر فيه ما لم يذكره في «رياض الأفهام»، وقد ساق فيه أخباره مختصرة، كما صرَّح بذلك في غير ما موضع منه، والله أعلم.
والكتب التي ألفت بمناقبه وفضائله رضي الله عنه كثيرة، لعل أشهرها كتاب «فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» للإمام أحمد ابن حنبل.

(١) تاج التراجم (٢٨٨)، وطبقات المفسرين للأدنه وي (٢٣٩)، والفوائد البهية (٢٣٠)، ومفتاح السعادة (١/ ٢٣٥)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٥)، وفهرس الفهارس والأثبات (٢/ ١١٣٨)، والأعلام (٨/ ٢٤٦).
ومنه نسخة خطية في دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (٧٩٣٣). ينظر: «معجم المؤرخين الدمشقيين» (٩٣)، و«فهرس دار الكتب الظاهرية» التاريخ وملحقاته (٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣)، وذكر أنه مطبوع، ولم أقف على طبعته. وفات الدكتور صلاح الدين المنجد أن يذكره في كتابه «معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ».

(٢) هكذا ذكره الأستاذ عبود الشالجي في مقدمة تحقيقه لكتاب «نشوار المحاضرة» (١/ ٧، ١٦)، وذكر أن له نسخة بمصر بعث بها إليه أحد إخوانه، ولم يعين مكانها، ووضع صورة من صفحة عنوانه وآخر ورقة منه، ويشتمل على أقاصيص وحكايات على غرار النشوار.

(٣) ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (١/ ٢١).

(٤) كشف الظنون (٢/ ١٩٨٨)، وهدية العارفين (٢/ ٥٥٥).

(٥) حققه سيد محمد المهنى، وصدر عن دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ولم يتسنَّ لي الوقوف عليه.



تلاميذه

وذُكِرَ لسبط ابن الجوزي تلاميذُ عِدَّة، رتبتهم على سني وَفَياتهم، وهم:

١ ـ المُسْنِد الرَّحَّالة عماد الدِّين عبد الحافظ بن بدران بن شِبْل بن طَرْخان؛ شيخ نابلس، المتوفى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م[١].

٢ ـ المحدِّث المتقن نجم الدِّين موسى بن إبراهيم بن يحيى الشَّقْرَاوي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م[٢].

٣ ـ الحافظ الكبير شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي، المتوفى سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٦م[٣]، وهو أشهرهم[٤]، وقد ترجم لسبط ابن الجوزي في «معجم شيوخه»[٥].

٤ ـ المسند الثقة عماد الدِّين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن

---

(١) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧)، وتنظر ترجمته في: «الذيل على طبقات الحنابلة» (٤/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣)، و«معجم الشيوخ» للذهبي (١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨)، و«تاريخ الإسلام» (١٥/ ٨٧٤).

(٢) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧)، وله ترجمة في «المعجم المختص» للذهبي (٢٨٤ ـ ٢٨٥)، و«الدرر الكامنة» (٤/ ٣٧١).

(٣) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧)، والوافي بالوفيات (٢٩/ ١٢٢).

(٤) تنظر ترجمته في: «المعجم المختص» للذهبي (٩٥ ـ ٩٦)، و«طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي (٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣)، وقد استقصيتُ ثمة مصادر ترجمته.

(٥) (الورقة ٢١١)، وعندي مصورة منه بخطه عن النسخة التونسية.

علي ابن البالسي الدِّمشقي، المتوفى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م[١].

٥ ـ الخليل الأمين عز الدِّين أبو بكر بن عباس بن عبدان بن عبد الظاهر بن الشَّايب الدِّمشقي، المتوفى سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م[٢].

٦ ـ المفتي المعمَّر زين الدين عبد الرحمٰن بن نصر بن عبيد الدِّمشقي الصَّالحي الحنفي، المتوفى سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م[٣].

٧ ـ العالم المُسْنِد شمس الدِّين محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء بن الزَّرَّاد الصَّالحي، المتوفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م[٤].

٨ ـ المُسْنِد الزَّاهد محبُّ الدِّين محمد ابن المحدِّث محبِّ الدِّين عبد الله بن أحمد بن أبي بكر المقدسي الصَّالحي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م[٥].

٩ ـ الخطيب تقي الدِّين أحمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن القُدْوة أبي عمر ابن قدامة المقدسي الصَّالحي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م[٦].

---

(١) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧)، وله ترجمة في «معجم الشيوخ» للذهبي (٢/ ٢٤٥)، و«ذيول العبر» (٦١)، و«الدرر الكامنة» (٤/ ٨٣).

(٢) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧)، وله ترجمة في «معجم الشيوخ» للذهبي (٢/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦)، و«توضيح المشتبه» (٥/ ١٣).

(٣) تاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧)، وله ترجمة في «معجم الشيوخ» للذهبي (١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤)، و«الدرر الكامنة» (٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

(٤) تاريخ علماء بغداد (١٩٠) ـ وتحرف فيه اسمه إلى حمد ـ وتاريخ الإسلام (١٤/ ٧٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩٧)، وتنظر ترجمته في: «معجم الشيوخ» للذهبي (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠)، و«ذيول العبر» (١٤٨)، و«الوافي بالوفيات» (٢/ ١٠٤)، و«الدرر الكامنة» (٣/ ٣٧٦).

(٥) تاريخ علماء بغداد (١٩١)، وله ترجمة في «معجم الشيوخ» للذهبي (٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

(٦) تاريخ علماء بغداد (١٩١)، وله ترجمة في «معجم الشيوخ» للذهبي (١/ ٢٨ ـ ٢٩)، و«الدرر الكامنة» (١/ ٩٢).

١٠ ـ القاضي شرف الدِّين عبد الله بن الحسن بن عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م[(١)].

١١ ـ الشيخ الأصيل نجم الدِّين أبو بكر بن محمد بن أحمد بن علي بن عنتر السَّلَمي الدمشقي، المتوفى سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م[(٢)].

١٢ ـ المسند الصَّالح أبو بكر بن محمد بن الرِّضا بن عبد الرحمٰن القطان، المقدسي الصَّالحي، المتوفى سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م، له منه إجازة[(٣)].

١٣ ـ المسندة المعمَّرة زينب ابنة الشيخ كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسية الصَّالحية، المتوفاة سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م[(٤)].

١٤ ـ مسند الشَّام المقرئ شهاب الدِّين أحمد بن علي بن حسن بن داود الجَزَري الصَّالحي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٣م[(٥)].

١٥ ـ خديجة بنت بَلَبان؛ مملوك سِبْط ابن الجوزي وعتيقه[(٦)].

---

(١) تاريخ علماء بغداد (١٩٠)، وله ترجمة في «معجم الشيوخ» للذهبي (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، و«الدرر الكامنة» (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

(٢) الوفيات للسَّلامي (١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، وله ترجمة في «الدرر الكامنة» (١/ ٤٥٦).

(٣) المنهل الصافي (١٢/ ٣٠٣)، وله ترجمة في «ذيول العبر» (٢٠٠)، و«الدرر الكامنة» (١/ ٤٥٩).

(٤) ذيول العبر (٢١٣)، والوفيات للسَّلامي (١/ ٣١٦ ـ ٣١٨)، ولها ترجمة في «معجم الشيوخ» للذهبي (١/ ٢٤٨)، و«الدرر الكامنة» (٢/ ١١٧ ـ ١١٨).

(٥) تاريخ علماء بغداد (١٩١)، وله ترجمة في «ذيول العبر» (٢٣٢)، و«الوفيات» للسَّلامي (١/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣)، و«الدرر الكامنة» (١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٦) تاريخ علماء بغداد (١٩١)، ولم أقف على سنة وفاتها.
ولخديجة أَخٌ من أبيها بلبان هو الشيخ الإمام نجم الدِّين عمر الدمشقي الحنفي، ولد سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وطلب الحديث بنفسه، وله خط منسوب، ويعرف طرفًا من اللغة، وتولى مشيخة المدرسة العزية البرانية، ووفاته سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م، له ترجمة في «معجم الشيوخ» للذهبي (٢/ ٧٠)، و«الوفيات» للسلامي (١/ ٤٠٩ ـ ٤١٠)، و«الجواهر المضية» (٢/ ٦٤١)، و«الدرر الكامنة» (٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، وتنظر: (ص ٢١١) من هذا الكتاب.



ثبت المصادر والمراجع

- «**أبو شامة مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين**»، (دراسة تحليلية في سيرته وآثاره التاريخية)، تأليف: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- «**أخبار سلاجقة الروم**»، تأليف حسين بن محمد بن علي الجعفري، المعروف بابن البيبي، تحقيق: هوتسما، ترجمة: محمد السعيد جمال الدين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
- «**الأعلام**»، تأليف: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
- «**الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ**»، تأليف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، مطبوع ضمن كتاب «علم التاريخ عند العرب» لفرانز روزنثال، ترجمة: الدكتور صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- «**الانتصار والترجيح للمذهب الصحيح**»، تأليف: شمس الدين يوسف بن قزأغلي، المعروف بسبط ابن الجوزي، قدم له: الشيخ محمد زاهد الكوثري، ووقف على طبعه وراجع أصله: عزت العطار الحسيني، مطبعة الأنوار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م.
- «**إيثار الإنصاف في آثار الخلاف**»، تأليف: شمس الدين يوسف بن قزأغلي، المعروف بسبط ابن الجوزي، تحقيق: ناصر العلي الناصر الخليفي، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
- «**إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**»، تأليف: إسماعيل باشا البغدادي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- «**البداية والنهاية**»، تأليف: أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق ثلة من المحققين، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

- «**تاج التراجم فيمن صنف من الحنفية**»، تأليف: زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي، عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- «**تاريخ الأدب العربي**»، تأليف: كارل بروكلمان، ترجمة: الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.
- «**تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**»، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حققه وضبط نصه وعلق عليه: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- «**تاريخ التراث العربي**»، تأليف: الدكتور فؤاد سزكين، مج٢/ ج١، ٢، الشعر إلى حوالي سنة ٤٣٠هـ، نقله إلى العربية: الدكتور محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- **تاريخ جهانكشاي «تاريخ فاتح العالم»**، تأليف: عطا ملك الجويني، ترجمة: الدكتور محمد ألتونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- «**تاريخ الحروب الصليبية**»، تأليف: ستيفن رنسيمان، نقله إلى اللغة العربية: الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
- «**التاريخ العربي والمؤرخون**»، تأليف: الدكتور شاكر مصطفى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- «**تاريخ علماء بغداد، المسمى منتخب المختار**»، تأليف: أبي المعالي محمد بن رافع السَّلامي، انتخبه: تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي، صححه وعلق حواشيه: عباس العزاوي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- «**تاريخ مختصر الدول**»، تأليف: غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري، مصورة عن طبعة المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م.
- «**التبصرة**»، لأبي الفرج عبد الرحمٰن ابن الجوزي، تحقيق: الدكتور مصطفى عبد الواحد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- «**تكملة المعاجم العربية**»، تأليف: رينهارت دوزي، نقله إلى العربية وعلق عليه: الدكتور محمد سليم النعيمي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.

- «**تذكرة الخواص**»، تأليف: شمس الدين يوسف بن قزأغلي بن عبد الله، المعروف بسبط ابن الجوزي، قدم له: محمد صادق بحر العلوم، إصدار مكتبة نينوى الحديثة، طهران = رياض الأفهام.
- «**التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان**»، تأليف: عباس العزاوي، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- «**التكملة لوفيات النقلة**»، تأليف: زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، حققه وعلق عليه: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- «**تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**»، تأليف: أبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني، حققه وراجع أصوله وعلق عليه: عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله بن محمد الصديق الغماري، طبعة مصورة عن طبعة مكتبة القاهرة، بدار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- «**توضيح المشتبه**»، تصنيف: محمد بن عبد الله بن محمد القيسي، الشهير بابن ناصر الدين الدمشقي، حققه وعلق عليه: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- «**الجليس الصالح والأنيس الناصح**»، تأليف: شمس الدين يوسف بن قزأغلي، المعروف بسبط ابن الجوزي، تحقيق: الدكتور فواز صالح فواز، دار الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٩م.
- «**الجواهر المضية في طبقات الحنفية**»، تأليف: محيي الدين عبد القادر بن محمد القرشي الحنفي، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- «**حماسة أبي تمام وشروحها**»، تأليف: الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٨م.
- «**الحماسة البصرية**»، تأليف: العلامة صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري، تحقيق وشرح ودراسة: الدكتور عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- **الحملة الصليبية الخامسة «حملة جان دي برين على مصر»**، تأليف: الدكتور محمود سعيد عمران، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- «**حملة لويس التاسع على مصر**»، تأليف: محمد مصطفى زيادة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٦١م.

- «**الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة**»، المنسوب خطأً لابن الفوطي، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- «**خطط دمشق**»، تأليف: صلاح الدين المنجد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤٩م.
- «**خطط المقريزي = المواعظ والاعتبار**».
- «**الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**»، تأليف: شهاب الدين أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني، تصحيح: الدكتور سالم الكرنكوي الألماني، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.
- «**الدليل الشافي على المنهل الصافي**»، تأليف: جمال الدين يوسف بن تغري بردي، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- «**ديوان الشريف الرضي**»، شرحه وحققه: الدكتور محمود مصطفى حلاوي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- «**ذيل تاريخ مدينة السلام**»، تأليف: أبي عبد الله محمد بن سعيد بن الدبيثي، حققه وضبط نصه وعلق عليه: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- «**الذيل على طبقات الحنابلة**»، تأليف: عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب، حققه وقدم له وعلق عليه: الدكتور عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- «**ذيل مرآة الزمان**»، تأليف: قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، أعادت نشره دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- «**ذيول العبر = من ذيول العبر**».
- «**رحلة ابن جبير**»، تحقيق: الدكتور حسين نصار، القاهرة.
- «**الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُّنَّة المشرفة**»، تأليف: محمد بن جعفر الكتاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- «**رياض الأفهام في مناقب أهل البيت**»، هو المطبوع خطأً باسم «**تذكرة الخواص**».
- «**السلوك لمعرفة دول الملوك**»، تأليف: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، طبعة ثانية منقحة، ١٩٥٧م.

- «**سير أعلام النبلاء**»، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق ثلة من المحققين بإشراف: الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
- «**سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي**»، تأليف: محمد بن أحمد النسوي، نشر وتحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م.
- «**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**»، تأليف: شهاب الدين عبد الحي بن أحمد بن محمد، المعروف بابن العماد الحنبلي، الدمشقي، القاهرة، طبعة حسام الدين القدسي، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.
- «**شروح حماسة أبي تمام، دراسة موازية في مناهجها وتطبيقها**»، تأليف: الدكتور محمد عثمان علي، دار الأوزاعي، بيروت، الطبعة الأولى.
- «**شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل**»، تأليف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، تحقيق: الدكتور محمد كشاش، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- «**صلة التكملة لوفيات النقلة**»، تأليف: عز الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن الحسيني، حققه وضبط نصه وعلق عليه: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- «**طبقات الشافعية الكبرى**»، تأليف: تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح الحلو، والدكتور محمود محمد الطناحي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- «**طبقات علماء الحديث**»، تأليف: محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي، تحقيق: أكرم البوشي وإبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- «**طبقات المفسرين**»، تأليف: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- «**طبقات المفسرين**»، تأليف: أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- «**العباب الزاخر واللباب الفاخر**»، تأليف: رضي الدين الحسن بن محمد الصغاني، الجزء الأول، تحقيق: الدكتور فير محمد حسن، المجمع العلمي العراقي، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

- «**علم التاريخ عند العرب = الإعلان بالتوبيخ**».
- «**عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**»، تأليف: بدر الدين محمود العيني، عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٦٦٤هـ)، حققه ووضع حواشيه: الدكتور محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- «**عقود الجمان = قلائد الجمان**».
- «**العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية**»، تأليف: الدكتور عادل عبد الحافظ حمزة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.
- «**فتح الباري شرح صحيح البخاري**»، للحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، عناية: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المكتبة السلفية.
- «**فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي**»، تأليف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، تحقيق وتعليق: علي حسين علي، دار الإمام الطبري، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
- «**الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**»، تأليف: محمد بن علي بن طباطبا، دار صادر، بيروت.
- «**فهرس دار الكتب الظاهرية، التاريخ وملحقاته**»، وضعه: خالد الريان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م.
- «**فهرس الفهارس والأثبات**»، تأليف: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، باعتناء الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- «**الفوائد البهية في تراجم الحنفية**»، تأليف: أبي الحسنات محمد بن عبد الحي اللكنوي، صححه: محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة، بيروت.
- «**فوات الوفيات**»، تأليف: محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- «**قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**»، **المشهور بـ«عقود الجمان في شعراء هذا الزمان**»، تأليف: كمال الدين أبي البركات المبارك بن الشعار الموصلي، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- «**القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**»، تأليف: محمد بن طولون الصالحي، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.
- «**الكامل في التاريخ**»، تأليف: عز الدين علي بن محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- «**كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**»، تأليف: شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، حققه وعلق عليه: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- «**كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**»، تأليف: مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- «**اللباب في تهذيب الأنساب**»، تأليف: عز الدين بن الأثير الجزري، مكتبة المثنى، بغداد.
- «**لسان الميزان**»، تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- «**لفتة الكبد إلى نصيحة الولد**»، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي، شرح وتحقيق: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- «**المختار من تاريخ ابن الجزري، المسمى حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه**»، تأليف: محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري، اختيار: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دراسة وتحقيق: خضير عباس محمد خليفة المنشداوي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- «**مختصر سلجوق نامه = أخبار سلاجقة الروم**».
- «**المختصر في أخبار البشر**»، تأليف: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، المطبعة الحسينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.
- «**المذيل على الروضتين ـ تاريخ الدولة الأيوبية ما بعد صلاح الدين حتى دولة المماليك في عهد الظاهر بيبرس**»، تأليف: شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، حققه وعلق عليه: إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية، ودار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

- «**مرآة الجنان وعبرة اليقظان**»، تأليف: عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- «**مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**»، تصنيف: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قِزْأُغْلي بن عبد الله، المعروف بسبط ابن الجوزي، حققه ثلة من المحققين، أما الأجزاء ٢٠، ٢١، ٢٢، فحققها وعلق عليها: إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- «**مرآة الشام**»، تأليف: عبد العزيز العظمة، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، دار الفكر بدمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- «**مسند الإمام أحمد ابن حنبل**»، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، وإبراهيم الزيبق، وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- «**مشيخة ابن الجوزي**»، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي، تقديم وتحقيق: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م.
- «**معجم البلدان**»، تأليف: ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
- «**معجم شيوخ الدمياطي**»، نسخة بخطه في دار الكتب التونسية، في ٢٢٨ ورقة، تضم الأجزاء (٢٨ ـ ٤٤)، ومنها مصورة في معهد المخطوطات العربية بالكويت.
- «**معجم الشيوخ، المعجم الكبير**»، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: الدكتور محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- «**المعجم المختص**»، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: الدكتور محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- «**المعجم المشتمل للتراث العربي المطبوع**»، جمع وإعداد وتحرير: الدكتور محمد عيسى صالحية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٢ ـ ١٩٩٥م.
- «**معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة**»، تأليف: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

- «**معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**»، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: الدكتور طيار آلتي قولاج، مركز البحوث الإسلامية، استانبول، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- «**مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**»، تأليف: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- «**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**»، تأليف: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، ج١ ـ ٣ تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٣م، وج ٤ ـ ٥ تحقيق: الدكتور حسنين محمد ربيع، وج ٦ تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- «**من ذيول العبر**»، للذهبي والحسيني، تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، راجعه: الدكتور صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد فراج، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
- «**منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ـ الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية**»، تأليف: الشيخ عبد القادر بن بدران، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- «**المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**»، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الطبعة الأولى، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.
- «**المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**»، تأليف: جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، حققه ووضع حواشيه: الدكتور محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- «**المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**»، تأليف: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، تحقيق: الدكتور أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- «**ميزان الاعتدال في نقد الرجال**»، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق ثلة من المحققين، دار الرسالة العالمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- «**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**»، تأليف: جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

- «**نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية، وما كان فيهما من الوقائع التاتارية**»، اختصار: شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، حققه وعلق عليه: إبراهيم الزيبق، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.
- «**نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**»، تأليف: أبي علي المحسن بن علي التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
- «**هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**»، تأليف: إسماعيل باشا البغدادي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- «**الوافي بالوفيات**»، تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق واعتناء: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- «**الوفيات**»، تأليف: أبي المعالي محمد بن رافع السلامي، حققه وعلق عليه: صالح مهدي عباس، أشرف عليه وراجعه: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- «**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**»، تأليف: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

المجلات:

- **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**، مج: ٨٨.



المحتوى

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

